

المرأة والصراع النفسي

**مؤلفات الدكتورة نوال السعداوي
التي تنشرها دار ومطابع المستقبل**

المرأة والجنس

الأنثى هي الأصل

الرجل والجنس

المرأة والصراع النفسي

الوجه العاري للمرأة العربية

ظروف المرأة في المجتمع الاسلامي

نوال السعداوى

المرأة والصراع النفسى

دار ومطابع المستقبل

بالقاهرة بالقاهرة وصبة زحلول بالاسكندرية

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثالثة ١٩٩٣

الجزء الأول

دراسة

أولاً : المقدمة

خلال السنوات الطويلة التى مارست فيها مهنة الطب فى عيادتى الخاصة أو فى المستشفيات العامة، أو من المترددين والمترددات على بيتى من أصحاب المشاكل النفسية والجنسية والاجتماعية، أو من القراء والقارئات الذين تابعوا مقالاتى فى مجلة «الصحة» قبل أن تتوقف، أو الكتب والدراسات التى نشرتها. من خلال ذلك كله ومن خلال زميلاتى وصديقاتى من النساء والفتيات اللاتى يفتحن قلوبهن لى بحكم الصداقة، وبحكم الفهم المشترك، وبحكم أننى امرأة مثلهن، أدرك معاناتهن وأقدرها بل وأحترمها، وأحترم الأخطاء (أو ماتسمى الأخطاء) مثلما أحترم أى تصرف آخر يعتبره المجتمع التصرف الصحيح السليم. من خلال كل ذلك أدركت الحاجة الشديدة إلى أن نبدأ فى دراسة «العصاب» الذى تشكو منه النساء والفتيات، والذى يمثل ظاهرة جديدة

بين النساء وخاصة النساء المتعلّقات.

والعصاب كمرض نفسى قد لا يكون شديداً إلى الحد الذى يعطل المرأة عن عملها أو روتين حياتها اليومية، وقد لا يدفع المرأة إلى الذهاب إلى طبيب نفسى، وقد تعيش به المرأة وتموت به دون أن يدرك من حولها أنها مصابة بالعصاب، بل دون أن تدرك هى نفسها أنها مصابة بالعصاب، أو أسباب تلك الكآبة التى تشعر بها من حين إلى حين، أو أسباب ذلك الصداع المستمر فى نصف رأسها، أو ذلك الخمول والرغبة فى الكسل والنوم ، أو ذلك الأرق فى بعض الليالى، أو تلك الأحلام المزعجة التى تراها فى نومها بعض الأحيان القليلة أو الكثيرة، أو ذلك الأعراض عن الأكل أو الجنس أحياناً ، أو ذلك النهم الشديد للأكل إلى حد الزيادة فى الوزن بشكل ملفت للنظر، أو ... أو ... ، عشرات الأعراض البسيطة أو الشديدة ، المؤقتة أو الدائمة، لكنها فى معظم الأحيان غير قاتلة، أو غير متعارضة مع الاستمرار فى الحياة اليومية وروتين الحياة اليومية . صحيح أن النشاط لم يعد كما كان، وصحيح أن الإقبال على الحياة لم يعد كما كان، وصحيح أن هناك بعض الآلام الجسدية أو النفسية من حين إلى حين، لكن الحياة تسير، ربما تسير ببطء أكثر، وربما تسير بغير بهجة وبغير لذة، لكنها تسير. وما دامت تسير فلا داعى للبحث عن أسباب تلك الأعراض ، أو إدراك كنهها. ربما لا تكون مرضاً يستدعى العلاج، وربما تكون شيئاً طبيعياً تشعر به كل النساء

بسبب الدورة الشهرية، أو ما يسمى عرفاً بالمرض الشهرى (الحيض) أو بسبب الحمل أو الولادة، أو بسبب تغير الجو والمواسم، أو بسبب التقدم فى العمر (قد لا تكون المرأة قد بلغت الثلاثين بعد) أو لأي سبب آخر.

ويمثل ما تتجاهل المرأة الأعراض التى تشعر بها ، بمثل ما يتجاهلها من حولها من أفراد الأسرة، وبالذات إذا كانت الأسرة من الطبقة الكادحة أو الطبقة المتوسطة أو تحت المتوسطة ، وهذه الطبقات فى مجتمعنا المصرى تشكل الأغلبية الساحقة من الرجال والنساء والأطفال. وتتميز هذه الطبقات بأن مشاكلها الاقتصادية والاجتماعية تغلب على مشاكلها الأخرى، وليس هناك من جهد أو وقت للاهتمام بالأعراض الجسدية غير الملحة أو غير المتعارضة مع سير الحياة، أو غير القاتلة أو المعجزة لرب الأسرة الكادح أو الرجال الذين ينفقون على الأسرة. أما الأعراض غير الجسدية (أو النفسية) فلا أحد يهتم بها أو يلحظها، اللهم إلا إذا تحولت إلى مرض عقلى شديد، أو الجنون الكامل الذى يحول دون ذهاب الرجل إلى عمله أو يجعله خطراً على الأسرة أو المجتمع.

وحيث أن مكانة المرأة فى الأسرة المصرية أقل من الرجل بصفة عامة فإن نصيب المرأة من التجاهل والأهمال أكثر من نصيب الرجل ، وصحة المرأة الجسدية ليست فى أهمية صحة الرجل الجسدية. أما صحة المرأة النفسية، فهذا أمر لا تفتن إليه الأغلبية الساحقة من الأسر المصرية إلا فى حالة واحدة، وهى حالة جنون المرأة الواضح، الذى يعطل المرأة عن

عملها فى البيت أو فى الحقل أو فى المصنع أو فى المكتب، وتصبح بلا فائدة، أو تصبح مصدراً للمشاكل ، حينئذ يدرك الجميع أنها مريضة ولا بد من ادخالها المستشفى العقلى أو النفسى، بغرض العلاج أو بغرض التخلص من وجودها داخل الاسرة.

لكن المرأة فى الطبقات المستريحة اقتصادياً أكثر حظاً بالعناية، وان كان حظها من العناية أقل من حظ الرجل فى الأسرة نفسها، اللهم إلا إذا كانت امرأة ثرية، وهى التى تنفق من أموالها على زوجها وأولادها. حينئذ تتغير القيم، وتشعر المرأة بقيمتها. ويشعر من حولها أيضاً بقيمتها، وتصبح أعراضها الجسدية أو النفسية محط الاهتمام والعناية . فهى فى النهاية التى تدفع نفقات الطبيب والعلاج، وهى صاحبة القرار فى اعتبار «الصداع» مثلاً مرضاً يستحق زيارة الطبيب أو مجرد شئ طبيعى يحدث لكل النساء، وهى التى تقرر ما إذا كان المفروض أن تذهب إلى طبيب باطنى أو أمراض نساء أو طبيب نفسى.

على أن مثل هؤلاء النساء قليلات، فالمرأة حتى وان كانت تنفق على الأسرة أو تشارك فى الأنفاق فهى مازالت خاضعة بحكم العرف والقوانين والأديان للرجل، وكثيراً ما يسيطر الرجل على مالها أو راتبها الشهرى ويصبح هو صاحب القرار فيما إذا كان الصداع أو الأرق سبباً يستحق التضحية بخمسة جنيهات أو عشرة.

ويمكن لنا أن نتصور هذه النسبة القليلة جداً من النساء اللاتى

يستطعن فى النهاية الوصول إلى الطبيب النفسى بسبب أعراض العصاب المؤقتة أو الدائمة وليس بسبب الهستيريا الواضحة.

وإذا عرفنا أن أغلبية أطباء النفس فى مصر رجال، وأنهم لا يختلفون كثيراً بحكم التربية والتعليم والدين والعرف من الرجال الآخرين من حيث نظرتهم إلى المرأة، وأنهم بحكم التعليم الطبى التقليدى المتوارث عن سيجموند فرويد الوريث الشرعى لكهنة العصور الوسطى، لا يعرفون حقيقة المرأة جسداً ونفساً، أو يعرفونها من خلال نظرية فرويد الخالدة التى حكمت بأن المرأة ذكر ينقصه عضو الذكر، أو أنثى خصيت جسداً وعقلاً بحيث لا يزيد طموحها الجسدى أو العقلى عن الأكل والانجاب والطاعة وخدمة الرجل والاطفال.

إذا عرفنا أن أغلبية أطباء النفس فى مصر (بل فى العالم الأبوئ كله أيضاً) على هذا النحو، فما الذى يمكن أن يفعله الطبيب النفسى لعلاج امرأة مصابة بالعصاب، خاصة إذا علمنا أن العصاب يصيب النساء بسبب ذلك الاحباط المستمر فى طموحهن الجسدى والعقلى نتيجة ذلك المفهوم التقليدى عن أن المرأة أقل من الرجل جسداً وعقلاً، وأنها لم تخلق إلا لخدمة الرجل والاطفال والطاعة والانجاب.

ولا أعني بذلك أن الطبيبات النفسيات أحسن حالاً من الأطباء لمجرد كونهن نساء ، فكم من امرأة أكثر تخلفاً فى نظرتها لنفسها ولبنات جنسها من الرجال. لكنى أعني أن الطب النفسى والجسدى لازال يشتمل

علي حقائق غير حقيقية. ولا زال في حاجة إلى عقول ثورية تنقيه من خزعبلات العصور الوسطى. وتدعمه بالأفكار المتنورة الحديثة عن المرأة وعن الرجل أيضاً.

بل لابد من الاعتراف بفضل عدد من النساء والرجال من مختلف البلاد في الشرق والغرب الذين ساهموا في الماضي القريب والبعيد في تغيير الحقائق النفسية والطبية التقليدية، والذين لا يساهمون حتى اليوم، ولا زالوا يدرسون ويبحثون ويكتبون ويشورون رغم ما يصادفون من معاناة ومشاق قد تصل إلى حد السجن أو الضرب أو الفصل من العمل أو التجويع أو القتل.

ان هؤلاء الرواد القلائل من النساء والرجال هم الذين مهدوا الطريق أمامنا، وعلينا أن نواصل المسيرة والبحث من أجل حياة أفضل للنساء والرجال والاطفال، لا يقلل من عزمنا تشريد أو تجويع أو اضطهاد ، فالأفكار الجديدة في كل مكان وزمان تصارعها الأفكار القديمة، والتاريخ البشري قد أثبت في جميع الأزمنة والعهد أن الانتصار دائماً في صف الجديد، وفي صف التقدم. ومن أجل هذا تسير حياة البشر إلى الأمام وليس إلى الوراء.

ثانيا : ضاهو حجم المشكلة

أدركت وجود المشكلة (وهى اصابة النساء المصريات بالعصاب) من كثرة الأعراض العصابية التى كانت تشكو منها النساء والفتيات اللاتى كن يترددن على عيادتى أو بيتى أو مكتبى فى مجلة «الصحة»، ومن أن نسبة كبيرة من صديقاتى النساء المتعلّمات كن يشكين لى دائماً من أعراض نفسية وعصابية. وقد لاحظت بصفة عامة أن حياة المرأة فى مجتمعنا المصرى حياة لا تحقق لها السعادة أو الصحة النفسية ، وأنه من النادر جداً إذا ما صادفت امرأة تشعر بالرضى أو بالتحقق جسدياً أو نفسياً.

وانطلاقاً من هذا الادراك غير المدعم بالأرقام العلمية فقد بدأت أبحث عن حجم المشكلة الحقيقى، أو عن نسبة اصابة النساء بالعصاب فى مجتمعنا. وقد لجأت من أجل هذا إلى مراكز البحوث عندنا سواء فى الجامعات أو المعاهد، ودهشت حينما أكتشفت أن مثل هذه البحوث غير موجودة. وأن أحداً لا يعرف النسبة الحقيقية للعصاب بين

النساء والفتيات.

إلا اننى ألتقيت فى كلية الطب بجامعة عين شمس بالزميل الاستاذ الدكتور أحمد عكاشه والدكتور عادل صادق، وهما اللذان وجهانى إلى العيادة النفسية التابعة للمراقبة العامة للشؤون الطبية لجامعة عين شمس ، وهذه العيادة النفسية هى المختصة بفحص وعلاج المرضى والمريضات نفسياً من طلبة وطالبات جامعة عين شمس.

وقد رأيت أنه يمكن من خلال الأطلاع على دفاتر هذه العيادة النفسية الوصول إلى نسبة تقريبية عن الأصابة بالعصاب بين طالبات جامعة عين شمس كالآتى :

أولا : العيادة النفسية بالمراقبة العامة للشؤون الطبية لجامعة عين

شمس

تخدم : ٥٤٢٤٠ طالبا وطالبة

منهم : ٢٩٨٣٢ طالبة

و : ٢٤٤٠٨ طالبا

عدد المريضات بالعصاب من الطالبات حسب تشخيص أطباء العيادة

النفسية : ٢٧٣٥ طالبة

عدد المرضى بالعصاب من الطلبة : ١٥٣٤ طالبا

نسبة العصاب بين الطالبات = ٩ر١ بالمئة

نسبة العصاب بين الطلبة = ٦ر٢ بالمئة

من هذه الأرقام يتضح أن نسبة العصاب بين الطالبات أعلى منها بين الطلبة، وهذا أمر يستدعى البحث والدراسة لمعرفة الأسباب التي تجعل الطالبة المصرية أكثر عرضة للأصابة بالعصاب من زميلها الطالب المصري الذي يعيش في الظروف الاجتماعية والاقتصادية نفسها .

كما أننا لو اعتبرنا أن طالبات جامعة عين شمس يمثلن الطالبات المصريات الجامعيات بصفة عامة بمختلف طبقاتهن وأسرهن، فإن نسبة ٩ بالمائة تقريباً كمؤشر عام لنسبة الاصابة بالعصاب إنما هي نسبة مرتفعة، خاصة لو وضعنا في اعتبارنا أنها أقل من الحقيقة، لأن عدداً من طالبات الجامعة (وخاصة من الاسر العالية وفوق المتوسطة) لا يذهبن إلى العيادة النفسية التابعة للجامعة وإنما يذهبن إلى طبيب الأسرة الخاص ولا تعلم العيادة النفسية الجامعية عنهن شيئاً.

ولو أننا اعتبرنا الطالبات الجامعيات كمثلات للنساء المتعلقات في مصر، لأستطعنا أن نقول أنه من بين كل مائة امرأة متعلمة في مصر فإن تسعة نساء منهن معرضات للأصابة بالعصاب. وهذه نسبة مفرجة في العلوم الطبية بجميع فروعها وتمثل في حد ذاتها مشكلة تستوجب الدراسة والعلاج.

وقد كان من الطبيعي بعد الوصول إلى هذه النسبة للأصابة بالعصاب بين النساء المتعلقات أن أبحث عن النسبة بين النساء غير المتعلقات. ولم يكن أمامي من مكان للحصول على البيانات المطلوبة سوى عيادة مصر

الجديدة الشاملة التابعة للهيئة العامة للتأمين الصحى (فرع القاهرة).
ومن دفاتر العيادة النفسية لهذه الوحدة حصلت على البيانات التالية :

تخدم : ٩٨٧١ عاملا وعاملة

منهم : ١٩٩٢ عاملة

و : ٧٨٧٩ عاملا

عدد المريضات بالعصاب بين العاملات حسب تشخيص أطباء العيادة
النفسية : ١٤٣ عاملة

عدد المرضى بالعصاب بين العمال : ٣٩٦ عاملا

نسبة العصاب بين العاملات = ٧١٧ر بالمئة

نسبة العصاب بين العمال = ٥٠٢ر بالمئة

ومن هنا أيضاً يتضح أن نسبة الإصابة بالعصاب بين النساء غير
المتعلقات أعلى منها بين الرجال غير المتعلمين الذين يعيشون فى
الظروف الاقتصادية والاجتماعية نفسها.

وبالتعمق الأكثر فى بيانات هذه العيادة أتضح أنها تخدم العاملات
والعاملين فى خمسة بنوك يشملها التأمين الصحى (البنك الأهلى وبنك
القاهرة وبنك مصر وبنك الاسكندرية وبنك ناصر) وتخدم العاملين
والعاملات فى ثلاثة شركات أدوية (الشركة العربية للأدوية وشركة النيل
للأدوية والشركة المصرية لتجارة الأدوية) وتخدم العاملين والعاملات فى
شركة عمر أفندى بمصر الجديدة وشركة شيكوريل بمصر الجديدة وشركة

الازياء الحديثة بمصر الجديدة وشركة مصر للالبان بمصر الجديدة.
وأوضح لى أن أغلبية هؤلاء العاملات لم يحصلن على أكثر من
الابتدائية، وبعضهن لا يقرأ ولا يكتب، ونسبة قليلة حصلت على شهادة
متوسطة، وهن موظفات يعملن أعمالاً كتابية.

وقد وجدت أن عدد هؤلاء الموظفات فى البنوك الخمسة التى تخدمها
العيادة : ١٠٨ موظفات . وكان عدد حالات العصاب بين الموظفات : ٩
حالات. أى أن نسبة العصاب بينهن $= \frac{9}{108}$ بالمثلثة.

وهذه النسبة تزيد قليلاً عن نسبة الإصابة بالعصاب بين العاملات
غير المتعلّمات، لكنها تقل عن نسبة الإصابة بالعصاب بين النساء
الجامعيات المتعلّمات. وهذا يشير إلى أن المرأة تصبح معرضة للإصابة
بالعصاب كلما زادت درجة تعلّمها.

ويمكن القول مما سبق أن حجم المشكلة كبير ويستدعى الانتباه بل
الفرع. ان نسباً أقل من هذه النسبة بكثير أفزعت الأطباء فى بلاد
مختلفة. ان حجم الإصابة بالأمراض النفسية الذى فزعت له الولايات
المتحدة الاميركية لم يضل إلى هذه النسبة، ويقول الدكتور والتر
الفاريز : « كم كانت الصدمة علىّ حين علمت (منذ سنوات ماضية) أن
من بين كل عشرين طفلاً يولدون فى نيويورك هناك طفل واحد معرض
للذهاب إلى المستشفى النفسى ».

وقد يتصور الناس مبلغ الصدمة التى شعرت بها حين أدركت أنه من

بين كل عشر بنات يولدن فى مصر فأن هناك بنت واحدة معرضة للمرض النفسى.

أهناك دافع أقوى من هذا الدافع لأجراء مثل هذا البحث. ومحاولة معرفة الأسباب الحقيقية وراء هذه المشكلة من أجل الوصول إلى العلاج الصحيح ؟

وهكذا يمكن تحديد الهدف من هذا البحث كالآتى :
دراسة الأسباب وراء اصابة النساء والفتيات المصريات بالعصاب والقاء بعض الضوء على المشاكل النفسية التى تتعرض لها المرأة فى مجتمعنا المصرى ومحاولة التعرف على أسبابها الحقيقية بين النساء المتعلمات وغير المتعلمات.

ثالثا : حول التعريفات العلمية

بالرغم من المثل الصينى المعروف الذى يقول بأن « بداية الحكمة هى تسمية الأشياء بأسمائها الصحيحة » فإنه فى مجال الدراسات الطبية النفسية لا يمكن بحال من الأحوال اتباع رأى هذا الصينى الحكيم. فمن المعروف أنه لم يحدث أن أتفق أثنان من أطباء النفس على تشخيص

واحد أو تعريف واحد. ويقول دوجلاس كامبيل : « ليس هناك من فرع من الطب يحتوى على كل هذه التعريفات (والنظريات أيضاً) المتباينة المتغيرة مثل الطب النفسى المعاصر ».

وبعد قراءتى لتعريفات أطباء النفس لمرض العصاب فقد أدركت فى النهاية أنهم جميعاً لا يتفقون على شئ. وقد أشارت . أ. روس أن كلمة عصاب قد أختلطت بكلمة المرض العصبى إلى حد عدم القدرة على التفرقة بينهما. وأنه لهذا السبب كف تماماً عن استخدام كلمة المرض العصبى.

ولم يعد مهماً لدى أطباء النفس (بسبب عدم وجود تعريفات صحيحة) تسمية المرض النفسى بأسم معين. ولكن المهم هو أن يدرك بوضوح أنه مرض نفسى وليس مرضاً عقلياً أو «الدهان» وأن يدرك أنه مرض نفسى وليس مرضاً عضوياً أو جسدياً.

وقد أعتقدت . أ. روس وغيره من العلماء أن المرض النفسى العصاب لا يمكن أن يتحول إلى مرض عقلى أو دهان. وأعتقد آخرون أن المرض النفسى اضطراب فى شخصية الانسان وانفصال بينه وبين المجتمع. وآخرون يعتقدون أن المرض النفسى ليس إلا مبالغة لاحدى الصفات أو التصرفات الطبيعية لشخصية الانسان. ويعتقد كوب أنه فى الحالات المبكرة يمكن الوقوع فى الخطأ وتشخيص المرض العقلى على أنه مرض نفسى فقط .

ولا شك أن هذا التخييط فى التعريفات يعكس المشكلة الاساسية فى الطب النفسى، وهى التخييط فى معرفة أسباب المرض النفسى أو العصبى أو العقلى. أن الجهل بالأسباب الحقيقية يقود إلى جهل بالتعريفات. ولهذا فقد أصبح كثير من أطباء النفس الجدد يكرسون جهودهم لمعرفة أسباب المرض الحقيقية، وقادهم البحث إلى أن يرفضوا المفاهيم النفسية القديمة عن كل من المرأة والرجل أو الطفل. وأن يرفضوا تلك التسمية التى شاعت فى الطب النفسى بأنه مجنون أو عصابى أو طبيعى. وهناك أطباء اليوم يعتقدون أن مثل هذه التسميات خاطئة. فليس هناك من يمكن أن يسمى بالطبيعى، ومن يطلق عليه «عصابى» قد يكون هو الصحيح نفسياً. ومن يطلق عليه «الطبيعى» قد يكون هو المريض نفسياً.

وينطبق هذا الكلام على كل من الرجال والنساء. ومن هنا صعوبة تحديد معنى امرأة عصابية أو مريضة بالعصاب. وبالمثل أيضاً صعوبة تعريف امرأة طبيعية أو سليمة نفسياً. ان دراسة الطب النفسى التقليدى ابتداء من بنيامين روش سنة ١٨١٢ إلى سيجموند فرويد فأننا نجد أن هذا الطب النفسى كان يميل إلى تفسير جميع أنواع السلوك غير العادية على أنها نوع من المرض النفسى. وقد أعتبرت المرأة الذكية الطموحة فى الحياة امرأة عصابية لأنها ترفض وضعها الأدنى بالنسبة للرجل وترفض دورها المفروض عليها فى البيت كخادمة للرجل، والاطفال. أما المرأة

الطبيعية فهي تلك المرأة التي تقبل وضعها الادنى برضى وسرور وتجسد سعادتها في خدمة زوجها وأطفالها. وقد آمن الطب النفسى بأن الصحة النفسية هي التكيف مع المجتمع. وأن المرض النفسى هو عدم التكيف مع المجتمع، أو رفض انقيم أو الدور الذى يفرضه المجتمع على الإنسان رجلاً كان أو امرأة.

وقد وجدت أن التعريف العالمى والمعدل لمعنى العصاب يقول :
«يصبح الانسان مريضاً بالعصاب إذا صادف صعاباً فى التكيف مع هدوئه الداخلى أساساً، أو مع علاقاته بالآخرين. أو الاثنين معاً. ان الشخصية الانسانية فى محاولتها للتكيف مع الضغوط داخل النفس وخارجها، تستخدم أعراضاً نفسية أو جسمية ، وتختلف بذلك عن أمراض اضطراب الشخصية التى يحدث فيها نماذج معينة من السلوك». وقد أنهيت إلى أن أفضل الطرق التى تتفق مع هدف بحثى هو أن أضع شروطاً محددة لأختيار المرأة العصابية كالاتى :

أن تكون المرأة قد شخّصت بواسطة طبيبها الخاص أو بالعيادة الخارجية النفسية أو المستشفى النفسى على أنها مريضة بالعصاب (أى نوع من أنواع العصاب المعروفة فى الطب النفسى). وأن تكون قد تناولت أى نوع من أنواع العلاجات النفسية الخاصة بالعصاب لمدة سنتين على الأقل، وأنها لا تزال تشعر بالأعراض النفسية.

وبالرغم من قصور هذا التعريف. وبالرغم من تحفظي الشديد على

مدى صحة تشخيص الطبيب النفسى الخاص أو العام. وبالرغم من أن عدداً من النساء والفتيات اللاتى تم تشخيصهن على أنهن عصابات قد وجدت أنهن يتمتعن بصحة نفسية أكثر من عدد من النساء والفتيات الطبيعيات . وبالرغم من كل ذلك، فقد كان لابد من التحديد لكلمة امرأة عصابية وفقاً لمقاييس معروفة فى الطب النفسى.

أما المرأة الطبيعية فقد تم تحديدها كالاتى :

هى المرأة التى لم تشعر فى يوم من الأيام بأى أعراض نفسية تدعوها إلى استشارة الطبيب، ولم تضطر فى يوم من الأيام إلى تناول أقراص مهدئة أو منومة من تلقاء نفسها أو بواسطة طبيب.

وحيث أننى فرقت فى البحث بين النساء المتعلّمات والنساء غير المتعلّمات، فقد حددت معنى امرأة متعلّمة كالاتى :

هى المرأة المتعلّمة تعليماً عالياً (جامعى) أو التى تعمل فى عمل فكرى أو فنى خلاق.

أما المرأة غير المتعلّمة فهى :

المرأة التى حرمت من التعليم الجامعى، أو تعلّمت تعليماً منخفضاً أو متوسطاً، وتكون ربة بيت فقط ، أو تعمل عملاً يدياً روتينياً أو عملاً من أعمال الخدمة.

كلمة عن منهج البحث :

لم أتبع فى هذا البحث الأسلوب التقليدى فى جمع المعلومات من

النساء والفتيات اللاتي اخترتهن لهذه الدراسة. كنت أستقبل الواحدة
منهن فى بيتى كما أستقبل صديقة قديمة، أو أزور الواحدة منهن فى
منزلها أو مكان عملها كما أفعل مع صديقاتى المقربات . ولم تكن
الجلسة تتسم بالرسمية، أو الجو البارد الذى يشيعه البحث العلمى عادة،
ولم أكن أمسك ورقة وقلمًا، ولم أكن أوجه أسئلة وأنتظر أجوبة، ولم
أضع نفسى موضع الطبيب الذى يشخص الداء، أو موضع القاضى الذى
يصدر أحكامًا، أو موضع الواعظ الذى يعطى نصائح. كنت أترك
الواحدة منهن تفتح قلبها وتحكى مشكلتها، وأشجع الواحدة منهن على
أن تتجرد أمامى من كل الأقنعة التى ترتديها حين تقابل الناس فى
حياتنا الاجتماعية. وأول خطوات التشجيع هى أن أخلع أنا نفسى
القناع . فيرون نفسى على حقيقتها.

وقد أستطعت بهذه الطريقة أن أجعل هؤلاء النساء والفتيات يفتحن
قلوبهن لى. ويحكين لى عن أدق أسرار حياتهن، وأحياناً تلك الأسرار
التي لا يقولها الإنسان حتى لنفسه، وتظل مجهولة لديه إلى الأبد.
وأدركت أن الصدق يشد إليه الصدق. والقلب المفتوح يجذب إليه القلب
المفتوح . وأنه بغير هذا لا يمكن للباحث أو الباحثة أن يحصل على
معلومات صحيحة من «الإنسان» الذى يحاول أن يفهمه. ان معظم
الباحثين أو الأطباء يستبدلون كلمة «الإنسان» بكلمة «المريض» أو
«الجلالة» ويستبدلون كلمة «يحاول أن يفهمه» بكلمة «يفحصه» ولذلك

يعجز الكثير من الباحثين والأطباء عن فهم الإنسان الذى يقع تحت أيديهم. وكم من المعلومات الخاطئة يدونها هؤلاء الباحثون فى استثماراتهم، وكم يتهم بعض الاطباء (وبالذات أطباء النفس) مرضاهم ومريضاتهم بأنهم يكذبون، ويجرون عليهم اختبارات نفسية لقياس الكذب.

ولكن كيف يمكن للإنسان أن يفتح قلبه أمام قلب مغلق ؟ كيف يمكن للإنسان أن يرفع القناع عن نفسه وأمامه انسان مقنع ؟ كيف يمكن أن يحكى الإنسان عن ضعفه وأخطائه ونزواته وهفواته لإنسان قوى مزهو بنفسه مسلح بالقيم والشهادات وجالس وراء مكتب فخم. فى يده ورقة وقلم. وعينه على الساعة، أو على جيب المريض.

وقد اخترت هؤلاء الفتيات والنساء ممن يطلق عليهن أسم «المريضات نفسياً» أو «العصابيات» من العيادات والمستشفيات النفسية. ومن سجن القناطر للنساء. ومن العيادة النفسية لطالبات جامعة عين شمس. ومن النوادي . ومن شركات صناعية. ومكاتب حكومية. والعيادة النفسية لهيئة التأمين الصحى. وبعض ربات بيوت فقط. وبعضهن فلاحات، وبعضهن جئن إلى من تلقاء أنفسهن سعيًا وراء حل أو علاج، وبعضهن فنانات أو كاتبات من صديقاتى.

ولا يمكن لى أن أقول أن هؤلاء الفتيات والنساء يمثلن نساء مصر. أو نساء المجتمع العربى بصفة عامة. ولا يمكن لى أن اعمم النتائج التى

حصلت عليها على جميع النساء المصريات أو العربيات.
فمن أهم المشاكل التى تعترض البحوث الاجتماعية النفسية عندنا
هو عدم وجود أطلس لمشاكلنا الاجتماعية النفسية يستند إلى مسح
شامل للرأي العام تقدمه عينات ممثلة لقطاعات المجتمع المختلفة، ولهذا
لا يمكن لأى باحث بمفرده أن يقدم عينة ممثلة للمجتمع المصرى. وأي نتائج
يخرج بها لا يمكن أن تكون ممثلة للمجتمع المصرى بجميع قطاعاته
المختلفة.

وقد أجرى البحث على أربع مجموعات من النساء كالاتى :

المجموعة الأولى : ٥٠ امرأة متعلمة عصابية

المجموعة الثانية : ٥٠ امرأة غير متعلمة عصابية

المجموعة الثالثة : ٣٠ امرأة متعلمة طبيعية

المجموعة الرابعة : ٣٠ امرأة غير متعلمة طبيعية

المخلو من أى مرضى جسمى :

تم اختيار الحالات بحيث تكون جميع المجموعات الأربعة خالية من
أى مرض جسمى أو عضوى، وأجريت الفحوص الطبية أو الفحوص
المعملية اللازمة فى حالة التشكك من وجود مرض عضوى، وتم اخراج
أية حالة بأى مرض عضوى.

أدوات البحث :

كانت الوسيلة للبحث هو الفحص النفسى الاجتماعى الكامل لكل

حالة. وذلك عن طريق مقابلي الشخصية مع كل حالة. وكنت أضطر في بعض الحالات أن أقابل بعض أفراد الأسرة أيضاً كالأب أو الأم أو الزوج أو الرئيس في العمل. وهناك حالات ألتقيت بهامرة واحدة. وأستغرقت الجلسة من ساعة ونصف إلى ثلاث ساعات. وهناك حالات أخرى قابلتها أكثر من مرة لساعات طويلة. وقد وضعت على الورق تخطيطاً للأسئلة التي أسعى إلى معرفة الاجابة عليها. لكن لقائي مع الحالات لم يأخذ شكل الأسئلة والاجوبة التي تدون على الورق، أو ذلك الجو الرسمي الذي ينشأ بين الباحث العلمي والحالة. كان لقائي بالنساء والفتيات أبعد ما يكون عن جو البحث العلمي. ولم أكن أمسك القلم في يدي وأكتب شيئاً إلا بعد أن أجلس وحدي بعد أن تتركني المرأة أو الفتاة. كنت أدرك أنني أريد الوصول إلى الاعماق العميقة لكل حالة، ولم يكن هذا ممكناً، إلا في جو من الود والتعاون والفهم والثقة، وكثيراً ما ألتقيت بالحالات في بيتي، أو أدعوهم على فنجان شاي في الهواء الطلق أو أزورهم في بيوتهم.

وكم كنت أود أن أستعرض تفصيلاً كل لقاء تم بيني وبين هذه الحالات، لكن ذلك لم يكن ممكناً. وكان من الممكن فقط أن أختار بعض الحالات وأكتب عنها بشئ من التفصيل، وأن أجمع نتائج المجموعات الأربعة على شكل جداول بسيطة، وأن أستخلص من الأرقام بعض النسب والاحصاءات الضرورية لأي بحث.

النقاط الأساسية التي دارت حولها الاسئلة :

١- الطفولة :

الجو الأقتصادي والأجتماعي والعاطفي - نوع الحرمان - علاقة الاب
والأم والأخوة الذكور والبنات - موقف الأسرة من البنت وتعليمها وعملها
- موقف الأسرة من الجنس - حوادث جنسية معينة - عملية ختان
وموعدها - المداعبات الجنسية والعادة السرية - أمراض عصابية في
الطفولة - تفضيل الذكور عن البنات في الأسرة - هل قمنت أن تكون
ولداً - سيطرة فرد بالأسرة.

٢- المراهقة :

طموحها وأملها في الحياة - علاقتها بالمدرسة والتعليم - الحالة
الأجتماعية والعاطفية في المدرسة - حياتها الأجتماعية والعاطفية داخل
الأسرة - علاقتها بالجنس الآخر - العادة السرية - نوع الحرمان العاطفي
أو الجنسي - بدء الدورة الشهرية وآلامها - الإحتلام ليلاً - المعلومات
عن الجنس - مشاكل عاطفية أو جنسية - أحلام اليقظة.

٣- العمل :

موقف مجتمع العمل من كونها امرأة - الحياة الأجتماعية والعاطفية
في محيط العمل - علاقتها برئيسها وزملائها - الأسباب التي تدعوها
إلى العمل - موقف الأسرة أو الزوج من عملها - هل تقوم بالاعمال

المنزلية إلى جانب عملها - نوع العمل وعلاقته بتموحيها - مشاكل
المواصلات - مشكلة دار الحضانة.

٤- الزواج :

أسباب الزواج - علاقتها بزوجه قبل الزواج - مساهمة الزوج فى
الأعمال المنزلية وتربية الأطفال - الأشباع الجنسية مع الزوج - نوع العلاقة
مع زوجها - علاقات أخرى خارج الزواج - مشاكل مع الزوج بسبب العمل
أو الأسباب الأخرى - استخدام وسائل منع الحمل - الأجهزة أو وفيات
الأطفال - علاقتها بأطفالها البنات والذكور - هل حياتها أفضل من حياة
أمها - هل ترتبط بزوجه مرة أخرى لو عادت السنين الى الوراء -
العلاقة بأهل الزوج - مشاكل فى البيت - طلاق - زوجة أخرى - مشاكل
الأطفال.

٥- الفحص النفسى :

الأحلام - التخيلات وأحلام اليقظة - محاولات الانتحار - الأرق -
الصداع - نوع العلاج الذى أخذته - مدة العلاج - علاقتها بالطبيب
النفسى - الشخصية والسلوك - الكلام - التفكير - الهلاوس - المخاوف
- الأندفاعات - الإدراك - الذاكرة - درجة الانتباه والتركيز - البصيرة.

٦- قصة المرض النفسى كما ترويها السيدة أو الفتاة
بنفسها.

٧- السبب الرئيسى وراء اضطرابها النفسى.

وكانت خصائص العينة كالآتي :

(١) السن :

جدول رقم (١)

| السن | متعلمة عصابية | غير متعلمة عصابية | متعلمة طبيعية | غير متعلمة طبيعية |
|-----------|---------------|-------------------|---------------|-------------------|
| ٢٤-٢٠ سنة | ٥٤ بالمئة | ٣٨ بالمئة | ٤٠ بالمئة | ٣٤ بالمئة |
| ٢٩-٢٥ سنة | ٤٦ بالمئة | ٦٢ بالمئة | ٦٠ بالمئة | ٦٦ بالمئة |

(٢) الحالة الزوجية :

جدول رقم (٢)

| الحالة الزوجية | متعلمة عصابية | غير متعلمة | متعلمة طبيعية | غير متعلمة طبيعية |
|----------------|---------------|------------|---------------|-------------------|
| لم تتزوج | ٢٦ بالمئة | ٢٤ بالمئة | ٣٠ بالمئة | ٢٣ بالمئة |
| متزوجة | ٦٤ بالمئة | ٧٠ بالمئة | ٧٠ بالمئة | ٧٣ بالمئة |
| مطلقة | ٨ بالمئة | ٦ بالمئة | - | ٤ بالمئة |
| أرمل | ٢ بالمئة | - | - | - |

(٣) العمل :

جدول رقم (٣)

| العمل | متعلمة عصابية | غير متعلمة عصابية | متعلمة طبيعية | غير متعلمة طبيعية |
|-------------------|---------------|-------------------|---------------|-------------------|
| عمل فنى أو خلاق | ١٨ بالئة | - | ١٤ بالئة | - |
| عمل روتينى أو آلى | | | | |
| أوى دوى | ١٢ بالئة | ٧٤ بالئة | ١٠ بالئة | ٦٦ بالئة |
| طالبة بالجامعة | ٥٦ بالئة | - | ٦٦ بالئة | - |
| ربة بيت فقط | ١٤ بالئة | ٢٦ بالئة | ١٠ بالئة | ٣٤ بالئة |

(٤) المستوى الاقتصادى :

جدول رقم (٤)

| الطبقة الاجتماعية | متعلمة عصابية | غير متعلمة عصابية | متعلمة طبيعية | غير متعلمة طبيعية |
|-----------------------------|---------------|-------------------|---------------|-------------------|
| فوق المتوسط | ٢٢ بالئة | ٤ بالئة | ٢٩ بالئة | ٣ بالئة |
| أكثر من ١٥ ج للفرد فى الشهر | | | | |
| متوسطة | ٧٨ بالئة | ٥٤ بالئة | ٧١ بالئة | ٧٦ بالئة |
| ١٥ ج للفرد فى الشهر | | | | |
| تحت المتوسط | - | ٤٢ بالئة | - | ٢١ بالئة |
| أقل من ١٥ ج للفرد شهرياً | | | | |

ثانياً : مشاكل فى الطفولة :

جدول رقم (٥)

| نوع مشاكل | متعلمة | غير متعلمة | متعلمة | غير متعلمة | المجموع | العدد الكلى | النسبة المئوية |
|--|--------|------------|--------|------------|---------|-------------|----------------|
| الطفولة | عصابية | عصابية | طبيعية | طبيعية | | للحالات | |
| القسوة أو حرمان عاطفى من الأب أو الأم | ٢١ | ٢٨ | ١٣ | ١٤ | ٧٦ | ١٦٠ | ٤٧ر٥ بالمئة |
| تفضيل الذكور عن الإناث فى الأسرة | ٣٣ | ٤٤ | ١٧ | ٢٢ | ١١٦ | ١٦٠ | ٧٢ر٥ بالمئة |
| حوادث جنسية معينة مع رجال كبار | ١٩ | ٢٣ | ٨ | ١٣ | ٦٣ | ١٦٠ | ٣٩ر٣ بالمئة |
| العادة السرية أو مداعبات جنسية أثناء الطفولة | ٣٢ | ٣٠ | ٦ | ٣ | ٧١ | ١٦٠ | ٤٤ر٣ بالمئة |
| تمنت أن تكون ولداً | ٣٦ | ٢٩ | ١٩ | ٩ | ٩٣ | ١٦٠ | ٥٨ر١ بالمئة |
| أجرى لها عملية الحثان | ٢٩ | ٤٨ | ٢٤ | ٣٠ | ١٣١ | ١٦٠ | ٨١ر٨ بالمئة |
| ازمات اقتصادية | ٦ | ١٧ | ٤ | ٩ | ٣٦ | ١٦٠ | ٢٢ر٥ بالمئة |

نتائج البحث :

١- مشاكل الطفولة : يتضح من الجدول رقم ٥ أن عملية الختان شائعة، بصفة عامة بين المجموعات الأربعة (٨١٨ بالمئة) ، كذلك تفضيل الذكور عن البنات في الأسرة (٧٢٥ بالمئة) ، وارتفاع نسب المشاكل الجنسية والعاطفية بصفة عامة عن المشاكل الاقتصادية. كذلك يتضح أن القسوة أو الحرمان العاطفي من الأب أو الأم ليس عاملاً من عوامل الإصابة بالعصاب في هذه الحالات ، فهو يكاد يتساوى في المجموعات العصابية مع المجموعات غير العصابية. على أنه يزيد في الحالات غير المتعلمة عنها في المتعلمة حسب الجدول رقم ٥ - أ.

جدول رقم (٥) أ

| نوع المجموعة | حرمان عاطفي | المجموع | النسبة المئوية |
|-------------------|-------------|---------|----------------|
| في الطفولة | | | |
| متعلمة عصابية | ٢١ | ٥٠ | ٤٢ بالمئة |
| غير متعلمة عصابية | ٢٨ | ٥٠ | ٥٦ بالمئة |
| متعلمة طبيعية | ١٣ | ٣٠ | ٤٣ر٣ بالمئة |
| غير متعلمة طبيعية | ١٤ | ٣٠ | ٤٦ر٦ بالمئة |

جدول رقم (٥) ب

| نوع المجموعة | تفضيل الذكور عن الإناث | المجموع | النسبة المئوية |
|-------------------|------------------------|---------|----------------|
| متعلمة عصابية | ٣٣ | ٥٠ | ٦٦ بالمائة |
| غير متعلمة عصابية | ٤٤ | ٥٠ | ٨٨ بالمائة |
| متعلمة طبيعية | ١٧ | ٣٠ | ٥٦٫٦ بالمائة |
| غير متعلمة طبيعية | ٢٢ | ٣٠ | ٧٣٫٣ بالمائة |

وفى جدول ٥ ب - نرى أن تفضيل الذكور عن الإناث فى الأسرة يحدث بنسبة أعلى فى المجموعات العصابية عن المجموعات غير العصابية، ويرتفع أيضاً فى المجموعات غير المتعلمة عن المجموعات المتعلمة. وبالنسبة لأثر الحوادث الجنسية مع رجال كبار فى الطفولة فهى تتضح من الجدول رقم ٥ - ج. ويرى أن نسبة الحوادث الجنسية أعلى فى المجموعات العصابية عن المجموعات غير العصابية ويرتفع أيضاً فى المجموعات غير المتعلمة.

جدول رقم (٥) ج

| نوع المجموعة | حوادث جنسية مع رجال | المجموع | النسبة المئوية |
|-------------------|---------------------|---------|----------------|
| متعلمة عصابية | ١٩ | ٥٠ | ٣٨ بالمائة |
| غير متعلمة عصابية | ٢٣ | ٥٠ | ٤٦ بالمائة |
| متعلمة طبيعية | ٨ | ٣٠ | ٢٦٫٦ بالمائة |
| غير متعلمة طبيعية | ١٣ | ٣٠ | ٤٣٫٣ بالمائة |

جدول رقم (٦)

نوع مشاكل الطفولة متعلمات متعلمات المجموع العدد الكلى النسبة المئوية
عصايات طبيعيات

| | | | | | |
|----------------------------|----|----|----|----|--------------|
| القسوة أو حرمان عاطفى | ٢١ | ١٣ | ٣٤ | ٨٠ | ٤٢٥ ر بالمئة |
| من الأب أو الأم | | | | | |
| تفضيل الذكور عن | ٣٣ | ١٧ | ٥٠ | ٨٠ | ٦٢٥ ر بالمئة |
| البنات فى الأسرة | | | | | |
| حوادث جنسية معينة مع | ١٩ | ٨ | ٣٧ | ٨٠ | ٣٣٧ ر بالمئة |
| رجال كبار فى الطفولة | | | | | |
| العادة السرية أو المداعبات | ٣٢ | ٦ | ٣٨ | ٨٠ | ٤٧٥ ر بالمئة |
| الجنسية أثناء الطفولة | | | | | |
| تمنت أن تكون ولداً | ٣٦ | ١٩ | ٥٥ | ٨٠ | ٦٨٧ ر بالمئة |
| أجرى لها عملية ختان | ٢٩ | ٢٤ | ٥٣ | ٨٠ | ٦٦٢ ر بالمئة |
| أزمات اقتصادية | ٦ | ٤ | ١٠ | ٨٠ | ١٢٥ ر بالمئة |

يتضح من الجدول رقم ٦ أن تفضيل الذكور عن البنات شائع بين الأسر المتعلمة (٦٢٥ ر بالمئة) وأن نسبة كبيرة من بنات هذه الأسر تمنين أن يكن ذكوراً (٦٨٧ ر بالمئة). ويتضح أيضاً انخفاض نسبة

المشاكل الاقتصادية بالنسبة للمشاكل العاطفية والجنسية. أما القسوة أو الحرمان العاطفي في الطفولة فهو منخفض نسبياً، ولا يوجد فروق ذات أهمية بين المجموعة العصابية والمجموعة الطبيعية. أما بالنسبة لممارسة العادة السرية أو المداعبات الجنسية أثناء الطفولة فهي أكثر ارتفاعاً في المجموعة العصابية (٦٤ بالمئة) عنها في المجموعة الطبيعية (٢٠ بالمئة فقط).

جدول رقم (٧)

| نوع مشاكل الطفولة | عصابيات متعلّقات | عصابيات غير متعلّقات | المجموع | العدد الكلي | النسبة المئوية |
|--|------------------|----------------------|---------|-------------|----------------|
| القسوة أو حرمان عاطفي من الأب أو الأم | ٢١ | ٢٨ | ٤٩ | ١٠٠ | ٤٩ |
| تفضيل الذكور عن البنات | ٣٣ | ٤٤ | ٧٧ | ١٠٠ | ٧٧ |
| حوادث جنسية مع رجال كبار | ١٩ | ٢٣ | ٤٢ | ١٠٠ | ٤٢ |
| العادة السرية أو المداعبات الجنسية أثناء الطفولة | ٣٢ | ٣٠ (٦٠٪) | ٦٢ | ١٠٠ | ٦٢ |
| تمت أن تكون ولداً | ٣٦ (٧٢٪) | ٢٩ | ٦٥ | ١٠٠ | ٦٥ |
| أجرى لها عملية ختان | ٢٩ | ٤٨ | ٧٧ | ١٠٠ | ٧٧ |
| أزمات اقتصادية | ٦ | ١٧ | ٢٣ | ١٠٠ | ٢٣ |

يتضح من الجدول رقم ٧ ارتفاع نسبة تفضيل الذكور عن البنات بين العصابات (٧٧ بالمئة) وكذلك الختان (٧٧ بالمئة) وارتفاع نسبة المشاكل الجنسية والعاطفية عن المشاكل الاقتصادية. ويتضح أن نسبة المشاكل الاقتصادية أكثر ارتفاعاً في المجموعة غير المتعلمة عن المجموعة المتعلمة، وكذلك يتضح ارتفاع نسبة الحوادث الجنسية مع رجال كبار في المجموعة غير المتعلمة، وأيضاً ارتفاع نسبة عملية الختان بين المجموعة غير المتعلمة. وتزيد نسبة التمنيات أن يكن ذكوراً في المجموعة المتعلمة عنها في غير المتعلمة.

جدول رقم (٨)

| نوع مشاكل الطفولة | غير متعلمة | غير متعلمة | المجموع | العدد الكلى | النسبة المئوية |
|--|------------|------------|---------|-------------|----------------|
| | عصابات | طبيعات | | | |
| القسوة أو حرمان عاطفى من الأب أو الأم | ٢٨ | ١٤ | ٤٢ | ٨٠ | ٥٢ر٥٪ |
| تفضيل الذكور عن البنات | ٤٤ | ٢٢ | ٦٦ | ٨٠ | ٨٢ر٥٪ |
| العادة السرية أو المداعبات الجنسية أثناء الطفولة | ٣٠ | ٣ | ٣٣ | ٨٠ | ٤١ر٢٪ |
| | (٦٠٪) | (١٠٪) | | | |
| حوادث جنسية مع رجال كبار | ٢٣ | ١٣ | ٣٦ | ٨٠ | ٤٥٪ |
| تمنت أن تكون ولداً | ٢٩ | ٩ | ٣٨ | ٨٠ | ٤٧ر٥٪ |
| أجرى لها عملية ختان | ٤٨ | ٣٠ | ٧٨ | ٨٠ | ٩٧ر٥٪ |
| أزمات اقتصادية | ١٧ | ٩ | ٢٦ | ٨٠ | ٣٢ر٥٪ |

يتضح من الجدول رقم ٨ ارتفاع نسبة ختان البنات بين الأسر غير المتعلمة (٩٧ر٥ بالمئة) وكذلك تفضيل الذكور عن البنات (٨٢ر٥ بالمئة) وارتفاع نسبة الحوادث الجنسية (٤٥ بالمئة) كما يلاحظ أن المشاكل الاقتصادية ارتفعت نسبتها هنا (٣٢ر٥ بالمئة) عنها في الاسر المتعلمة.

وهنا يتضح أيضاً ارتفاع نسبة العادة السرية في المجموعة العصابية (٦٠ بالمئة) عنها في المجموعة الطبيعية (١٠ بالمئة فقط). ولو قارنا هذه النسب بالمجموعات غير المتعلمة لأتضح لنا أن أكثر المجموعات ممارسة للعادة السرية هي العصابات المتعلمات (٦٤ بالمئة) يليها العصابات غير المتعلمات (٦٠ بالمئة) يليها الطبيعيات المتعلمات (٢٠ بالمئة) يليها الطبيعيات غير المتعلمات (٢ بالمئة) يليها الطبيعيات غير المتعلمات (١٠ بالمئة).

ويتضح من الجدول رقم ٩ ارتفاع نسبة ختان البنات بين الطبيعيات (٩٠ بالمئة) وكذلك ارتفاع نسبة تفضيل الذكور عن البنات (٦٥ بالمئة) ويلاحظ أيضاً انخفاض العادة السرية والمداعبات الجنسية (١٥ بالمئة) وانخفاضها أكثر في المجموعة غير المتعلمة (١٠ بالمئة) عنها في المجموعة المتعلمة (٢٠ بالمئة). ويلاحظ من الجدول أيضاً أن نسبة من قمن أن يكن ذكوراً في الطبيعيات المتعلمات (٦٣ بالمئة) وهي تكاد تكون ضعف مثيلاتها في الطبيعيات غير المتعلمات (٣٠ بالمئة).

جدول رقم (٩)

| نوع مشاكل الطفولة | طبيعيات | طبيعيات | المجموع | العدد | النسبة |
|----------------------------|---------|-------------|---------|-------|---------|
| | متعلقات | غير متعلقات | | الكلى | المئوية |
| القسوة أو حرمان عاطفى من | ١٣ | ١٤ | ٢٧ | ٦٠ | %٤٥ |
| الأب أو الأم | | | | | |
| تفضيل الذكور | ١٧ | ٢٢ | ٣٩ | ٦٠ | %٦٥ |
| عن البنات | | | | | |
| حوادث جنسية | ٨ | ١٣ | ٢١ | ٦٠ | %٣٥ |
| مع رجال كبار | | | | | |
| العادة السرية أو المذاعبات | ٦ | ٣ | ٩ | ٦٠ | %١٥ |
| الجنسية أثناء الطفولة | (%٢٠) | (%١٠) | | | |
| تمنت أن تكون ولداً | ١٩ | ٩ | ٢٨ | ٦٠ | %٤٦,٦ |
| | (%٦٣) | (%٣٠) | | | |
| أجرى لها عملية ختان | ٢٤ | ٣٠ | ٥٤ | ٦٠ | %٩٠ |
| أزمات اقتصادية | ٤ | ٩ | ١٣ | ٦٠ | %٢١,٦ |

جدول رقم (١٠)
(مقارنة النسب المثوية)

| نوع مشاكل الطفولة | عصابيات متعلمة + غير متعلمة | طبيعيات متعلمة غير متعلمة | متعلمات + عصابية طبيعية | غير متعلمات عصابية + طبيعية | النسبة الكلية |
|-------------------------------|-----------------------------------|---------------------------------|-------------------------------|-----------------------------------|------------------|
| التسوة أو حرمان عاطفي ٤٩ | ٤٥ | ٤٢ر٥ | ٥٢ر٥ | ٤٧ر٥ | |
| تفضيل الذكور عن البنات ٧٧ | ٦٥ | ٦٢ر٥ | ٨٢ر٥ | ٧٢ر٥ | |
| حوادث جنسية مع رجال كبار ٤٢ | ٣٥ | ٣٣ر٧ | ٤٥ | ٣٩ر٣ | |
| العادة السرية أو المداعبات ٦٢ | ١٥ | ٤٧ر٥ | ٤١ر٢ | ٤٤ر٣ | |
| الجنسية اثناء الطفولة | | | | | |
| تمت أن تكون ولداً ٦٥ | ٤٦ر٦ | ٦٨ر٥ | ٤٧ر٥ | ٥٨ر١ | |
| أجرى لها عملية ختان ٧٧ | ٩٠ | ٦٦ر٢ | ٩٧ر٥ | ٨١ر٨ | |
| أزمات اقتصادية ٢٣ | ٢١ر٦ | ١٢ر٥ | ٣٢ر٥ | ٢٢ر٥ | |

يتضح من الجدول رقم ١٠ ما يأتي :

- ١- ارتفاع نسبة العادة السرية والمداعبات الجنسية في الطفولة بين العصابيات (٦٢ بالمئة) عنها بين الطبيعيات (١٥ بالمئة) وارتفاعها بين المتعلمات (٤٧ر٥ بالمئة) عنها بين غير المتعلمات (٤١ر٢ بالمئة).
- ٢- ارتفاع نسبة عملية الختان بين الطبيعيات (٩٠ بالمئة) عنها بين العصابيات (٧٧ بالمئة)، وارتفاعها بين غير المتعلمات (٩٧ر٥ بالمئة) عنها بين المتعلمات (٦٦ر٢ بالمئة).

٣- ارتفاع نسبة من تمت أن تكون ولداً بين العصابات (٦٥ بالمئة) عنها بين الطبيعيات (٤٦٦ر٤ بالمئة) وأرتفاعها بين المتعلمات (٦٨٥ر٥ بالمئة) عنها بين غير المتعلمات (٤٧٥ر٥ بالمئة).

٤- ارتفاع نسبة تفضيل الذكور عن البنات في أسر العصابات (٧٧ بالمئة) عنها في أسر الطبيعيات (٦٥ بالمئة) وأرتفاعها بين أسر غير المتعلمات (٨٢٥ر٥ بالمئة) عنها بين أسر المتعلمات (٦٢٥ر٥ بالمئة).

٥- رغم ارتفاع نسبة تفضيل الذكور عن البنات في أسر غير المتعلمات (٢٥ر٥ بالمئة) يلاحظ انخفاض نسبة من تمت أن تكون ولداً بينهن (٤٧٥ر٥ بالمئة). وكذلك أيضاً في حالة الطبيعيات (تفضيل الذكور عن البنات في الأسر ٦٥ بالمئة) ومن تمت أن تكون ولداً (٤٦٥ر٥ بالمئة). وهذه الظاهرة غير موجودة في حالة العصابات، وكذلك في حالة المتعلمات، إذ تتقارب النسب بين تفضيل الذكور وبين التمنى بأن تكون ولداً.

٦- ترتفع نسبة الحوادث الجنسية في الطفولة مع رجال كبار في حالة غير المتعلمات (٤٥ بالمئة)، وأيضاً في حالة العصابات (٤٢ بالمئة) عنها في المتعلمات (٣٣٧ر٣ بالمئة) أو الطبيعيات (٣٥ بالمئة).

مشاكل فى المراهقة :

جدول رقم (١١)

| نوع مشاكل المراهقة | عصايات متعلقات | عصايات غير متعلقات | طبيعات متعلقات | طبيعات غير متعلقات | العدد الكلي | النسبة المئوية |
|---|----------------|--------------------|----------------|--------------------|-------------|----------------|
| الانتقطاع عن الدراسة بسبب الزواج | ٧ | ١٣ | ٣ | ١٠ | ٣٣ | ١٦.٠ |
| مشاكل جنسية وعاطفية | ١٩ | ٢٢ | ٥ | ٧ | ٥٢ | ١٦.٠ |
| مشاكل داخل الاسر بين الأب والام والافرة | ٢٣ | ٢٨ | ٤ | ٩ | ٦٤ | ١٦.٠ |
| تفضيل التعليم عن الزواج | ٤٨ | ٤٢ | ٢١ | ١٦ | ١٢٧ | ١٦.٠ |

مشاكل المراهقة : يتضح من الجدول رقم ١١ ارتفاع نسبة تفضيل التعليم عن الزواج بصفة عامة بين المجموعات الأربعة (٣٩٣ بالمئة) وتتساوى المشاكل الجنسية والعاطفية مع المشاكل داخل الاسرة تقريبا: ٣٩٣ بالمئة و ٤٠ بالمئة.

جدول رقم (١٢)

| نوع مشاكل المراهقة | متعلقات | متعلقات | المجموع | العدد | النسبة |
|---------------------------------|---------|---------|---------|-------|---------|
| | طبيعية | عصابية | | الكل | المئوية |
| الانقطاع عن الدراسة بسبب الزواج | ٣ | ٧ | ١٠ | ٨٠ | ١٢ر٥ |
| مشاكل جنسية وعاطفية | ٥ | ١٩ | ٢٤ | ٨٠ | ٢٠ |
| مشاكل داخل الأسرة | ٤ | ٢٣ | ٢٧ | ٨٠ | ٢٣ر٧ |
| | (١٣ر٣٪) | (٤٦٪) | | | |
| تفضيل التعليم عن الزواج | ٢١ | ٤٨ | ٦٩ | ٨٠ | ٨٦ر٢ |

يتضح من الجدول رقم ١٢ ارتفاع نسبة تفضيل التعليم على الزواج بين المتعلقات (٨٦ر٢ بالمئة)، وارتفاع نسبة المشاكل داخل الأسرة بين المتعلقات العصائيات (٤٦ بالمئة) عنها بين المتعلقات الطبيعية (١٣ر٣ بالمئة).

جدول رقم (١٣)

| نوع مشاكل المراهقة | متعلقات | غير متعلقات | المجموع | العدد | النسبة |
|---------------------------------|---------|-------------|---------|-------|---------|
| | عصائيات | عصائيات | | الكل | المئوية |
| الانقطاع عن الدراسة بسبب الزواج | ٧ | ١٣ | ٢٠ | ١٠٠ | ٢٠ |
| مشاكل جنسية وعاطفية | ١٩ | ٢٢ | ٤١ | ١٠٠ | ٤١ |
| مشاكل داخل الأسرة | ٢٣ | ٢٨ | ٥١ | ١٠٠ | ٥١ |
| تفضيل التعليم عن الزواج | ٤٨ | ٤٢ | ٩٠ | ١٠٠ | ٩٠ |

فى جدول (١٣) يلاحظ ارتفاع نسبة تفضيل التعليم على الزواج بين العصائيات (٩٠ بالمئة) وارتفاع نسبة المشاكل داخل الأسرة (٥١ بالمئة) عن المشاكل الجنسية والعاطفية (٤١ بالمئة).

جدول رقم (١٤)

| نوع مشاكل المراهقة | طبيعيات متعلّقات | طبيعيات غير متعلّقات | المجموع | العدد الكلى | النسبة المئوية |
|---------------------------------|------------------|----------------------|---------|-------------|----------------|
| الانقطاع عن الدراسة بسبب الزواج | ٣ | ١٠ | ١٣ | ٦٠ | ٢١٦ |
| مشاكل جنسية وعاطفية | ٥ | ٧ | ١٢ | ٦٠ | ٢٠ |
| مشاكل داخل الاسرة | ٤ | ٩ | ١٣ | ٦٠ | ٢١٦ |
| تفضيل التعليم عن الزواج | ٢١ | ١٦ | ٣٧ | ٦٠ | ٦١٦ |

يلاحظ فى الجدول رقم ١٤ انخفاض نسبة تفضيل التعليم على الزواج بين الطبيعيات (٦١٦ بالمئة) وكذلك نسبة انخفاض المشاكل داخل الأسرة والمشاكل الجنسية والعاطفية.

جدول رقم (١٥)

| نوع مشاكل المراهقة | غير متعلقات | غير متعلقات | المجموع | العدد | النسبة |
|-------------------------|-------------|-------------|---------|-------|---------|
| | عصبيات | طبيعيات | | الكلى | المئوية |
| الانتقطاع عن الدراسة | ١٢ | ١٠ | ١٣ | ٨٠ | ١٦ر٢ |
| مشاكل جنسية وعاطفية | ٢٢ | ٧ | ٢٩ | ٨٠ | ٢٦ر٢ |
| مشاكل داخل الأسرة | ٢٨ | ٩ | ٢٧ | ٨٠ | ٤٦ر٢ |
| تفضيل التعليم عن الزواج | ٤٢ | ١٦ | ٥٨ | ٨٠ | ٧١ر٢ |

فى جدول (١٥) يلاحظ ارتفاع فى نسبة المشاكل داخل الاسرة بين غير المتعلقات (٤٦ر٢ بالمئة) وكذلك ارتفاع المشاكل الجنسية والعاطفية (٣٦ر٢ بالمئة) وارتفاع تفضيل التعليم عن الزواج (٧١ر٢ بالمئة).

مقارنة النسب المثوية :

جدول رقم (١٦)

| نوع مشاكل المراهقة | عصابيات متعلمة + | طبيعيات متعلمة + | متعلقات عصابية + | غير متعلقات عصابية + | النسب المثوية |
|-------------------------|---------------------|---------------------|---------------------|-------------------------|------------------|
| | غير متعلمة | غير متعلمة | طبيعية | طبيعية | |
| الانقطاع عن الدراسة | ٢٠ | ٢١ر٦ | ١٢ر٥ | ١٦ر٢ | ٢٠ر٦ |
| مشاكل جنسية وعاطفية | ٤١ | ٢٠ | ٣٠ | ٢٦ر٢ | ٣٩ر٣ |
| مشاكل داخل الأسرة | ٥١ | ٢١ر٦ | ٢١ر٦ | ٤٦ر٢ | ٤٠ |
| تفضيل التعليم عن الزواج | ٩٠ | ٦١ر٦ | ٨٦ر٢ | ٧١ر٢ | ٧٩ر٢ |

يتضح من الجدول رقم ١٦ ما يأتى :

- ١- أعلى نسبة تفضيل التعليم عن الزواج بين العصابيات . وأقل نسبة بين الطبيعيات، وهذا يشير إلى أن العصابيات أكثر طموحا فى التعليم والعمل الفكرى عن الطبيعيات.
- ٢- ارتفاع نسبة المشاكل داخل الأسرة عن المشاكل الجنسية والعاطفية فى جميع الحالات.
- ٣- ارتفاع نسبة المشاكل الجنسية والعاطفية فى العصابيات عن الطبيعيات .

٤- الانقطاع عن الدراسة بسبب الزواج يتساوى تقريبا بين العصابات والطبيعيات، ويزيد فى غير المتعلقات عن المتعلقات.

مقارنة النسب المثوية:

جدول رقم (١٧)

| نوع مشاكل العمل | عصابات | عصابات طبيعيات | طبيعيات | المجموع | العدد | النسبة |
|---|---------|----------------|---------|-------------|-------|---------|
| أول الدراسة | متعلقات | غير متعلقات | متعلقات | غير متعلقات | الكل | المثوية |
| مشاكل بسبب كونها امرأة (مع الرئيس أو الزملاء) | ٢٤ | ١٩ | ٨ | ٣ | ٥٤ | ١١٤ |
| العمل لا يرضى طموحها (أول الدراسة) | ١٧ | ٢١ | ٦ | ٤ | ٥٨ | ١١٤ |
| مشاكل بسبب دورها الأخرى البيت والأسرة | ٢٩ | ٢٣ | ٥ | ٦ | ٧٣ | ١١٤ |
| مشاكل اقتصادية | ٨ | ٣٤ | ١١ | ١٨ | ٧١ | ١١٤ |
| | | | | | | ٦٢٢ |

مشاكل العمل والدراسة :

يلاحظ من الجدول رقم ١٧ ارتفاع نسبة المشاكل بسبب الدور الأخرى فى البيت والأسرة بصفة عامة (٦٤ بالمئة) وكذلك ارتفاع نسبة المشاكل الاقتصادية (٦٢٢ بالمئة). ويتضح أن ٢٩ امرأة من مجموعة

العصائيات المتعلّقات (وعددها ٥٠ امرأة) لديهن مشاكل بسبب الدورين داخل البيت وخارجه، أى بنسبة ٥٨ بالمئة، وهذه النسبة مرتفعة إذا قورنت بمجموعة الطبيعيات المتعلّقات (وعددها ٣٠ امرأة) حيث لا تشعر بهذه المشكلة منهن إلا ٥ نساء فقط. أى بنسبة ١٦.٦ بالمئة.

جدول رقم (١٨)

| نوع مشاكل العمل | متعلّقات | غير متعلّقات | المجموع | العدد | النسبة |
|-----------------------------------|----------|--------------|---------|-------|---------|
| أو الدراسة | عصائيات | عصائيات | | الكلى | المئوية |
| مشاكل بسبب كونها امرأة | ٢٤ | ١٩ | ٤٣ | ٧١ | ٦٠.٥ |
| العمل لا يرضى طموحها (أو الدراسة) | ١٧ | ١٧ | ٤٨ | ٧١ | ٦٧.٦ |
| مشاكل بسبب دورها الآخر فى البيت | ٢٩ | ٣٣ | ٦٢ | ٧١ | ٨٧.٣ |
| مشاكل اقتصادية | ٨ | ٣٤ | ٤٢ | ٧١ | ٥٩.٦ |

يلاحظ فى الجدول رقم ١٨ ارتفاع نسبة المشاكل بسبب الدور الآخر فى البيت بين العصائيات وكذلك ارتفاع نسبة عدم ارضاء العمل لطموحها . وقد انخفضت نسبة المشاكل الاقتصادية.

جدول رقم (١٩)

| نوع مشاكل العمل أو الدراسة | متعلقات عصائيات | متعلقات طبيعيات | المجموع | العدد الكلى | النسبة المئوية |
|--------------------------------------|--------------------|--------------------|---------|----------------|-------------------|
| مشاكل بسبب كونها امرأة | ٢٤ | ٨ | ٣٢ | ٥٧ | ٥٦ر١ |
| العمل لا يرضي طموحها (أو الدراسة) | ١٧ | ٦ | ٢٣ | ٥٧ | ٤٠ر٣ |
| مشاكل بسبب دورها الآخر فى البيت | ١٩ | ٥ | ٣٤ | ٥٧ | ٥٩ر٦ |
| مشاكل اقتصادية | ٨ | ١١ | ١٩ | ٥٧ | ٢٢ر٣ |

يلاحظ فى الجدول رقم ١٩ انخفاض نسبة المشاكل الاقتصادية بين المتعلقات وكذلك انخفاض نسبة عدم ارضاء العمل لطموح المرأة. ويتضح من هذين الجدولين أن العصائيات المتعلقات أكثر مواجهة للمشاكل (فى العمل أو الدراسة) بسبب كونها امرأة (٤٨ بالمئة) من العصائيات غير المتعلقات (٣٨ بالمئة). وأن هؤلاء أكثر مواجهة لمشاكل هذه المشاكل من الطبيعيات المتعلقات (٢٦ر٢ بالمئة). وأن أقل المجموعات مواجهة لهذه المشاكل حسب الجدول رقم ١٧ من الطبيعيات

غير المتعلّقات (١٠ بالمئة) فقط.

جدول رقم (٢٠)

| نوع مشاكل العمل أو الدراسة | غير متعلّقات عصائيات | عُزمتعلّقات مُبيعات عصائيات | المجموع | العدد الكلى | النسبة المئوية |
|---|-------------------------|-----------------------------------|---------|----------------|-------------------|
| مشاكل بسبب كونها امراة | ١٩ | ٣ | ٢٢ | ٥٧ | ٣٨ر٥ |
| العمل لا يرضى طموحها (أو الدراسة) | ٣١ | ٤ | ٣٥ | ٥٧ | ٦١ر٤ |
| مشاكل بسبب دورها الآخر فى البيت | ٣٣ | ٦ | ٣٩ | ٥٧ | ٦٨ر٤ |
| مشاكل اقتصادية | ٣٤ | ١٨ | ٥٢ | ٥٧ | ٩١ر٢ |

فى جدول (٢٠) يلاحظ ارتفاع نسبة المشاكل الاقتصادية بين النساء غير المتعلّقات، وكذلك ارتفاع نسبة المشاكل بسبب الدور الآخر فى البيت، وارتفاع نسبة عدم ارضاء العمل لطموح المرأة، وانخفاض نسبة المشاكل بسبب كونها امراة.

جدول رقم (٢١)

| نوع مشاكل العمل | طبيعيات | طبيعيات | المجموع | العدد | النسبة |
|-----------------------------------|---------|-------------|---------|---------|--------|
| أو الدراسة | متعلقات | غير متعلقات | الكلي | المئوية | |
| مشاكل بسبب كونها امرأة | ٨ | ٣ | ١١ | ٤٣ | ٢٥ر٥ |
| العمل لا يرضى طموحها (أو الدراسة) | ٦ | ٤ | ١٠ | ٤٣ | ٢٢ر١ |
| مشاكل بسبب دورها الاخر في البيت | ٥ | ٦ | ١١ | ٤٣ | ٢٥ر٥ |
| مشاكل اقتصادية | ١١ | ١٨ | ٢٩ | ٤٣ | ٦٧ر٤ |

وفي جدول (٢١) يلاحظ ارتفاع نسبة المشاكل الاقتصادية للعمل بين الطبيعيات، وانخفاض المشاكل بسبب الدور الاخر في البيت أو بسبب كونها امرأة. وكذلك انخفاض نسبة عدم ارضاء العمل لطموح المرأة.

جدول رقم (٢٢)

| نوع مشاكل العمل | عصابات | طبيعات | متعلمات | غير متعلمات | النسبة |
|-----------------------------------|--------|--------|----------|-------------|---------|
| أو الدراسة | متعلمة | متعلمة | عصابية | عصابية | المثوية |
| | + غير | + غير | + طبيعية | + طبيعية | |
| مشاكل بسبب كونها امرأة | ٦٠ر٥ | ٢٥ر٥ | ٥٦ر١ | ٣٨ر٥ | ٤٨ر٢ |
| العمل لا يرضى طموحها (أو الدراسة) | ٦٧ر٥ | ٢٣ر١ | ٤٠ر٣ | ٦١ر٤ | ٥٠ر٨ |
| مشاكل بسبب دورها الآخر في البيت | ٨٧ر٣ | ٢٥ر٥ | ٥٩ر٦ | ٦٨ر٤ | ٦٤ |
| مشاكل اقتصادية | ٥٩ر١ | ٦٧ر٤ | ٣٣ر٣ | ٩١ر٢ | ٦٢ر٢ |

في جدول (٢٢) يلاحظ أن أعلى نسبة للمشاكل الاقتصادية بين غير المتعلمات، وأن أعلى نسبة للمشاكل بسبب الدور الآخر في البيت بين العصابات، وأن العمل لا يرضى طموح العصابات بنسبة أكبر من الطبيعات، ويلاحظ أيضاً ارتفاع نسبة المشاكل بسبب الدور الآخر في البيت بين غير المتعلمات وكذلك ارتفاع نسبة عدم أَرْضاء العمل لظموح غير المتعلمات.

مشاكل الزواج :

جدول رقم (٢٣)

| مشاكل الزواج | عصايبات | عصايبات | طبيعيات | طبيعيات | المجموع | العدد | النسبة |
|-------------------------|---------|-------------|---------|-------------|---------|---------|--------|
| | متعلقات | غير متعلقات | متعلقات | غير متعلقات | الكلى | المئوية | |
| تزوجت بغير حب | ٢٣ | ٣١ | ١٥ | ٢١ | ٩٠ | ١١٩ | ٧٥ر٦٠ |
| سيطرة الزوج | ٢٨ | ٣٢ | ١٧ | ٢٢ | ٩٩ | ١١٩ | ٨٢ر٣ |
| عدم مساعدة الزوج | ٣١ | ٣٥ | ١٧ | ٢٢ | ١٠٨ | ١١٩ | ٩٠ر٧ |
| فى أعمال البيت والاطفال | | | | | | | |
| عدم الاشباع الجنسي | ٢١ | ٢٩ | ١٤ | ١٧ | ٩١ | ١١٩ | ٧٦ر٣ |
| علاقات جنسية خارج | ١٠ | ٦ | ٣ | ١ | ٢٠ | ١١٩ | ١٦ر٧ |
| الزواج | | | | | | | |
| لا تتزوج زوجها مرة | ٢٩ | ٢٤ | ١٨ | ٢٠ | ١٠١ | ١١٩ | ٨٤ر٨ |
| اخرى لو عادت السنين | | | | | | | |
| إلى الوداء | | | | | | | |

مشاكل الزواج : يلاحظ من الجدول رقم ٢٣ ارتفاع نسبة عدم مساعدة الزوج لأعمال البيت والأطفال بصفة عامة (٩٠ر٧ بالمئة) وكذلك ارتفاع نسبة عدم التوافق الزوجى وسيطرة الزوج، ويلاحظ أيضاً انخفاض

نسبة العلاقات الجنسية خارج الزواج رغم ارتفاع نسبة عدم الاشباع الجنسي.

جدول رقم (٢٤)

| مشاكل الزواج | عصابات متعلقات | عصابات غير متعلقات | المجموع | العدد الكلي | النسبة المئوية |
|-------------------------|----------------|--------------------|---------|-------------|----------------|
| تزوجت بغير حب | ٢٣ | ٣١ | ٥٤ | ٧٥ | ٧٠,٦ بالمائة |
| سيطرة الزوج | ٢٨ | ٣٢ | ٦٠ | ٧٥ | ٧٨,٦ بالمائة |
| عدم مساعدة الزوج | ٣١ | ٣٥ | ٦٦ | ٧٥ | ٨٨ بالمائة |
| عدم الاشباع الجنسي | ٣١ | ٢٩ | ٦٠ | ٧٥ | ٧٨,٦ بالمائة |
| علاقات خارج الزواج | ١٠ | ٦ | ١٦ | ٧٥ | ٢١,٣ بالمائة |
| لا تتزوج زوجها مرة أخرى | ٢٩ | ٣٤ | ٦٣ | ٧٥ | ٨٤ بالمائة |

وبلاحظ في الجدول رقم ٢٤ ارتفاع نسبة عدم مساعدة الزوج، وعدم التوافق الزوجي بين العصابات.

جدول رقم (٢٥)

| مشاكل الزوج | متعلمات | متعلمات طبيعيات | المجموع | العدد الكلى | النسبة المئوية |
|-------------------------|---------|-----------------|---------|-------------|----------------|
| تزوجت بغير حب | ٢٣ | ١٥ | ٣٨ | ٥٨ | ٦٥ر٥ بالمئة |
| سيطرة الزوج | ٢٨ | ١٧ | ٤٥ | ٥٨ | ٧٧ر٥ بالمئة |
| عدم مساعدة الزوج | ٣١ | ١٧ | ٤٨ | ٥٨ | ٨٢ر٥ بالمئة |
| عدم الاشباع الجنسى | ٣١ | ١٤ | ٤٥ | ٥٨ | ٧٧ر٥ بالمئة |
| علاقات خارج الزواج | ١٠ | ٣ | ١٣ | ٥٨ | ٢٢ر٤ بالمئة |
| لا تتزوج زوجها مرة أخرى | ٢٩ | ١٨ | ٤٧ | ٥٨ | ٨١ بالمئة |

يلاحظ من الجدول رقم ٢٥ ارتفاع نسبة عدم التوافق الزوجى أيضاً بين المتعلمات، وعدم مساعدة الزوج لزوجته فى أعمال البيت والأطفال.

جدول رقم (٢٦)

| مشاكل الزواج | طبيعيات متعلقات | طبيعيات غير متعلقات | المجموع | العدد الكلى | النسبة المئوية |
|----------------------------|--------------------|------------------------|---------|----------------|-------------------|
| تزوجت بغير حب | ١٥ | ٢١ | ٣٦ | ٤٤ | ٨١ر٨ بالمئة |
| سيطرة الزوج | ١٧ | ٢٢ | ٣٩ | ٤٤ | ٨٨ر٦ بالمئة |
| عدم مساعدة الزوج | ١٧ | ٢٢ | ٣٩ | ٤٤ | ٨٨ر٦ بالمئة |
| عدم الاشباع الجنسي | ١٤ | ١٧ | ٣١ | ٤٤ | ٧٠ر٤ بالمئة |
| علاقات خارج الزواج | ٣ | ١ | ٤ | ٤٤ | ٩ بالمئة |
| لا تتزوج زوجها مرة أخرى | ١٨ | ٢٠ | ٣٨ | ٤٤ | ٨٦ر٣ بالمئة |

وفى الجدول (٢٦) يلاحظ ارتفاع نسبة من تزوجن بغير حب بين الطبيعيات، وانخفاض نسبة العلاقات خارج الزواج (٩ بالمئة).

جدول رقم (٢٧)

| مشاكل الزواج | غير متعلقات | غير متعلقات طبيعيات | المجموع | العدد النسبة الكلى المشوية |
|---|-------------|---------------------|---------|----------------------------|
| تزوجت بغير حب | ٣١ | ٢١ | ٥٢ | ٦١ ٨٥٢ رة بالمئة |
| سيطرة الزوج | ٣٢ | ٢٢ | ٥٤ | ٦١ ٨٨٥ رة بالمئة |
| عدم مساعدة الزوج في أعمال البيت والاطفال | ٣٥ | ٢٢ | ٥٧ | ٦١ ٩٣٤ رة بالمئة |
| عدم الاشباع الجنسي | ٢٩ | ١٧ | ٤٦ | ٦١ ٧٥٥ رة بالمئة |
| علاقات جنسية خارج الزواج | ٦ | ١ | ٧ | ٦١ ١١٤ رة بالمئة |
| لا تتزوج زوجها مرة اخرى لو عادت السنين إلى العراء | ٣٤ | ٢٠ | ٥٤ | ٦١ ٨٨٥ رة بالمئة |

في جدول (٢٧) يلاحظ ارتفاع نسبة عدم مساعدة الزوج (٩٣٤ رة بالمئة) بين غير المتعلقات وأرتفاع نسبة من تزوجن بغير حب (٨٥٢ رة بالمئة).

مقارنة النسب المثوية :

جدول رقم (٢٨)

| مشاكل الزواج | عصايات | طبيعات | متعلمات | غير متعلمات | النسبة |
|---|--------------|--------------|-----------------|-----------------|---------|
| | متعلمة + غير | متعلمة + غير | عصايات + طبيعات | عصايات + طبيعات | المثوية |
| تزوجت بغير حب | ٧٠٦ | ٨١٨ | ٦٥٥ | ٨٥٢ | ٧٥٦ |
| سيطرة الزوج | ٧٨٦ | ٨٨٦ | ٧٧٥ | ٨٨٥ | ٨٢٣ |
| عدم مساعدة الزوج في أعمال البيت والاطفال | ٨٨ | ٨٨٦ | ٨٢٥ | ٩٣٤ | ٩٠٧ |
| عدم الاشباع الجنسي | ٧٨٦ | ٧٠٤ | ٧٧٥ | ٧٥٥ | ٧٦٣ |
| علاقات جنسية خارج الزواج | ٢١٣ | ٩ | ٢٢٤ | ١١٤ | ١٦٧ |
| لا تتزوج زوجها مرة اخرى لو عادت السنين إلى الوداء | ٨٤ | ٨٦٣ | ٨١ | ٨٨٥ | ٨٤٨ |

في جدول (٢٨) يلاحظ أن هناك تقارباً في النسب بين العصايات وبين المتعلمات بصفة عامة، وتقارباً بين الطبيعات وبين غير المتعلمات. ان

الطبيعيات وغير المتعلّقات يتزوجن بغير حب بنسبة أكبر من العصائيات والمتعلّقات. وتزيد أيضاً نسبة سيطرة الزوج وعدم مساعدته فى أعمال البيت والأطفال فى حالة الطبيعيات وغير المتعلّقات ، وتقل بينهن العلاقات الجنسية خارج الزواج عن العصائيات والمتعلّقات، ويكاد يتساوى الجميع فى عدم الاشباع الجنسي، وفى عدم الزواج بأزواجهن مرة أخرى لو عادت السنين إلى الوراء.

وانى أعتقد هنا أن النسبة الدالة على العلاقات خارج الزواج أقل من الحقيقة بعض الشيء. لأننى أحسست أن بعض النساء كن يتحرجن من الاعتراف بمثل هذه العلاقات رغم أننى كنت أطمئنهن أننى لا أحكم عليهن أخلاقياً على الإطلاق. وقد أستطعت أن أحصل على بعض الاعترافات عن طريق الأسئلة غير المباشرة. وكذلك الحال فى موضوع الاشباع الجنسي، فقد كانت بعض النساء وبالذات غير المتعلّقات يخجلن أو يجهلن معنى الاشباع الكامل. وأقتضى الامر منى بتنويع الأسئلة حتى أحصل على المعلومات الصحيحة بقدر الامكان.

جدول رقم (٢٩)

| مقارنة حياتها بحياة أمها | عصائيات متعلقات | عصائيات غير متعلقات | طبيعيات متعلقات | طبيعيات غير متعلقات |
|-----------------------------|--------------------|------------------------|--------------------|------------------------|
| حياتها أفضل من حياة أمها | ٤٣ (٨٦ بالمئة) | ٣٨ (٧٦ بالمئة) | ٢١ (٧٠ بالمئة) | ١٤ (٤٦ر٦ بالمئة) |
| حياة أمها أفضل من حياتها | ٧ (١٤ بالمئة) | ١٢ (٢٤ بالمئة) | ٩ (٣٠ بالمئة) | ١٦ (٥٣ر٤ بالمئة) |
| المجموع | ٥٠ | ٥٠ | ٣٠ | ٣٠ |

يتضح من الجدول رقم (٢٩) أن العصائيات يفضلن حياتهن عن حياة أمهاتهن أكثر من الطبيعيات، وأن المتعلقات يفضلن حياتهن عن حياة أمهاتهن أكثر من المتعلقات.

جدول رقم (٣٠)

| استخدام وسائل منع الحمل | عصائيات متعلقات | عصائيات غير متعلقات | طبيعيات متعلقات | طبيعيات غير متعلقات |
|---------------------------|--------------------|------------------------|--------------------|------------------------|
| تستخدم وسائل منع الحمل | ٢٩ | ١٧ | ١٥ | ١٠ |
| لا تستخدم وسائل منع الحمل | ٨ | ٢١ | ٦ | ١٣ |
| المجموع | ٣٧ | ٣٨ | ٢١ | ٢٣ |

وفى جدول (٣٠) يلاحظ أن العصابات المتعلّقات أكثر استخداماً
لوسائل منع الحمل من الطبيعيات، وأن الزوجات غير المتعلّقات أقل
استخداماً لوسائل منع الحمل من المتعلّقات.

جدول رقم (٣١)

| ممارسة الجنس قبل الزواج | | | | |
|---------------------------|-------|--------------|--------|--------------|
| عصابات | | عصابات | | طبيعيات |
| متعلّقات | | غير متعلّقات | | غير متعلّقات |
| مارست الجنس قبل الزواج | ٣٨ | ٢٩ | ٨ | ٣ |
| | (٪٧٦) | (٪٥٨) | (٪٢٩٦) | (١٠) |
| لم تمارس الجنس قبل الزواج | ١٢ | ٢١ | ٢٢ | ٢٧ |
| المجموع | ٥٠ | ٥٠ | ٣٠ | ٣٠ |

يتضح من الجدول رقم (٣١) ارتفاع نسبة ممارسة الجنس قبل الزواج
بين العصابات عن الطبيعيات، وبين المتعلّقات عن غير المتعلّقات.
وأنى أعتقد أن هذه الأرقام أقل من الحقيقة أيضاً، بسبب تحرج المرأة
عامة من الاعتراف بمثل هذه الممارسات قبل الزواج لتعلقها بالشرف
والاخلاق. ولكنى كنت أشجع الواحدة منهن على فتح قلبها
لى والاعتراف بمثل هذه الممارسات، ولم يكن ذلك سهلاً فى جميع
الحالات، ولكنى كنت أمهد لمثل هذه الاعترافات بحديث طويل عن
فضيلة الصدق، وعن أننى أحترم المرأة طالما أنها صادقة، مدركة

لمسئوليتها. ويتضمن الجدول أن (٧٦ بالمئة) من العصابات المتعلقات مارسن الجنس قبل الزواج، وهو أعلى نسبة فى المجموعات الاربعة. ويتضح هنا أيضاً أن العصابة غير المتعلمة أكثر قرباً فى صفاتها للعصابة المتعلمة من الطبيعية غير المتعلمة. ان المرأة العصابة غير المتعلمة تمارس الجنس قبل الزواج هنا بنسبة ٥٨ بالمئة، وهى أعلى بكثير من زميلتها غير المتعلمة الطبيعية حيث تكون النسبة ٢٦ر٦ بالمئة فقط.

الأسباب الرئيسية للعصاب :

أمكن تجميع الأسباب الرئيسية للأصابة بالعصاب بين المجموعتين المتعلمة والغير متعلمة كالآتى :

- ١- سيطرة الزوج أو الأب أو الأخ أو رجل آخر من الاسرة.
- ٢- الفشل فى تحقيق الذات أو الطموح فى الحياة.
- ٣- الفشل فى الحياة العاطفية أو الزوجية أو دور الزوجة والام فى البيت.
- ٤- عدم الاشباع الجنسي.
- ٥ - أسباب أخرى (مثل سيطرة الأم أو الحماة - أزمة اقتصادية - اضطهاد فى العمل).

جدول رقم (٣٢)

| السبب الرئيسى للعصاب | عصائيات متعلّقات | عصائيات غير متعلّقات | المجموع |
|--|---------------------|-------------------------|---------|
| سيطرة الرجل فى الأسرة | ١١ | ١٨ | ٢٩ |
| | ٢٢ بالمئة | ٣٦ بالمئة | |
| الفشل فى تحقيق الذات أو . الطموح | ١٥ | ١٣ | ٢٨ |
| | ٣٠ بالمئة | ٢٦ بالمئة | |
| الفشل فى الحياة العاطفية أو الزوجية أو دور الزوجة والأم | ١٠ | ١٢ | ٢٢ |
| | ٢٠ بالمئة | ٢٤ بالمئة | |
| عدم الأشباع الجنسى | ٩ | ٤ | ١٣ |
| | ١٨ بالمئة | ٨ بالمئة | |
| أسباب أخرى | ٥ | ٣ | ٨ |
| | ١٠ بالمئة | ٦ بالمئة | |
| المجموع | ٥٠ | ٥٠ | ١٠٠ |
| | ١٠٠ بالمئة | ١٠٠ بالمئة | |

يلاحظ من الجدول رقم ٣٢ ان أعلي نسبة من العصائيات المتعلّقات يمرض بسبب الفشل فى تحقيق الذات أو الطموح (٣٠ بالمئة)، وأن أعلي نسبة بين العصائيات غير المتعلّقات يمرض بسبب سيطرة الرجل فى الأسرة (٣٦ بالمئة) ، ويلاحظ أن المرأة غير المتعلّمة أكثر حساسية

لفشلها فى الحياة الزوجية ودور الزوجة والأم من المرأة المتعلمة. والمرأة المتعلمة اكثر حساسية لعدم الاشباع الجنسى من المرأة غير المتعلمة. ويتضح بالنسبة للمجموعتين معاً أن السبب الرئيسى الأول لاضابة المرأة بالعصاب هو سيطرة رجل فى الأسرة ، يليه الفشل فى تحقيق الذات أو الطموح، يليه الفشل فى الحياة العاطفية أو الزوجية. ثم يأتى عدم الاشباع الجنسى.

أنواع العصاب :

جدول رقم (٣٣)

| نوع العصاب | عصابات متعلقات | عصابات غير متعلقات | المجموع |
|------------|----------------|--------------------|---------|
| قلق | ٢٧ | ٩ | ٣٩ |
| | %٥٤ | %١٨ | |
| اكتئاب | ١٣ | ١١ | ٢٢ |
| | %٢٦ | %٢٢ | |
| خوف | ٥ | ١٤ | ١٨ |
| | %١٠ | %٢٨ | |
| هستيريا | ٢ | ١٢ | ١٣ |
| | %٤ | %٢٤ | |
| اخرى | ٣ | ٤ | ٧ |
| | %٦ | %٨ | |
| المجموع | ٥٠ | ٥٠ | ١٠٠ |
| | %١٠٠ | %١٠٠ | |

يلاحظ فى الجدول (رقم ٣٣) أن القلق أكثر أنواع العصاب انتشاراً بين المتعلمات (٥٤ بالمئة) يليه الأكتئاب (٢٦ بالمئة)، أما الخوف والهستيريا فلا يمثلان إلا نسبة ضئيلة (١٠ بالمئة على التوالى) ، وهذا على عكس مجموعة الغير متعلمات، إذ يلاحظ أن الخوف والهستيريا يمثلان أعلى النسب (٢٨ بالمئة و٢٤ بالمئة على التوالى) يليهما الأكتئاب (٢٢ بالمئة). أما القلق فلا يمثل إلا (١٨ بالمئة) من الحالات. ولكن بالنسبة للمجموعتين معاً فإن القلق عامة يمثل أكثر الحالات بين النساء (٢٩ بالمئة) ، يليه الأكتئاب (٢٢ بالمئة) ثم الخوف (١٨ بالمئة) وفى النهاية الهستيريا (١٣ بالمئة).

الجزء الثانى

مناقشة

مناقشة نتائج البحث

ان ارتفاع نسبة الإصابة بالعصاب بين الفتيات والنساء يدل على أن النساء فى مجتمعنا المصرى يتعرضن لصراعات وتناقضات متعددة، وعلى الأخص النساء المتعلّمات اللاتى خرجن للتعليم والعمل وأصبح لهن وعى جديد ودور جديد بالاضافة إلى الدور التقليدى القديم. وبالرغم من أن المجتمع المصرى كائى مجتمع آخر تغزوه الأفكار الجديدة عن تعليم المرأة وعملها فى المجتمع وحريتها إلا أنه لا زال يخضع لكثير من التقاليد القديمة مثل وضع المرأة الأدنى فى الأسرة. وفى هذه الفترات الانتقالية ، التى يجمع فيها المجتمع بين الجديد والقديم يتعرض الناس لصراعات نفسية، وخاصة النساء، حيث أن موقف المجتمع من المرأة أشد تعنتاً من موقفه من الرجل، وحيث أن دور الرجل لم يتغير، والقيم الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية فى المجتمع لازالت تميل إلى

جانب الرجل.

وتزداد حدة الصراعات فى حياة المرأة المتعلمة الواعية بحقوقها الجديدة أكثر من المرأة غير المتعلمة غير الواعية بهذه الحقوق. وتزداد هذه الصراعات أيضاً فى حياة المرأة المتعلمة العاملة لأن المجتمع لم يهبأ بعد (اجتماعيا وأخلاقيا وتربويا ونفسيا) لدور المرأة المتعلمة العاملة. ولا زال المجتمع بصفة عامة ينظر إلى دور المرأة فى البيت (كزوجة وأم) على أنه دورها الاساسى فى الحياة، أو دورها الوحيد المسموح به. أما عملها خارج البيت فليس الا من أجل تخفيف الأعباء الاقتصادية عن كاهل رب الأسرة فى الحياة، وهو خدمة الزوج والأطفال فى البيت. والمرأة المصرية العاملة خارج البيت عليها أن تؤدى واجباتها داخل البيت أيضاً دون تقصير أو إهمال، وإلا تعرضت للوم أو العقاب (قد يصل الامر إلى الطلاق). وبالرغم من أن المرأة العاملة تشارك الرجل مسؤولية الاتفاق على الأسرة، إلا أن الرجل المصرى لا يشاركها مسؤولية الاعمال داخل البيت، ويعتبر أن مثل هذه الأعمال المنزلية لا تليق بكرامته كرجل.

والمرأة العاملة هنا هى المرأة التى تعمل فى المصانع أو المكاتب أو المهن المختلفة. أما المرأة العاملة فى الحقل (الفلاحة المصرية) فهى تخرج للعمل فى الحقل منذ آلاف السنين، وهى تجمع بين عملها داخل البيت وخارجة. وهى تعمل خارج البيت بغير أجر تحت سيطرة زوجها ولحسابه،

ولا تتقاضى عن عملها أجراً شهرياً مستقلاً عن الزوج. والأغلبية الساحقة من الفلاحات المصريات أميات، يجهلن القراءة والكتابة. ويلعب التعليم والعمل بأجر فى حياة المرأة دوراً كبيراً فى مساعدتها على أن ترفض وضعها الأدنى فى الأسرة. وأن ترفض التقاليد العتيقة التى تنظر اليها كوعاء لأنجاب الأطفال أو طاعة الزوج. وعلى أن تصبح انسانة لها طموح فكري ونفسى فى الحياة، يزيد عن غسل الصحون وارضاء الزوج. ولهذا السبب تزيد المشاكل النفسية ومرض العصاب بين النساء المتعلّمات عنها بين النساء غير المتعلّمات.

وقد وجدنا من نتائج البحث أن ٦٣ بالمئة من النساء المتعلّمات الطبيعيات قمن فى فترة من حياتهن ان يكن ذكوراً. وهذه النسبة تكاد تكون ضعف مثيلاتها بين النساء غير المتعلّمات. ومن هذا يتضح أن التعليم يلعب دوراً كبيراً فى إشعار الفتاة بالفرقة القائمة بين الجنسين فى معظم الاسر المصرية. ورفضها لهذه الفرقة، وبالتالي رغبتها فى أن تكون ذكراً لتتمتع بالامتيازات الاجتماعية والشخصية التى يتمتع بها الذكر.

ولهذا لا يمكن لنا أن نتهم الفتاة التى تتمنى أن تكون ذكراً بالشذوذ أو المرض النفسى أو عقدة من العقد الفردية. ولكن علينا أن ندرس ظروفها الاجتماعية لنذكر الفروق والامتيازات التى يحظى بها الذكور دون الاناث. وقد سبق أن وجدنا أن ٧٢ بالمئة من العصائيات المتعلّمات

تتنبأ أن يكون ذكوراً. وهذا يدل على أن التفرقة بين الجنسين من العوامل التي تؤثر في نفسية الفتاة. وتدفعها إلى الرفض والتمرد أو إلى العصاب أحياناً.

وقد اعتبر فرويد وأتباعه الفتاة التي تتمنى أن تكون ذكراً فتاة غير طبيعية. وأرجع رغبته إلى أنها تنشأ عضو الذكر الذي ينقصها. وقد أثبت علماء النفس من بعد فرويد خطأ هذه الأفكار. وأهمهم في هذا المجال هي الطبيبة النفسية كارين هورني التي عارضت فرويد في هذه الكفرة، وقالت أن البنت تتمنى أن تكون ذكراً لتحصل على الامتيازات الاجتماعية التي يحصل عليها الذكر، وليس لأنها تنشأ العضو الذكري.

وخلال حديثي مع المرأة أو الفتاة التي تجيب بأنها قمت أن تكون ذكراً في وقت مامن حياتها، كنت أسألها لماذا قمت بذلك. وكانت الإجابة في معظم الحالات تؤكد أن الامتيازات الاجتماعية أو الاقتصادية أو الأخلاقية هي السبب الرئيسي.

وقد أتضح من نتائج البحث أن الحرمان العاطفي في الطفولة وحده ليس كافياً لأن يسبب العصاب، ولكن لابد من تعرض الفتاة أو المرأة لعوامل أخرى في مراهقتها أو شبابها لكي تصاب بالعصاب. وهناك كثير من أطباء النفس من يعتقدون (بسبب تأثير فرويد) أن مشاكل الطفولة هي التي تسبب المرض. ولهذا ما أن تجلس المريضة أمام الطبيب

منهم، حتى يسرع بالسؤال عن الصدمات النفسية التي شعرت بها في طفولتها، ويظل يلح بالأسئلة حول مرحلة الطفولة محاولاً الكشف عن أسباب المشكلة الحالية لهذه المرأة في ماضيها البعيد، وذلك بالبحث عن أى خيالاتٍ طفولية جنسية قد تقوده إلى عقدة الكترا أو أوديب.

وقد ذكرت لى إحدى طالبات الجامعة المتزوجات التي كانت تتردد على أحد أطباء النفس للعلاج : « فى كل مرة كان يسألنى عن طفولتى، وعما إذا كنت حسدت أخى لأنه لا يملك عضواً أملكه، لم اكن أفهم أى معنى لسؤاله، فى حين أننى كنت أستطيع أن أقول له فى نصف دقيقة أننى يمكن أن أشفى تماماً لو أن زوجى تركنى أكمل تعليمى الجامعى ولم يضربنى كل يوم بعد عودتى من الكلية».

وقالت لى فتاة أخرى : كان الطبيب يسألنى أسئلة كثيرة بعيدة عن مشكلتى الحقيقية، فى حين أن مشكلتى كانت أن أخى الأكبر يضربنى بسبب ويغير سبب، ويهددنى بحبسى فى البيت إذا لم أسرق له النقود من أمى .

وهناك كثير من الأطباء أيضاً ممن يعتقدون أن العصاب مرض وراثى. أو أنه يرجع إلى ضعف معين فى الجهاز العصبى يورث عن طريق الكروموسومات وعلاقات الدم. لكنى بسؤالى عن وجود أى تاريخ لمرض عصابى فى أسرة الاب أو الأم اجابت ٩٦ امرأة من العصابات بالنفى. وأجابت الأربع الباقيات بأن هناك قريب فى الأسرة كان مريضاً

بمرض نفسى. وقالت لى إحدى هؤلاء الأربع: «سألنى الطبيب كثيراً عن جدتى التى قلت له أنها كانت تشكو من مرض عصبى، وقلت للطبيب أن مشكلتى الحالية لها علاقة بالماضى أكثر مما لها علاقة بالحاضر. ولم أكن أقتنع بمنطق الطبيب، لأنه كان يشبه منطق أمى التى كنت كلما شكوت لها من العذاب الذى أعيشه مع زوجى تقول لى فى هدوء: «اصبرى ياأبنتى فسوف يعوض الله صبرك خيراً فى الآخرة»، كان منطق أمى أن العلاج الوحيد لحالتى لن يكون إلا فى الآخرة بعد أن أموت. أما الطبيب فكان يرى أن السبب الوحيد لحالتى قد حدث قبل أن أولد.. وكلاهما لم يكن يهتم بالمشكلة الحقيقية فى حياتى الحاضرة وهى زوجى.

وقد أستمتعت كثيراً بالحديث إلى مثل هؤلاء النساء العصائيات الذكيات. فقد كان لبعضهن قدرة نادرة على السخرية الذكية الواعية. وكانت الواحدة رغم مشاكلها النفسية أكثر وعياً بأسباب مشاكلها من الطبيب الذى يعالجها. لكنها لم تكن تجد ثمة شخص آخر تلجأ إليه إلا الطبيب النفسى. وقد أقتنعت بعد فحصى لحياة هؤلاء النساء والفتيات بأن سيطرة الزوج على زوجته، أو ضرب الأب لأبنته، يسبب العصاب للمرأة أكثر مما تسببها الوراثة أو الكروموسومات.

وقد أتضح من نتائج البحث أن نسبة ممارسة العادة السرية أو المداعبات الجنسية فى مرحلة الطفولة أكثر ارتفاعاً بين النساء

العصابيات (٦٤ بالمئة). عنها بين النساء الطبيعيات (٢٠ بالمئة) وقد وجدت أن سبب ذلك هو أن المرأة العصابية أكثر جرأة فى قمردها على التقاليد والنظم المفروضة عليها، وأنها فى ممارسة الجنس أكثر جرأة وأقل كبتاً من المرأة الطبيعية. وإذا عرفنا أن جميع الاطفال لهم حياتهم الجنسية الطبيعية من حيث المداعبات أو غيرها، فأنا ندرك أن احجام المرأة الطبيعية عن مثل هذه المداعبات (سواء كان هذا الاحجام صحيحاً أو لمجرد الخوف من التصريح بمثل هذه الافعال الجنسية فى هذه السن المبكرة) ليس صفة طبيعية بقدر ما هو الخوف أو الكبت بسبب التربية القائمة على التحذير والتخويف . أو بسبب عملية الختان التى أجريت على نسبة (٩٠ بالمئة) من النساء والفتيات الطبيعيات مقابل (٧٧ بالمئة) من النساء العصابيات . وفى هذه العملية تم استئصال البظر فى جسم الفتاة قبل أن تبلغ سن الرشد (قبل مجئ الدورة الشهرية) وذلك بين سن خمس سنوات إلى تسع سنوات فى معظم الحالات. وقد أتضح لى من مناقشة النساء والفتيات حول هذه العملية أن معظمهن لا يعرفن شيئاً عن مضارها. وبعض منهن يتصورن أنها عملية صحية من أجل النظافة والطهارة (تسمى العملية باللغة العامية : الطهارة) وبالرغم من أن نسبة اجراء هذه العملية بين النساء المتعلّمات أقل مما هى بين النساء غير المتعلّمات (٦٦ر٢ بالمئة مقابل ٩٧ر٥ بالمئة) إلا أن معظم النساء المتعلّمات اللاتى تحدثت معهن لم يفتن إلى آثار العملية على صحتهن

النفسية أو الجنسية. وقد كان الحوار يدور بينى وبين المرأة أو الفتاة على النحو التالى :

- هل أجريت لك عملية الختان (الطهارة) :

- نعم.

- كم كان عمرك فى ذلك الوقت ؟

- كنت طفلة، حوالي سبع أو ثمان سنوات.

- هل تذكرين كيف حدثت العملية ؟

- بالطبع . لا يمكن ان أنسى.

- هل شعرت بخوف ؟

- بالطبع ، وقد أختفيت منهم فوق الدولاب (أو فى حالات أخرى

تحت السرير أو عند الجيران ...) لكنهم أمسكونى وأنا ارتعد من الخوف.

- هل شعرت بألم ؟

- بالطبع ، كان الألم مثل النار. وصرخت. وكانت أمى تمسك رأسى

كى لا أحركه، وخالتى تمسك ذراعى اليمنى. وجدتى تمسك ذراعى

اليسرى ، وامرأتان غريبتان لم أرهما من قبل كل واحدة منهما تمسك

ساقاً من ساقى وتشده بكل قوتها بعيداً عن الساق الأخرى، أما الداية

فقد جلست بينهما ومعها الموس الذى قطعت به البظر. ومن شدة الألم

والذعر فقدت الوعى بعد لسعة الألم الشديدة مثل النار.

- ماذا حدث بعد العملية ؟

- شعرت بآلام شديدة فى جسمى، وظللت فى السرير أياماً لا أستطيع السير.

وأحتبس البول فترة من شدة الألم أثناء التبول، وظل الجرح ينزف، وأمى تضع عليه شاشاً وقطناً حتى التأم الجرح.

- ماذا كان شعورك حين علمت أنك فقدت عضو من أعضاء جسمك ؟

- لم أكن أعرف شيئاً عن هذه العملية سوى أننى سمعت من أمى أنها عملية بسيطة جداً وتجرى لكل البنات من أجل الطهارة والنظافة وخسن السمعة. وأن البنت التي لا تظهر بهذه العملية تصبح عرضة للألسنة الناس، وتسوء أخلاقها، وتجري وراء الرجال، ولا يقبل على الزواج منها أى أحد. وسمعت من جدتى أن العملية ليست إلا إزالة قطعة صغيرة جداً من اللحم بين فخذى، وأن بقاء هذه القطعة الصغيرة فى جسمى يجعله قذراً ومدنساً وقبيح المنظر، ينفر الرجل الذى سيتزوجنى.

- هل صدقت هذا الكلام ؟

- بالطبع صدقته، وفرحت بعد شفائى من العملية وأحسست أننى تخلصت من شئ كان لابد أن أتخلص منه، وأننى أصبحت نظيفة وطاهرة.

كانت هذه اجابة معظم الحالات، متعلمات وغير متعلمات. وكانت

احدي الحالات طالبة بكلية طب عين شمس بالسنة النهائية، وكنت اتوقع أنها ستقول لى كلاماً مختلفاً، لكن اجابتها كانت متشابهة للأجابة السابقة. ودار بينى وبينها حوار أذكره على النحو التالى :

- ولكنك ستصبحين طبيبة بعد عدة أسابيع، فكيف يمكن أن تصدقى أن قطع البظر من جسد الفتاة أمر صحى أو على الأقل غير ضار ؟
- هذا هو ماسمعه من كل الناس. وكل بنات أسرتى تجرى لهن عملية المختان. وأنا درست التشريح والطب، ولكنى لم أسمع أحد من الاساتذة يشرح لنا فائدة البظر فى جسد المرأة. ولم أقرأ شيئاً عن ذلك فى أي كتاب.

- هذا صحيح، فأن علوم الطب ليس من بينها علم الجنس حتى اليوم وأعضاء المرأة الجنسية هى الأعضاء التناسلية فقط (الرحم والمهبل والمبيضين) أما البظر فهو عضو يهمله الطب كما يهمله المجتمع.
- أذكر أن أحد الطلبة سأل الأستاذ مرة عن البظر، فإذا بوجه الأستاذ يحمر، ويرد عليه بغلظة قائلاً أن أحداً لن يسأله فى الامتحان عن هذا. وليس لهذا العضو أهمية تذكر ...

وقد حاولت أن أعرف أثر هذه العملية على النساء والفتيات. على حياتهن النفسية أو الجنسية . وقد أجابتنى معظم الطبيعيات (اللاتى كن أكثر شعوراً بالخجل والحرج تجاه مثل هذه الأسئلة من العصائيات) بأن العملية لم تؤثر عليهن فى شئ . ولم أكن أكتفى بهذه الاجابة،

وكننت أسأل كل واحدة عن حياتها الجنسية قبل عملية الختان وبعدها.
وكان الحوار بينى وبين المرأة يدور على هذا النحو :
- هل شعرت بأى تغيير فى مشاعرك أو رغباتك الجنسية بعد علمية
الختان ؟

- كنت طفلة صغيرة ولم أكن أشعر بشئ.
- ألم تكن لك رغبة جنسية وأنت طفلة ؟
- لا ، أبداً ، وهل الأطفال لهم رغبات جنسية ؟
- الأطفال يشعرون بلذة حين يلمسون أعضاءهم ، وتحدث بينهم فى
سن مبكرة مداعبات جنسية، ويلعبون عريس وعروسة تحت السير معاً.
ألم تلعبى عريس وعروسة مع أصدقائك الأطفال ؟
وهنا كان يحمر وجه المرأة أو الفتاة، وقد تحرك عيناها بعيداً عن
عينى حتى لا ألحظ اضطرابها. وبعد مزيد من الحديث والفهم والطمأنينة
تبدأ الواحدة منهن تحكى عن ذكرياتها وهى طفلة، وأنها شعرت بلذة
جنسية حين كان يداعبها جنسياً رجل من أفراد الأسرة، أو الخادم أو
البواب أو المدرس الخصوصى أو ابن الجيران. وقالت لى طالبة جامعية أن
أخاها الأكبر كان يداعبها، وكانت تشعر بلذة. وأنها فقدت هذه اللذة بعد
عملية الختان. وذكرت لى امرأة متزوجة أنها لا تشعر بأى لذة جنسية مع
زوجها، وأن آخر عهدها باللذة كان منذ عشرين عاماً أو أكثر حين كانت
طفلة فى السادسة، قبل أن تجرى لها عملية الختان . وقالت لى فتاة أنها

مارست العادة السرية وهي طفلة، ثم توقفت بعد أن أجروا لها عملية الختان وهي في العاشرة من عمرها. ويمزج من التعمق في الأسئلة كانت المرأة منهن تفتح قلبها وتحكى أدق أسرارها في الطفولة والمراهقة. وقد لاحظت أن العصابات أكثر استعداداً لفتح قدرة على التعبير والمصارحة في حديثهن معي. وكنت أنفق مع المرأة الطبيعية ضعف الوقت تقريباً الذي أنفقه مع المرأة العصابية من أجل الوصول إلي الأجابة الصريحة نفسها. وقد أصرت إحدى النساء الطبيعيات المتعلمات أنها لم تشعر بأية رغبة جنسية وهي طفلة قبل عملية الختان ولا بعدها. بل أنها كانت تنفر من الذكور وتبتعد عنهم. وقد ألتقيت بهذه السيدة أكثر من مرة. وفي إحدى المرات قالت لي دون أن تدري أن هناك حادثاً معيناً لا تنساه منذ الطفولة، وشرحت لي كيف أخذها ابن عمها ذات يوم إلى سطح المنزل وجعلها تخلع السروال، وأنها شعرت بلذة لكنها أصبحت تخاف منه، وأصبحت تخاف أن يقول لأُمها أو لأبيها.

وقد أستطعت لكوني امرأة وطبيبة أن أحصل من هؤلاء النساء والفتيات علي اعترافات قلما يحصل عليها باحث من الرجال. فالمرأة المصرية بحكم تربيتها الصارمة المرتكزة على انكار الحياة الجنسية للبنات قبل الزواج، ترفض التصريح بأنها عرفت شيئاً من هذا الجنس قبل الزواج. وهي تخجل من الحديث في هذه الأمور أمام أى رجل حتى وإن كان طبيبها المعالج.

وقد أتضح لي من مناقشة بعض أطباء النفس الذين كانوا يشرفون على علاج بعض النساء العصائيات في مجموعة بحثي، أن هؤلاء الأطباء يجهلون الكثير عن حياة المرأة أو الفتاة العصابية التي يشرفون على علاجها. وكان سبب ذلك إما أن الطبيب نفسه لم يتعمق بالقدر الكافي في حياة المرأة النفسية والجنسية، وإما أن المرأة تخرجت من التصريح له بحقائق حياتها.

وقد وجدت من خلال مناقشتي لمعظم أطباء النفس في مجتمعنا المصري، ومن خلال زمالتي لعدد كبير من الأطباء ولمعظم أطباء النفس في مجتمعنا المصري، ومن السنوات التي عملت فيها في الوحدات والمستشفيات العامة، وأيضاً خلال السنوات الأربع التي أصبحت فيها عضواً في مجلس نقابة الأطباء. من خلال كل ذلك فقد وجدت أن مهنة الطب في مجتمعنا قاصرة حتى اليوم عن ادراك المشاكل الحقيقية الأساسية التي يعاني منها المريض سواء كان رجلاً أو امرأة، وبالأخص إذا كانت امرأة. فأن مهنة الطب كغيرها من المهن تخضع للقيم السياسية والاجتماعية والأخلاقية في المجتمع. بل أنها كغيرها من المهن احدي الأجهزة التي تستخدم أحياناً لحماية هذه القيم والمحافظة عليها.

ويمثل الرجال الأغلبية العددية في مهنة الطب كغيرها من المهن. وبالإضافة إلى الأغلبية العددية، فإن معظم النساء من الطبيبات لا يختلفن في أفكارهن عن الرجال الاطباء. بل أنني عرفت من الطبيبات

من هن أكثر تزمناً وتخلفاً فى نظرتهن إلى المجتمع والحياة والناس والقيم السائدة.

وقد وجدت أن هذه النظرة المتزمتة المتخلفة، وبالذات تجاه المرأة والجنس، هى التى تسود مهنة الطب. وعلى الاخص داخل كليات الطب بالجامعات.

وقد حاولت أن أجرى هذا البحث نفسه فى قسم الأمراض النفسية بكلية طب قصر العبنى بالقاهرة منذ سنوات، لكنى صادفت من العقبات ما جعلنى أصرف النظر عن الفكرة. وكان أول هذه العقبات هى العقلية التقليدية السائدة لدى الأطباء المسؤولين عن البحوث. هذه العقلية التى ترى أن كلمة «جنس» مرادفة لكلمة «عيب» وأن البحث العلمى المحترم يجب ألا يخوض فى مثل هذه المسائل. وقد صادفت العقبة نفسها فى كلية طب عين شمس، ونصحنى أحد الزملاء الأطباء فى لجنة البحوث ألا أشير بحرف واحد إلى كلمة «جنس» فى أسم البحث، حتى لا تعترض عليه لجنة البحوث. وكنت أفكر فى أن يكون عنوان بحثى «المشاكل التى تعترض الحياة الجنسية للمرأة المصرية». وبعد مفاوضات طويلة مع بعض الزملاء الاطباء فى طب عين شمس، حذفت كلمة «الجنسية» ووضعت مكانها كلمة «النفسية». وبذلك زالت الحساسية لدى الأطباء المسؤولين، وقمت الموافقة على اجراء البحث فى كلية طب عين شمس. وهذا الكلام ليس خروجاً عن مناقشة نتائج البحث. بل أنه فى صلب

الموضوع. لأننى بعد أن حصلت على تلك النسب المرتفعة من النساء والفتيات التى أجريت لهن عملية الختان فى الطفولة، أو اللاتى تعرضن فى الطفولة لمخاطر جنسية من رجال كبار، أصبحت أبحث فى كليات الطب ومراكز البحوث عن بحوث سابقة أجريت فى مثل هذه المجالات دون جدوى. فأن أحداً من الأطباء أو الباحثين أو الباحثات لم يقدم على بحث من هذا النوع. بسبب حساسية الموضوع. ولأن معظم البحوث لم تكن إلا بحوث شكلية من أجل الحصول على الشهادة أو الترقية، وأغلبية الباحثين والباحثات يبحثون عن طريق السلامة، أو أقصر طريق للوصول إلى الهدف المنشود (الشهادة أو الترقية). وليس هناك من يبحث عن المشاكل أو الصراعات مع المسؤولين عن العلم أو الدين أو الأخلاق أو الفضيلة، حيث أن كل هذه الأشياء مجتمعة تعانى من مرض الحساسية تجاه كلمة «جنس». وبالذات «الجنس» فيما يخص «المرأة».

إلا أننى بالرغم من كل ذلك، فقد عثرت على بعض الأطباء من ذوى الشجاعة العلمية الذين شجعونى على إجراء البحث منهم الدكتور أحمد عكاشة والدكتور عادل صادق بكلية طب عين شمس بل أننى أيضاً عثرت على بعض الأطباء من ذوى الشجاعة العلمية الذين أقدموا على إجراء البحث العلمى الوحيد فى مصر عن ختان البنات وأثاره الضارة. وقد أجرى هذا البحث الدكتور محمود كريم والدكتور رشدى عمار سنة ١٩٦٥ فى كلية طب عين شمس. ويشتمل البحث على جزئين : الجزء

الأول وعنوانه أثر ختان البنات على الرغبة الجنسية عند المرأة . والجزء الثانى بعنوان مضاعفات ختان البنات. وكان من نتائج هذا البحث الذى أجرى على ٦٥١ امرأة مختنة (تم اجراء عملية الختان لها فى الطفولة) ما يلى :

- (١) أن عملية الختان عملية ضارة بصحة المرأة، وهى تسبب صدمة جنسية للفتاة، ولها أثر مؤكد على اضعاف قدرة المرأة للوصول إلى قمة اللذة الجسدية (الأورجاسم) ولها أثر أقل درجة على رغبة المرأة الجنسية.
- (٢) أن التعليم يساعد على الأقلال من انتشار هذه العادة، حيث أن الآباء والأمهات المتعلمين أصبحوا يرفضون اجراء هذه العملية على بناتهم. أما الأسرة غير المتعلمة فلا تزال تعتن، خضوعاً للتقاليد السائدة أو اعتقاداً بأن هذه العملية تقلل من الرغبة الجنسية عند البنت بهدف المحافظة على عذريتها وعفتها.
- (٣) ثبت خطأ الفكرة التى كانت تقول بأن عملية الختان تمنع حدوث امراض سرطانية لأعضاء المرأة الجنسية الخارجية.
- (٤) أن عملية الختان بجميع درجاتها، وعلى الأخص الدرجة الرابعة المعروفة بأسم النوع الفرعونى (الطريقة السودانية فى الختان) تصاحبها مضاعفات مباشرة أو بعد فترة من الزمن. مثل النزيف ، الالتهابات، اضطرابات فى المجارى البولية، أكياس أو أورام قد تسد مجرى البول أو الفتحة التناسلية، إلى غير ذلك.

(٥) وجد أن ممارسة العادة السرية لدى البنات «المختنات» أقل من النسبة التي ذكرها كينزى فى بحثه عن البنات غير المختنات. وقد ألتقيت بالدكتور محمود كريم فى القاهرة، وعرفت منه أنه صادف كثيراً من العقبات أثناء اجراء هذا البحث. وأنه تعرض لكثير من النقد من بعض الاطباء وبعض رجال الدين، الذين يعدون أنفسهم حماة الأخلاق. والذي يتصور بعضهم أن فى التعرض لمثل هذه الموضوعات مساس بالأخلاق والتقاليد والدين.

وقد أتفقت بعض نتائج هذا البحث مع نتائج البحث الذى قمت به من حيث أن عملية الختان تحدث فى حياة البنت صدمة نفسية وجنسية. وأنها تصيبها بنوع من البرود الجنسى تختلف درجته من امرأة إلى امرأة ومن ظرف إلى ظرف. كما أن التعليم يساعد على احجام الآباء والأمهات عن اجراء العملية لبناتهم. لكن التعليم (فى رأى) وبالذات التعليم التقليدى فى المدراس والجامعات الذى يهدف إلى الحصول على الشهادة وليس الحصول على الثقافة، هذا التعليم الشكلى لا يستطيع الوقوف بقوة فى وجه التقاليد الراسخة فى المجتمع المصرى. وبالذات التقاليد المتعلقة بالجنس وعذرية البنات وعفة النساء. لأرتباط مثل هذه التقاليد بالقيم الأخلاقية والدينية الحساسة السائدة منذ مئات السنوات.

وحيث أن عملية الختان هدفها الأول والأخير هو ضمان عذرية البنت وضمان عفتها قبل الزواج وبعده، فليس من المتوقع أن تنقرض هذه

العملية بسهولة من المجتمع المصرى (أو غيره من المجتمعات التى تسود فيها القيم والتقاليد نفسها). إلا أن كثيراً من الأسر المتعلمة أصبحت تتنبه لمضار هذه العملية وتحمى بناتها منها، كما أن طريقة اجراء العملية أصبحت أقل وحشية ، وانخفضت نسبة الطريقة الفرعونية بدرجات كبيرة فى المجتمع السودانى وفي جنوب مصر، وأصبح الاتجاه إلى التخفيف من درجة هذه العملية باستئصال البظر وحده أو جزء من البظر فقط. وكنت قبل أن أجرى هذا البحث أظن أن هذه العادة لا تعيش إلا فى الريف المصرى وبين الأسر غير المتعلمة، لكنى وجدت أن نسبة غير قليلة من الاسر المتعلمة فى القاهرة، لا تزال تؤمن باجراء هذه العملية كوسيلة لحماية البنت من الزلل.

وقد أيقنت خلال هذا البحث أن كثيراً من الأسر المتعلمة وغير المتعلمة لا تزال تؤمن بأن القياس الوحيد لشرف البنت هو عذريتها ليلة الزفاف. وأن معظم الرجال المصريين لا يتزوجون إلا العذراء. وقد وجدت أن أكثر ما يهدد سمعة الاسرة أو شرفها هو سلوك بناتها ونسائها وحياتهن الجنسية التى يجب أن تركز أساساً على العفة والزهد. إلا أننى وجدت أن هذا التشدد الاخلاقى الظاهرى، يقابله تسبباً اخلاقياً فى الخفاء. فالأب الذى يضرب أبنته لأنها حادثت زميلاً لها يخون زوجته فى معظم الأحيان. والأخ الذى يتظاهر بالتدين بالنهار يمد يده فى الليل ليلمس جسد أخته الصغيرة.

ان الأزدولوجية الأخلاقية تقود بطبيعة الحال إلى التناقضات. وقد كنت أدرك من خلال عملي كطبيبة أن حوادث الاعتداء الجنسي على البنات والأطفال ليست بالقليلة في مجتمعنا، لأن مثل هذه الحوادث لا يدري عنها أحد. وإذا ضبطت بالصدفة، فإن كثيراً من الأسر تتكتم الأمر حفاظاً على سمعة الأسرة وبناتها.

وقد وجدت في البحث أن نسبة مثل هذه الحوادث الجنسية في الطفولة مرتفعة في حالة النساء غير المتعلّقات عنها بين النساء المتعلّقات. فالحالة الاقتصادية لغير المتعلّقات كانت أدنى عنها بين المتعلّقات. ونسبة المشاكل الاقتصادية أكثر ارتفاعاً في المجموعة غير المتعلّقة. ومعظم هؤلاء يعيشون في بيوت صغيرة. وأفراد مثل هذه الأسر كثيرة الانحجاب. وقد يعيش في حجرة النوم الواحدة عدد من الأخوة الذكور والإخوات البنات. وقد يكون معهم أيضاً الأب والأم. وفي مثل هذه الظروف تزيد نسبة العلاقات الجنسية السطحية وغير السطحية بين أفراد الأسرة الواحدة. قالت لي واحدة من العاملات في إحدى شركات الأدوية :

«كنت وأنا طفلة أرقد بين أبي وأخي. ولا أعرف في الليل من منهما الذي يمد يده ويلمس جسدي. وكنت أظهار بالنوم خوفاً من أمي التي كانت ثقيلة النوم لا تدري شيئاً عما يحدث»

وقد وجدت أن نسبة مثل هذه الحوادث الجنسية مع رجال كبار تبلغ

٤٥ بالمئة فى حالة النساء غير المتعلّقات (عصابات وطبيّيات). أما فى حالة الطبيّيات (متعلّقات وغير متعلّقات) فهذه النسبة ٣٥ بالمئة. وهى تزيد عن النسبة التى حصل عليها كينزى فى بحثه، إذ وجد أن هذه النسبة هى ٢٤ بالمئة فقط. وأنى لا أستطيع مقارنة مثل هذه النسب فى مجتمعات شديدة الاختلاف فى الظروف الاجتماعيّة والثقافية كالمجتمع المصرى والمجتمع الأمريكى مثلاً. كما أن هناك فارق زمنى يبلغ عشرين عاماً بين بحث كينزى وهذا البحث. إلا أننى أستطيع أن أقول أن مثل هذه الحوادث الجنسيّة مع رجال كبار تزاد فى المجتمع أو فى الأسرة المكبوتة جنسياً، والتى تتركز فيها التربيّة على إنكار الجنس أو احتقاره. وفى مثل هذا الجو المكبوت قد لا يجد الشخص وسيلة للتخلص من توتره الجنسيّ إلا من خلال طفلة ترقد بجواره على السرير. وهى تنتشر أيضاً فى مجتمعنا المصرى بسبب الوضع الأدنى للفتاة والمرأة فى الأسرة، والأزدواجية الأخلاقية التى تسهل فى مجتمعنا للرجل استغلال المرأة اجتماعياً أو اقتصادياً أو جنسياً. وفى حالة اعتدائه الجنسيّ عليها، فإنه يدرك أنها تخاف الفضيحة أكثر مما يخاف هو، وأنها رغم كونها الضحية إلا أنها هى التى تتحمل أثر الاعتداء لأنها هى التى تفقد عذريّتها أو شرفها أو سمعتها، أما هو فلا يفقد شيئاً.

أن مفهوم الشرف مرتبط فى المجتمع المصرى بما يسمى «العرض» أو عذرية الفتاة قبل أن تتزوج، وإخلاصها لزوجها وطاعته بعد الزواج.

فإذا ما فقدت البنت عذريتها لأي سبب، وإن كان اغتصاباً رغم أنفها، فإنها تصبح فتاة بغير عذرية أو بغير شرف. وأن شرف الأسرة أو عرضها قد أصبح في الأرض، وعلى رجال الأسرة أن يستردوا شرفهم الضائع إما بتتل الفتاة (كما يحدث في الصعيد أحياناً) أو بكتمان الأمر (الذي يسمى الفضيحة) وتزويجها في السر من الرجل الذي أعتدى عليها أو أي رجل آخر يتطوع للزواج منها. ويعتبر هذا الرجل المتطوع شهماً مضحياً بنفسه من أجل انقاذ شرف الأسرة، وكأنه يتطوع للموت في الحرب مثلاً، أو في كارثة، وليس أنه يقبل على الزواج من فتاة.

لكن الزواج من فتاة غير عذراء يعتبر حتى اليوم في مجتمعنا المصري أمر مكروه لا يقبله أي رجل . وإذا أكتشف الرجل أن عروسه غير عذراء ليلة الزفاف، فسرعان ما يطلقها. فتنتشر الفضيحة والعار الذي يلحق بأسرة الفتاة، التي قد تكون بريئة تماماً من أي تجربة جنسية قبل الزواج، وإنما شاء حظها العاثر ألا تنزف ليلة الزفاف، أو قادها حظها العاثر إلى زوج لا يعرف العذراء من غير العذراء، وهذا امر صعب لا يمكن أن يعرفه أحد وكم يجهل هذا الأمر أيضاً معظم الاطباء. ولأن العذرية لا تعرف إلا بالتنزيف الدموي ليلة الزفاف. وكم من عذراوات لا ينزفن قطرة واحدة ليلة الزفاف، بسبب اختلاف أغشية البكارة واختلاف أحجام أعضاء الرجال الجنسية، وبسبب حوادث غير جنسية في حياة البنات، أو حوادث جنسية وقعت في طفولة البنت المبكرة، مثل هذه

الأعتداءات الجنسية من رجال الاسرة ذاتها أو من الغرباء.

ويتضح من جدولى ١٣-١٤ أن نسبة المشاكل الجنسية والعاطفية فى فترة المراهقة للعصابات تبلغ ضعف النسبة للطبيغيات (٤١ بالمئة مقابل ٢٠ بالمئة). وقد كانت معظم هذه المشاكل بسبب الممارسات الجنسية قبل الزواج، والخوف من فقدان العذرية أو فقدانها فعلاً، أو الخوف من الحمل أو التعرض للحمل فعلاً، ومحاولة الاجهاض بشكل أو بآخر. ذكرت لى احدى الطبيغيات أنها فقدت عذريتها، لكنها ذهبت إلى طبيب فأعاد لها العذرية بعملية صغيرة نظير مائة جنيه، ثم تزوجت وهى تعيش سعيدة مع زوجها. احدى العصابات قالت أنها فقدت عذريتها لكنها لم تذهب إلى طبيب وتزوجت وصارحت زوجها بالحقيقة. لكنه فضحها عند أسرتها. ومنذ ذلك الوقت وهى تعاني من العصاب. وقد أستمعت إلى مشاكل متعددة من هذا النوع. وحينما كنت أسأل المرأة أو البنت عن حياتها الجنسية قبل الزواج، كانت تتردد كثيراً فى التصريح وأنى أعتقد أن هذه النسب التى حصلت عليها أقل من الحقيقة، وهى تعتبر نسباً منخفضة إذا قورنت بمثيلاتها فى المجتمعات الأخرى. وبالطبع لابد من مراعاة الفروق فى الظروف الأتماعية والثقافية عند مقارنة مثل هذه النسب فى مجتمعات مختلفة. وتقول الدراسات الجنسية فى بلد مثل بولندة أن ٧٩ بالمئة من الاناث كانت لهن علاقات جنسية قبل الزواج فى سن السادسة عشر أو ماحولها. وفى دراسة أخرى، فقد

وجد أن ٩٠.٥ بالمئة من الاناث كانت لهن علاقات جنسية قبل الزواج. أما في المجتمع الاميركى أو المجتمع السويدي، فإن العلاقات الجنسية قبل الزواج أصبحت هي القاعدة سواء في حالة الذكور أو الاناث. وقد أصبح المجتمع السويدي في السنين الاخيرة يفصل بين الجنس والزواج. وقد أظهرت نتائج البحث أن اغلبية الأسر في المجموعات الأربعة تفضل الذكور عن الاناث (٧٢.٥ بالمئة في المتوسط) لكنها تزيد في الأسر غير المتعلمة عنها في الأسر المتعلمة. وتزيد نسبة النساء والفتيات اللاتي قمن أن يكن ذكوراً في المجموعة المتعلمة عنها في المجموعة غير المتعلمة. ذلك أن التعليم يزيد من وعد الفتاة بحقوقها، فتصبح أكثر ادراكاً لمظاهر التفرقة بينها وبين أخيها. ويزداد قمردها على الوضع الأدنى وتتمنى أن تكون ضمن الجنس الأعلى. ويلعب التعليم دوراً ايضاً في تشجيع الفتاة أو المرأة علي مقاومة الكبت، ويجعلها أكثر جرأة في ممارسة الجنس أو محاولة ارضاء رغبتها الجنسية أو الفكرية. فقد لوحظ ارتفاع نسبة الطموح الفكرى وتفضيل التعليم على الزواج بين المتعلّمات (٨٦.٢ بالمئة).

وبدل ارتفاع نسبة تفضيل التعليم عن الزواج في المجموعات الأربعة ان الطموح الفكرى، والرغبة في التعليم والعمل وتحقيق الذات من خلال العمل المنتج (وليس من خلال الزواج) هو صفة طبيعية في المرأة لا تغير من كونها أنثى. وأنها حين يفرض عليها الزواج كوظيفة وحيدة في الحياة

تشعر بالأحباط والنقص وعدم تحقيق الذات، وتتعرض للمشاكل النفسية وللعصاب. وقد أتضح من نتائج البحث أن المرأة العصابية أكثر طموحاً في الحياة من المرأة الطبيعية. وأنها تشعر بكونها إنسانة لها عقل وجسد أكثر من المرأة الطبيعية التي تقتل طموحها الفكري في الحياة من أجل الزواج أو النجاح في حياتها الزوجية.

وحيث أن المجتمع لا زال ينظر إلى أن الوظيفة الأساسية للمرأة في الحياة هي الزواج ، ولهذا تواجه المرأة الطموحة فكراً العراقيل والصعاب التي تقودها أحياناً إلى العصاب . وتواجه المرأة العصابية المشاكل الجنسية والمشاكل الأسرية أكثر من المرأة الطبيعية، بسبب رغبة المرأة العصابية في الانطلاق والتساوى مع الرجل في الحرية الاجتماعية والشخصية، وهو مطلب طبيعي للمرأة التي تشعر بأنسانيتها وتكامل شخصيتها كجسم وعقل. أما المرأة الطبيعية، فإن قبولها للأمر الواقع وتكيفها معه، يجعلها أكثر استسلاماً للمقيود الجنسية والاجتماعية والأسرية، وبالتالي أقل مواجهة للمشاكل والعصاب من المرأة غير المكبوتة أو العصابية.

وقد لوحظ في نتائج هذه الدراسة ارتفاع نسبة المشاكل داخل الأسرة بين المتعلمات العصابيات (٤٦ بالمئة) عنها بين المتعلمات الطبيعيات (١٣٣ بالمئة). وهذا يشير إلى أن المشاكل الأسرية خلال فترة المراهقة أكثر تأثيراً على نفسية الفتاة من الحرمان العاطفي خلال مرحلة الطفولة.

وقد يكون سبب ذلك أن القيود والكبت والتحذيرات، تزيد على الفتاة في سن المراهقة عنها في مرحلة الطفولة، وأن الطفلة البنت تتمتع بحرية اجتماعية أكثر من الفتاة المراهقة. ولهذا تزيد وطأة المشاكل الأسرية على الفتاة المراهقة. أكثر من الطفلة البنت، وتشعر الفتاة المراهقة بالظلم والأضطهاد وتميز الذكور عليها أكثر من الطفلة البنت.

وقد أتضح من البحث أن ٥٨ بالمئة من العصابات المتعلقات لديهن مشاكل بسبب الدورين داخل البيت وخارجه. وهذه النسبة مرتفعة عن حالة الطبيعيات المتعلقات، حيث لا تشعر بمثل هذه المشكلة إلا ١٦ر٦ بالمئة منهن فقط. وهذا يشير إلى أن من العوامل التي تسبب العصاب للنساء والفتيات مشكلة الجمع بين الدورين داخل البيت وخارجه. وأن مثل هذه المشكلة لا يواجهها الرجل، الذي لا يطلب منه أى عمل أو مسؤوليات داخل البيت. وبأزدياد خروج المرأة إلى التعليم والعمل، فأن أثر هذه المشكلة يزداد، خاصة وأن عقلية الرجل والمجتمع عامة لا تزال ترى أن أعمال البيت هي مسؤولية المرأة وحدها، وأن الرجولة أو الذكورة تقتضى من الرجل إلا يكنس ويمسح ويغسل الصحون، فهذه أعمال لا تليق بكرامة الذكر، وإنما هي تليق فقط بجنس الأنثى الأدنى.

أما ارتفاع نسبة المشاكل بسبب الدورين داخل البيت وخارجه بين النساء غير المتعلقات، فقد يرجع إلى أن هؤلاء النساء لا يستطعن الأستعانة بخادمة أو شعالة نظراً لأنخفاض مستوى حياتهن الأقتصادية.

وبدل الارتفاع هنا فى نسبة من لا يرضى مستوى العمل طموحها، إلى انخفاض العمل فى مجموعة العاملات غير المتعلّقات (كان أغلبه روتينى أو آلي أو يدوى أو أحد أعمال الخدمة المنزلية).

وإذا عرفنا أن مجتمع العمل أو الدراسة لا يساوى فى نظره بين المرأة والرجل، وبالذات فى حالة غير المتعلّقات، لأدركنا أن المرأة غير المتعلّمة أكثر استسلاماً للتفرقة والاضطهاد من المرأة المتعلّمة، وأن المرأة الطبيعية أكثر استسلاماً من المرأة العصابية. ولو أضفنا إلى ذلك أن طموح المرأة الطبيعية فى العمل أو الدراسة أقل ارضاء من المرأة العصابية، فإنه يتضح أن المرأة الطبيعية أكثر خضوعاً لظروفها السيئة من المرأة العصابية وأن هذا الخضوع ليس نوعاً من الصحة النفسية بقدر ما هو نوع من العجز والاستسلام وعدم المقاومة.

وأرتفاع نسبة المشاكل الزوجية فى هذا البحث يوضح أن الزواج يمثل مشكلة كبيرة فى حياة المرأة، وأنها بأنتقالها من حالة كونها غير متزوجة إلى كونها زوجة تصبح معرضة لعدد من المشاكل الاجتماعية والنفسية والجنسية التى تسبب لها العصاب فى أحيان كثيرة.

ويتضح أن المرأة العصابية المتعلّمة أكثر المجموعات قدرة على اختيار زوجها عن حب. وأن أقلهن فى هذا الشأن هى المرأة الطبيعية غير المتعلّمة. ورغم ذلك فإن المرأة الطبيعية غير المتعلّمة هى أقل المجموعات اقداًماً على العلاقات الجنسية خارج الزواج، على حين أن

المرأة العصابية المتعلمة هي أكثرهن اقداماً على هذه العلاقات. ولو أضفنا إلى ذلك أن سيطرة الزوج وعدم تعاونه مع زوجته يزيد في حالة الطبيعيات غير المتعلمات ، نرى أن المرأة العصابية المتعلمة أكثر من غيرها جرأة في البحث عن ارضاء رغباتها، وأكثر رفضاً لواقعها ولسيطرة الرجل، رغم أن حياتها أفضل بالنسبة للمرأة الطبيعية وبالذات غير المتعلمة.

ان نسبة العلاقات الجنسية خارج الزواج في مجموعتي العصابات المتعلمات وغير المتعلمات كانت (٢١٣ بالمئة). وهي أكثر منها لدي مجموعتي الطبيعيات متعلمات وغير متعلمات (٩ بالمئة) بالرغم من أن عدم الاشباع الجنسي في معظم الحالات يكاد يكون متساوياً (٧٧ر٥ بالمئة و٧٠ بالمئة). ومعنى ذلك أن المرأة الطبيعية رغم حرمانها الجنسي أقل جرأة في ممارسة الجنس خارج الزواج من المرأة العصابية. أو أنها أقل جرأة في التصريح بهذه الممارسة لو أنها حدثت.

وقد أتضح من النتائج أن النساء العصابات يفضلن حياتهن عن حياة أمهاتهن بنسبة أكبر من النساء الطبيعيات، وأن النساء المتعلمات يفضلن حياتهن عن حياة أمهاتهن بنسبة أكبر من النساء غير المتعلمات. وهذا يشير إلى أن المرأة العصابية رغم مشاكلها في الحياة أكثر طموحاً ورغبة في التقدم والسير إلى الامام من المرأة الطبيعية.

كما أن التعليم يلعب دوراً في أن يجعل المرأة أكثر اقداماً على

التقدم رغم ما يخلقه التقدم من مشاكل جديدة.
وقد وجد في البحث أن العصابيات المتعلّقات أكثر استخداماً لوسائل منع الحمل من الطبيعيات ، وأن الزوجات غير المتعلّقات أقل استخداماً لوسائل منع الحمل من المتعلّقات.

وتفسير ذلك أن الثقافة تجعل المرأة أكثر وعياً ورغبة في التحكم في جسدها وحملها وولادتها، وأنها لا تحتاج إلى الاطفال من أجل تحقيق ذاتها من خلالهم، كما تحتاج إليهم المرأة غير المثقفة. وحيث أن ازدياد وعي المرأة بحقوقها كإنسانة يعرضها للصراع من أجل تحقيق ذاتها داخل البيت وخارجه ، لهذا فإن المرأة العصابية أكثر ادراكاً بأن كثرة الأطفال تمثل قيداً للمرأة علي وقتها وحريتها، وبالتالي هي تحاول التحرر من هذا القيد عن طريق وسائل منع الحمل . وقد لاحظت أن النساء العصابيات أقل التصاقاً بأطفالهن من النساء الطبيعيات. وقد فسر بعض الأطباء المعالجين مثل هذه الحالات بنقصان في مشاعر الأمومة بسبب المرض النفسي، ولكنني وجدت أن شدة التصاق المرأة الطبيعية بأطفالها وتعلقها الشديد بهم ليس إلا أمومة مريضة متضخمة، تعوض بها عن أنواع الحرمان الأخرى المفروضة عليها من الأسرة والمجتمع.

ومن أهم نتائج البحث هو أن المشاكل الفكرية والاجتماعية كانت أكثر أهمية لدى معظم الحالات من المشاكل الجنسية أو العاطفية.

وقد تختلف هذه النتيجة مع الفكرة الشائعة بأن المرأة أقل طموحاً من

الرجل فى المجالات الفكرية والاجتماعية، وأنها أكثر انشغالا بالأمر العاطفية والزوجية والجنسية. ان المرأة ليست اقل طموحاً من الرجل فى الحياة الفكرية والاجتماعية، ولكنها تكبت طموحها الفكرى من أجل ارضاء الرجل سواء كان زوجاً أو اباً أو ولى أمر. وهى ليست أكثر من الرجل انشغالا بالأمر الجنسية والعاطفية، العكس هو الصحيح. فلقد أتضح لي من الحديث مع أزواج بعض الزوجات العصائيات والطبيعيات، أن الزوج أكثر حساسية لكفاءته الجنسية ورغبته فى اثبات هذه الكفاءة بشتى الطرق. أما المرأة فهى لا تهتم كثيراً بدورها الجنسى أو عدم اشباعها الجنسى، وتحس وطأة المشاكل الأخرى أكثر. وتفسر ذلك أن المجتمع يساعد الرجل أكثر من المرأة على اشباع طموحه الفكرى والاجتماعى، فيقل انشغاله به عن المرأة التى تشعر بأن المجتمع يحرمها من اشباع طموحها الفكرى والاجتماعى أكثر مما يحرمها من اشباع طموحها العاطفى والجنسى. ان المرأة فى نظر المجتمع أداة جنس وحب وعاطفة أكثر منها أداة فكرية للعمل والانتاج فى المجتمع.

ومن جدول رقم (٣٣) نجد أن القلق أكثر أنواع العصاب انتشاراً بين المتعلمات. وهذا معناه أن التعليم يجعل المرأة أكثر وعياً بوجودها، ومن ثم أكثر وعياً بالصراع. فالمرأة التى لا تحس وجودها، وقيمة هذا الوجود، لا تحس بالصراع من أجل اثبات وجودها أو تحقيق ذاتها. وبالتالي لا تعرف القلق فى حياتها. فالقلق ليس إلا قلقاً على الوجود

كما عبر عن ذلك رولوماى فى تعريفه للقلق النفسى كنوع من أنواع العصاب.

ان القلق يحتاج إلى درجة معينة من الوعى حتى يحدث ، والقلق ليس إلا رغبة فى الحصول على المزيد، ورغبة فى حياة أفضل وطموح أكبر، وتحقيق نوع من التكامل والرضا عن النفس وتحقيق الذات. أما الخوف فهو شعور بالضعف والرغبة فى الانسحاب، وعدم القدرة على مواجهة التحديات والصراعات، والهستيريا هى ذلك العجز عن مواجهة الصعاب الذى يأخذ شكل العجز العضوى فى أحد أعضاء الجسم. القلق هو مرض النساء القويات الصامدات اللاتى يواجهن التحديات، والهستيريا والخوف هما مرض الضعيفات العاجزات عن المواجهة. ولهذا فان علاج القلق ليس هو (فى رأى) بأزالته عن طريق المهدئات والمسكنات، ولكن علاج القلق هو تسليح المرأة بقوة، وامكانيات أكثر للأنتصار على التحديات وتحقيق ذاتها كإنسانة متكاملة. ومن هنا أهمية فهم المعالج أو الطبيب النفسى لمشاكل المرأة الاجتماعية، وأهمية أيمانه بحق المرأة فى الحياة كإنسانة متكاملة العقل والجسد فى مجتمع يساوى بين جميع أفراد.

اما الجدول الذى يشير إلى نسب الاعتداءات والحوادث الجنسية فى حياة البنات الصغيرات، فربما يكون أقل من الحقيقة، إذ لم يكن من السهل لكل امرأة أو فتاة أن تعترف لى بكل ماوقع لها فى طفولتها،

رغم جهودى فى هذا السبيل. كما أن ذاكرة بعض الأطفال تنسى مثل هذه الحوادث إذا حدثت فى سن مبكرة جداً أو بسبب أن ذاكرة الانسان تنسى فى معظم الاحيان ماتريد أن تنساه.

أن هذا النسيان لا يعنى أن الحادث ضاع فى الزمن، ولكن معناه أن الحادث أختفى فى سراديب العقل الباطن وقرى فى الظلام، وقد يطفو على السطح حينما تساعد الظروف على اظهاره.

وقد يندهش بعض الناس لحدوث مثل هذه الحوادث الجنسية مع البنات الأطفال بواسطة الرجال الكبار الغريباء أو من أفراد الأسرة نفسها. وهذه الدهشة تدل على أن هؤلاء الناس ينسون حقائق كثيرة، ويتجاهلون تناقضات عديدة يعيشها الرجال الكبار فى المجتمع. لقد وجدت أن معظم هذه الاعتداءات على الاطفال البنات تحدث فى الأسر المكبوتة جنسياً، ولذلك لا يكون أمام الأخ الشاب المراهق إلا أخته الصغيرة، خاصة إذا كانت تشاركه سريراً واحداً كما يحدث فى الأسر ذات الموارد المحدودة. أعترفت لى احدى النساء أن أخاها الذى يكبرها بأربعة أعوام أتصل بها وهى طفلة ولم يكتف بها بل أتصل بأخواته الثلاث الأخريات الأصغر منها، مع أنه كان شاباً طبيعياً ومتفوقاً فى دراسته، ولم يشك فيه أحد من الأسرة. وإذا كان الأخ المحروم يعجز عن التحكم فى نفسه مع أخته الطفلة، فما بال الشاب الغريب سواء كان جاراً أو بواباً أو خادماً أو مدرساً، ولكن من يدفع ثمن هذا ؟ انها البنت المسكينة وحدها، التى

تفاجأ فى ليلة الزفاف أنها ليست عذراء. وتحدث الكارثة التى تعصف بمستقبلها. أو إذا مرت ليلة الزفاف بسلام، فأن تجربتها السابقة والتى غلفتها بالاحساس بالذنب والخوف والكبت، تقودها إلى البرود الجنسى وعدم القدرة على الاشباع.

ان الجدول الذى يشير إلى نسبة عدم الاشباع الجنسى فى المجموعات الأربعة من النساء قد لا يعبر عن كل الحقيقة، لأن المرأة المصرية بطبيعتها تخجل من الحديث فى الجنس، وهى إذا لم تخجل، فهى تجهل معنى الاشباع ولا تعرف ماذا يعنى الأورجازم. وهى إذا عرفت نظرياً لم تعرفه عملياً. وهى إذا عرفت عملياً فهذا أمر نادر يتوقف على قدرتها على تحطيم حواجز الكبت والخوف النفسية داخلها. ويتوقف أيضاً على أن يكون زوجها قادراً على فهمها ومتعاوناً معها، إلى أبعد حد، وليس انانياً، وأغلبية الرجال غير ذلك، بحكم التربية القائمة على تمييز الذكور عن الاناث .

ان الجدول الذى يشير إلى نسبة الأزواج الذين يتعاونون مع زوجاتهم فى أعمال البيت والأطفال، يمكن أن يعطينا فكرة عامة عن أن أغلبية الأزواج لا يتعاونون مع زوجاتهم. وهناك بحث محلى آخر أوضح أن غالبية الأزواج فى الأسر المصرية (فى الريف والحضر) لا يسهمون مطلقاً فى الأعمال المنزلية أو رعاية الأطفال (فيما عدا الذهاب بهم إلى الطبيب) وذلك فيما يقرب من ٨٥ بالمئة . هذا برغم أن معظم الزوجات الريفيات

يشاركن أزواجهن العمل بالحقول أو يعملن بالتجارة ، وأن نسبة غير قليلة من الزوجات فى الحضر، يعملن خارج البيت ويشاركن فى نفقات الاسرة مع الزوج.

ان أنانية الأزواج ليست إلا نتيجة لتلك التربية التى تقوم فى معظم الأسر على التفرقة فى المعاملة بين الولد والبنت. وقد رأينا فى جداول البحث كيف أن أغلبية الأسر المصرية لا تزال تفضل الذكور عن البنات، ومثل هذه التربية تخلق رجالا ساديين أنانيين، ونساء ماسوشيات سلبيات. كما ان هذه التربية تفسد العلاقات بين الرجال والنساء، وبالذات العلاقات الزوجية، وتسبب مشاكل متعددة وخاصة للزوجات العاملات، بسبب الصراع الذى تعيشه المرأة العاملة سواء فى عملها خارج البيت أو فى علاقتها مع زوجها داخل البيت، او فى علاقتها مع نفسها وصراعها بين صفات الانوثة التقليدية من طاعة وخضوع، وصفات المرأة العاملة المستقلة الشخصية والرأى. ان الدورين اللذين تقوم بهما المرأة العاملة خارج البيت وداخله يمثلان لها عبئا جسدياً ونفسياً شديداً، وتجهد المرأة العاملة نفسها أحياناً من شدة الارهاق، ومن شدة الصراع بين الدورين، مطالبة بأن تختار إما عملها وإما حياتها الزوجية. أما الرجل فهو لا يواجه بمثل هذه المشكلة ابداً. لأن المجتمع بجميع قوانينه ونظمه قد جعل العمل للرجل حقاً وواجباً لانتقاش فيه. وكذلك جعل الزواج للرجل البيت

الذي تخدمه فيه الزوجة وتطيعه وتلبى رغباته، وإلا أستخدم ضدها قانون الزواج، فطلقها أو عاقبها.

وفي بحث محلى وجد أن الاختيار بين البيت والمهنة تمثل مشكلة انفعالية حادة عند كثير من النساء، فتسبب لهن حيرة دائمة، وصراعاً نفسياً موصولاً. أما الرجل فأن الزواج لا يعطله عن عمله. ذلك أن الزواج عنده حادث عارض. ووصل إلى نتائج مشابهة عدد من الباحثين أمثال Siegel وكول Cole وبلاد حيث وجدوا أن النساء العاملات يظهر عليهن أعراض نفسية أكثر حدة مما يظهر على العمال الرجال الذين يشاركونهم العمل نفسه والظروف نفسها.

وسوف يظل الزواج مشكلة في حياة النساء العاملات إلي أن تحدث المساواة الكاملة بين الجنسين داخل الزواج وخارجه.

وبسبب التفرقة في المعاملة بين البنات والأولاد. واعداد البنت للزواج والخدمة بالبيت أكثر من اعدادها للعمل المنتج في المجتمع، وبث صفات الأنوثة الخاطئة في نفس البنت منذ صغرها من حيث الطاعة والهدوء والاستكانة، وزجرها أو اتهامها بالاسترجال ان أبدت شيئاً من قوة الشخصية أو الاستقلال في الرأي. كل ذلك يفسد العلاقة بين الأزواج والزوجات وتصبح الزوجة المثالية هي الزوجة المطيعة المستكينة، وليست الزوجة الذكية صاحبة الرأي. ان ذكاء المرأة أو استقلال رأيها يعتبر عيباً لا ميزة، ويفسر تفسيراً سيئاً على أنه نوع من العناد أو العصاب أو

الشذوذ أو التشبيه بالرجال. ان معظم الزوجات الذكيات المثقفات اللاتي تحدثن معهن كانت إحدى مشاكلهن الأساسية أن أزواجهن يكرهون صفة الذكاء فيهن ويقاومونها بشتى الطرق. ويفضلون عليهن النساء الغيبات لمجرد أنهن يطيعنهم طاعة عمياء.

وفى بحث محلى، أتضح أن أكثر صفات الزوجة تفضيلاً عند الأزواج (فى المجموعة الريفية) هى قدرة الزوجة على قيامها بواجباتها كربة بيت ومديرة للشؤون المنزلية. وأن تكون مطيعة. ومتعاونة . وبالنسبة للأزواج (فى المجموعة الحضرية) فضلوا من صفات الزوجة الطاعة أولاً، ثم القدرة على الصبر والصمود أمام الأزمات، والمشاركة فى تقدير مايتعرض له الزوج من ظروف، وحسن الخلق، وحسن التدبير فى الشؤون. أما الصفات التى يكرهها الزوج فى زوجته (فى المجموعة الريفية) فهى صلابة رأيها أو عنادها، ثم عدم حب الزوجة لأهل الزوج، والتدخل فى شؤونه الخاصة، والغيرة من الزوجات الأخريات. وبالنسبة للأزواج (فى المجموعة الحضرية) فالزوج يكره فى زوجته الغضب وشدة الحساسية أولاً، ثم صلابة الرأي والعناد، وعدم الاهتمام بمظهرها والغيرة على الزوج، وعدم حبها لأهلها، وأخيراً رغبة الزوج فى السيطرة.

أما الزوجات فقد وجدت الباحثة أن الصفات التى تكرهها الزوجة فى زوجها (فى المجموعة الريفية) هى أولاً سرعة غضب الزوج، والخضوع لأهلها، وأنانيته الشديدة وإهانة الزوجة وإساءة معاملتها ، والتحكم فى

الزوجة واستبداد الزوج. وفي المجموعة الحضرية وجدت الباحثة تشابهاً في الصفات غير المستحبة إلى جانب صفات أخرى لم تشر إليها الزوجات الريفيات. وكان من أولى الصفات غير المفضلة عندهن هي سرعة الغضب بالنسبة للزوج، ونرفزته الشديدة على أبسط الأسباب، وعدم معاملته لها كزوجة. ورأت بعض الزوجات أن أخلاق أزواجهن وتصرفاتهم كلها معيبة.

وأوضحت الدراسة أن بعض الأزواج في المجموعتين حاولوا القيام بمحاولة لتغيير هذه الجوانب في طباع زوجاتهم حتى يتم التوافق بينهما بالصورة التي يرتضونها. إلا أن نسبة الأزواج الذين فشلوا في تغيير زوجاتهم (في المجموعتين) أكبر من نسبة الأزواج الذين أحدثوا هذا التغيير. وهذا يدل في رأيي على أن مقاومة الزوجة (سواء في الريف أو المدينة) لسلطة الزوج ليست هينة، وأن الصراع بين الزوج ووزوجته لا ينتهي دائماً بخضوع الزوجة الكامل. وإنما هو خضوع جزئي أو ظاهري خوفاً من الطلاق أو المشاكل مع الزوج، وتظل المرأة في أعماقها محتفظة بصفاتنا الطبيعية غير المستحبة من الزوج. وأهمها تلك الصفة التي يطلق عليها الزوج أسم صلابة رأى الزوجة أو عنادها. إن إفصاح الزوجة عن رأيها يعتبر في نظر الزوج نوعاً من العناد، لأن الزوج يرى (عرفاً وقانوناً) أن الزوجة واجبها «الطاعة» فقط، وليس لها أن تناقش أو أن يكون لها رأى. فإذا كان لها رأى، فهذا ليس ميزة فيها كأنسانة تفكر

وتعتز برأيها، وإنما هو عيب وصفة غير مستحبة توضع تحت عنوان العناد وصلابة الرأي. ويحاول الزوج أن يصلح زوجته، وذلك بأن يحولها من زوجة لها رأي إلى زوجة بلا رأي. ورأي زوجها هو رأيها. فأن فشل في اصلاحها فالويل لها، الطلاق أو الزواج بأخرى، أو السب أو الضرب. وفي حالة الأزواج المثقفين أو المهذبين، فإنه الإهمال أو الهجران، والتسلل إلى عشيقة أو امرأة أخرى تعترف له أنها تطيعه طاعة عمياء، لان رأيه صائب مائة في المائة، ولانه لا يخطئ أبداً، ولأنه ليس بشراً ولكن آله.

وكم تصبح المشكلة حادة في حياة المرأة العاملة خاصة، إذا كانت ذكية ومثقفة، لأنها تضطر في كثير من الأحيان أن تتظاهر بالغباء من أجل الحفاظ على حياتها الزوجية، أو تضطر إلي تنفيذ رأي زوجها المخاطئ لانه مصر عليه ورافض لرأيها. وهذا بطبيعة الحال يؤدي إلى اصابة النساء المتزوجات بالعصاب أكثر من النساء غير المتزوجات، والنساء الذكيات المثقفات أكثر من النساء غير المثقفات.

على أن المرأة التي حرمت من التعليم أو حرمت من العمل لها أيضاً مشاكلها التي تسبب لها العصاب. أن الانقطاع عن التعليم أو العمل يسبب للمرأة، وخاصة الذكية، عصاباً وألماً نفسياً بسبب احساسها بضياع مستقبلها، وعدم قدرتها على تحقيق ذاتها كأنسانة لها طموح فكري في الحياة. وتظهر هذه المشكلة بوضوح في الطبقات المستريحة اقتصادياً حين تشعر المرأة غير العاملة بالفراغ القاتل وضياع حياتها هباء، وأن

الزواج لا يحقق ذاتها كإنسانية. فالرجل لا يحقق ذاته من خلال الزواج ، وإنما من خلال العمل المنتج في المجتمع. وتبين من بعض البحوث عن المرأة العاملة أن المرأة تخرج إلى العمل تحت الحاح الضغط الانفعالي لشعورها بالوحدة أكثر من خروجها تحت ضغط الحاجة الاقتصادية. وهذا بالطبع في غير الطبقات الكادحة والفقيرة، التي تمثل الحاجة الاقتصادية السبب الرئيسي لخروج نساؤها للعمل. بل إلى خروج الرجال للعمل أيضاً. ان الحاجة الاقتصادية هي التي تدفع ملايين الرجال والنساء من الطبقات الكادحة والفقيرة إلى العمل. أما في الطبقات المستريحة نسبياً، فإن الانسان (امرأة ورجل) يشعر بحاجة إلى العمل من أجل تحقيق ذاته كإنسان، ولكن العمل هنا لا بد أن يكون من ذلك النوع الذي يحبه الانسان ويختاره، وليس العمل الذي يفرض عليه ويشعر نحوه بعدم الرضا. وهذا أمر لا يتحقق في العالم لمعظم الناس (نساء ورجال) بسبب النظم الاجتماعية القائمة على التنافس والاستغلال أكثر من التعاون والمساواة.

وقد أتضح من نتائج البحث أن عدم الاشباع الفكري في العمل المنتج بالمجتمع الكبير، يمثل مشكلة نفسية في حياة المرأة المصرية أكثر حدة من عدم الاشباع الجنسي.

وهذا أمر طبيعي في حياة الإنسان (أمرأة أو رجل). لأن الانسان حيوان مفكر، والمرأة الذكية المثقفة تحتاج الاشباع الفكري من خلال

العمل المنتج أكثر من غيرها التى لم تحظ بالثقافة والوعى والذكاء.

ان الكبت الفكرى يؤدى إلى كبت جنسى، والبنات التى تربي على كبت أفكارها وآرائها. تتعود أيضاً على أن تكبت رغباتها ومشاعرها. والكبت الفكرى طوال سنوات الطفولة والمراهقة يؤدى إلى عقم فكرى فى الشباب والكهولة. وكذلك الكبت الجنسى طوال سنوات الطفولة والشباب يقود إلى عقم جنسى (ومعناه برود جنسى) فى سن النضوج والكهولة.

ان انتشار البرود الجنسى عند الزوجات أحد نتائج الكبت الفكرى والجنسى المفروض على البنات منذ الولادة. والكبت الجنسى فى مجتمعنا كان يمكن أن يكون أقل خطراً على صحة البنات والنساء النفسية لو أن الثقافة والأعلام والفنون فى مجتمعنا تخضع للقيم الاخلاقية نفسها التى تتحكم فى تربية البنات. لكن هذا لا يحدث فى مجتمعنا. لأن الذى يتحكم فى وسائل الثقافة والفنون والأعلام عامة ليست هى القيم الأخلاقية القائمة على الكبت الجنسى، وإنما هى القيم التجارية القائمة على الربح من وراء عرض أفلام الجنس والرقصات العارية وأجساد النساء وتأوهات المطربين والمطربات ليل نهار فى الراديو والتلفزيون، وعرض الافخاذ والنهود العارية فى صفحات المجلات.

ويصبح على البنت المصرية أن تحل وحدها المعادلة الصعبة. عليها أن تتشبع بهذه الافلام والصور والأصوات الصارخة بالجنس والشبق، وعليها فى الوقت نفسه إلا تتأثر بها . وان تأثرت (وهذا ما يحدث) فعليها أن

تخفى هذا التأثير ، وأن تتظاهر بشئ آخر. أما أن يتحول هذا التأثير إلى فعل (وهذا أمر طبيعي عند الانسان السليم نفسياً وجسدياً) فهذه هى الطامة الكبرى التى تقع فى حياة البنت، سواء انكشفت أو لم تنكشف ان انكشافها يقود إلى فضيحة علنية يضيع فيها مستقبل البنت أو حياتها، وأن عدم انكشافها يقود إلى احساس طاغى بالخوف أو الذنب يلزمها طوال حياتها، ويسبب لها البرود الجنسى أو العصاب أو ماشابهه. وفى جميع الأحوال لا يؤدي الكبت والتناقضات التى يفرضها المجتمع على البنت إلا إلى التعاسة العامة التى تشعر بها النساء والفتيات من جميع الاعمار، المتزوجات منهن وغير المتزوجات. وقد تنكر بعض النساء هذ التعاسة، ويتوهمن أنهن سعيدات، لكن المرأة منهن لا تصمد طويلا أمام الأسئلة التى تجعلها تعيد التفكير فى حياتها وفى سعادتها السطحية. احدى هؤلاء أقنعتنى أول الامر انها سعيدة وراضية بزوجها وأطفالها وأسررتها، ولا ينقصها شئ. وحينما بدأت أسألها عن طفولتها تلعثمت بعض الشئ. وحينما سألتها عن طموحها فى الحياة قالت أنها دفنت هذا الطموح فى اليوم الذى تركت فيه الدراسة لتتزوج. وحينما سألتها عن حياتها الجنسية مع زوجها وهل تحصل على الاشباع، قالت أنها لا تعرف شيئاً عن هذا، ولا تمارس الجنس إلا لترضى زوجها. أما هى فيكفيها سعادة أن زوجها لا يتذمر ولا يشخط كالازواج الآخرين، ولا يدخن ولا يعريد مع النساء، وهو رجل مستقيم لا يعرف

الطريق إلا من مكتبه إلى بيته، وهى تعتبر نفسها زوجة محظوظة بالنسبة لغيرها من الزوجات اللاتى يتعرضن للشتم أو الضرب أو الطلاق.

هذه السعادة فى علم النفس تشبه سعادة العبيد. فالعبد يشعر بالسعادة فى اليوم الذى لا يضربه فيه سيده. والخادم يشعر بالسعادة فى اليوم الذى لا يشخط فيه سيده. والزوجة تشعر بالسعادة لأن زوجها لا يشتتمها ولا يضربها، ولا يعرِد مع النساء، ولا يطلقها. وهذا كله لا يمكن أن يسمى سعادة بالمعنى الحقيقى أو بالمعنى الانسانى. سعادة الانسان لا يمكن أن تكون سعادة سلبية، لا يمكن أن يسعد الانسان لأنه لا يتعرض لأذى معين. ولكن الانسان يسعد لأنه يفعل شيئاً. وهذه هى السعادة الايجابية. الانسان يسعد لأنه يفكر ويعمل وينتج.

بعض الأزواج انزعجوا حينما بدأت عيون زوجاتهم تنفتح ، أو أنها كانت مفتوحة من قبل، لكنهن كن يعجزن عن اظهار مايعتمل داخلهن خشية الطلاق أو البهذلة (كما عبرت احداهن). وقال لى أحد الأزواج فى انزعاج : لقد بدأت زوجتى تشعر بالقلق وبدأت تشعر بالحنين إلى استكمال دراستها التى قطعتها حين تزوجت. لقد كانت هادئة وراضية بحياتها، ولكنها الآن لم تعد راضية. وسألنى بشئ من الغضب قائلاً : هل تعتقدين يادكتورة أن تحويل الزوجة الراضية إلى زوجة غير راضية أمر مفيد صحياً لها ؟ وقلت له : نعم بالطبع ، وهذه إحدى فوائد المعرفة

والوعى والثقافة. ان المعرفة هي اثاره عدم الرضا فى نفس الإنسان من أجل أن يعمل علي تغيير حياته إلى الأفضل. ولولا عدم الرضا لما تقدم الإنسان ولكانت حياته كحياة الحيوانات. ان الحيوانات لا تشعر بعدم الرضا، ولا تشعر بالقلق، ولذلك هي لا تغير حياتها إلى الأفضل، وحياة الحيوانات اليوم هي حياة الحيوانات منذ القدم، اما الانسان فليس كذلك. وكان هذا الزوج يعارض فى أن تمود زوجته لأستكمال دراستها الجامعية، رغم أن ظروفها من جميع النواحي كانت تساعد على استكمال هذه الدراسة. ولم أستطع أن أفهم السبب الحقيقي أول الأمر، لكن الزوجة قالت لى أن زوجها لم يحصل على شهادة جامعية، وأنه يعمل بشهادة متوسطة، لكن دخله الشهري مرتفع بسبب امتلاكه لعزبة باحدى القرى. وقد أدركت أنه يعارض فى استكمالها التعليم خوفاً من أن تحصل على شهادة لم يحصل عليها هو، ولم أعرف حتى اليوم ماذا حدث بعد ذلك، هل رضخت الزوجة وعادت راضية بحياتها، وتنازلت عن الأمل الذى لاح لها ، أم أن قلقها كان شديداً، واصرارها كان شديداً، ففرضت رأيها وواصلت دراستها.

وقد لاحظت أن الأزواج ينزعجون حينما يزيد وعى زوجاتهم، وقد يقبل بعضهم زيادة هذا الوعى بشرط الا يشتمل هذا الوعى على أى وعى جنسى. وقال لى أحدهم ان الوعى الجنسى خطر للمرأة، وان علم الجنس علم غريب علي مجتمعنا الشرقى. وأنه أحد العلوم المستوردة من

الغرب. وقلت لهذا الزوج ان ابن سينا كان من أوائل العلماء في تاريخ البشرية ان لم يكن الأول الذي بدأ علم الجنس وأعترف به. ان رسالة ابن سينا في العشق تعتبر أول رسالة علمية منحت الحب والجنس دوراً ايجابياً . ففي هذه الرسالة - تغلب ابن سينا لأول مرة على الهوة التي تفصل نشاط النفس الحيوانية عن نشاط النفس الناطقة في الانسان. وبذلك استطاع أن يصل بين طرفي الحب الطبيعي (الجنس) والروحي، وأعطى للجنس دوراً. وجعل حب الجمال الظاهري، أي الحب الجنسي، عوناً على الاقتراب من الله. وابن سينا في هذه الرسالة يطبق مبدأه العام في النفس وأجزائها علي مشكلة الحب والجنس. وكتب ابن سينا منذ حوالي ألف عام في كتابه الضخم «القانون في الطب» مؤيداً هذا المعنى. ورد الزوج بشئ من الغضب : أنا لا أعرف عن ابن سينا شيئاً أو تاريخ الطب في العالم، ولكني رجل مسلم، والأسلام يتعارض مع تفتيح عيون الزوجات على الجنس. فالمرأة لم تخلق للأستمتاع الجنسي، ولكنها خلقت لخدمة زوجها والتفاني في خدمة أطفالها. وإذا كانت الزوجات يطالبن باللذة الجنسية في الغرب، فهذا قد يتمشى مع أخلاقهم وأديانهم، ولكنه لا يتمشى مع أخلاقنا وإسلامنا.

وقلت لهذا الزوج ان الأسلام لا يتعارض مع الثقافة الجنسية، بل يدعو إلى الثقافة والعلم والمعرفة في جميع نواحي الحياة، ومنها الحياة الجنسية.

وان الأسلام لا يوافق على تزويج الفتاة لرجل لا ترغبه، ويعارض الزواج بالأكراه.

وان الأسلام لا يوافق على أن تستمر الزوجة فى الحياة مع زوجها إذا كانت تكرهه، أو إذا لم يكن يرضيها.

وان الأسلام يعتبر العلاقة الجنسية بين الزوج وزوجته ليس هدفها الانجاب فقط، وإنما ارضاء رغبة كل من الرجل والمرأة، والاستمتاع بالحق الطبيعى فى الحياة، ولهذا لا يتعارض الأسلام مع فكرة تنظيم الاسرة وتحديد النسل.

وان بعض فقرات من القرآن والأحاديث النبوية تدرس لبعض نواحي الجنس. وهناك نصوص فى الفقه الاسلامى تذكر الاوضاع أثناء الممارسة الجنسية. وهناك ارشادات لكيفية تفادي الحمل أثناء الاتصال الجنسي. وفقرات تشير إلى أن كثرة العيال تسبب الفقر والعجز.

وبعض الناس يعتقدون أن ختان البنت جاء مع الاسلام. وهذا اعتقاد خاطئ، لأن ختان البنات كان موجوداً قبل ظهور الدين الاسلامى. وحينما ظهر النبى محمد وجد أن هذه العادة موجودة عند العرب، وأدرك بذكائه الفطرى ضرر هذه العادة على صحة النساء، وسلبها لجزء من قدرة المرأة على الشعور باللذة الجنسية. وجاء فى الحديث أن النبى محمد قال لأم عطية الخاتنة: «إذا خففت، فأشمى ولا تنهكى، فإنه أضوأ للوجه وأحظي لها عند الزوج».

يقال : أشمت الخافضة البظر، أى اخذت منه قليلا جداً. وقوله لا تنهكى، أى لا تأخذى من البظر كثيراً . شبه القطع اليسير بأشمام الرائحة، والنهك بالمبالغة فيه. أى أقطعى شيئاً صغيراً ولا تستأصلها. ومن ثم يجب أن يوصى الخافضات بأن يراعين ذلك لدى الخفاضة فلا يبالغن فى قطع البظر، فإن انتهاكه - أى استئصاله - يحرم المرأة لذة الجماع، فلا تحظى عند زوجها.

ومعنى هذا الكلام أن ختان البنات ليست عادة إسلامية.. ولا علاقة لها بالدين. فهي عرفت فى مجتمعات متباينة الأديان، وعرفت فى الشرق وفى الغرب، فى مجتمعات مسيحية وفى مجتمعات اسلامية، وفى مجتمعات لادينية . وعرفت فى أوروبا فى القرن التاسع عشر. وبراون وعرفت فى مصر والسودان والصومال والحبشة وكينيا وتانجانيقا وغانا وغينيا ونيجيريا، وعرفت فى بلاد آسيوية، وفى سيلان واندونيسيا. وعرفت أيضاً فى أجزاء من اميركا الجنوبية، وعرفت أيضاً فى عهود ايضا قديمة عند بعض قدماء المصريين. وقد قرأت أن هيروديت ذكر شيئاً عن ختان البنات ٧٠٠ سنة قبل الميلاد.

وقد بحثت عن دراسة اجتماعية علمية تلقى ضوءاً على سر ممارسة المجتمع لمثل هذه العملية الوحشية على الاناث فلم أجد. لكنى وجدت فى التاريخ عمليات أشد وحشية من الختان، وهى وأد البنات وهن أحياء وأيضاً عملية لباس المرأة حزام العفة الحديدى. وعملية غلق أعضاء المرأة

الجنسية بالدبابيس والاقفال الحديدية، وهى عملية شديدة البدائية لكنها تشبه إلى حد كبير الطريقة السودانية فى ختان البنات. إذ تقطع كل أعضاء البنت الجنسية (البظر والشفرتين الداخليتين والخارجيتين) ثم يغلق الجرح بقطعة من أمعاء الشاة، ولا تترك إلا فتحة صغيرة جداً (تسمح بدخول طرف الأصبع فقط) من أجل خروج البول ودم الحيض. ويعاد فتح هذا الجرح حين تتزوج الفتاة، ليمتسع دخول عضو الزوج . ثم يعاد فتحه حين تلد الزوجة طفلها . ثم يعاد اغلقه بعد الولادة، او بعد الطلاق من الزوج، لتعود المرأة عذراء مرة أخرى، ويحكم اغلقها بالخياطة حتى لا يمكن لرجل أن يتصل بها إلا الرجل الذى سيتزوجها. وحينئذ يعاد فتح الجرح مرة أخرى، وهكذا.

والسؤال الذى يخطر بالذهن هنا هو : لماذا فعل المجتمع مثل هذه العمليات الوحشية ضد المرأة ؟ والأجابة على هذا السؤال هى أن المجتمع أدرك منذ قديم الزمان أن الرغبة الجنسية عند المرأة قوية جداً بطبيعتها. وأنها لو تركت هكذا بغير تدخل من جانب المجتمع، فسوف ترفض النساء القيود الأخلاقية والاجتماعية والقانونية والدينية التى تفرض على المرأة زوجاً واحداً. ان نشوء المجتمع الأبوى القائم على الأسرة الأبوية (القائمة على فرض زوج واحد على المرأة وتعدد الزوجات للرجل) ما كان ليقوم أو يستمر، إلا بفرض قيود وعمليات صارمة تقلل من طبيعة المرأة الجنسية، حتى يمكنها الخضوع لزوجها الواحد. وهذا هو السبب فى عدا

المجتمع الشديد لرغبة المرأة الجنسية ومقاومته المستمرة لها بأبشع الوسائل. أن المجتمع يدرك أن أى تهاون من جانبه فى هذا المجال، معناه خروج المرأة من قفص الزواج الاحادى الحديدى، والاتصال برجل آخر. ومعنى ذلك اختلاط النسب، واختلاط أطفال الزوج الشرعى بأطفال رجال غرباء. ومعنى ذلك انهيار الأسرة الأبوية القائمة على أسم الأب فقط.

وإذا عرفنا من التاريخ أن الأب لم يكن حريصاً على معرفة اطفاله إلا من أجل أن يورثهم أرضه، فأنا ندرك أن السبب الرئيسى لنشوء الاسر الأبوية كان سبباً اقتصادياً. ومن أجل أن يحمي المجتمع مصالحه الاقتصادية، فإنه يدعمها بالقيم الاخلاقية والدينية والقانونية.

وعلى هذا فان دراسة التاريخ توضح لنا أن حزام العفة الحديدي وعملية الختان ومثيلاتها من العمليات الوحشية ضد رغبة المرأة الجنسية لم تنشأ إلا لأسباب اقتصادية.

هل ان استمرار مثل هذه العمليات فى مجتمعنا حتى اليوم، إنما هو أيضاً لأسباب اقتصادية. ان آلاف الدايات والحكيما والاطباء الذين يشرون على حساب عملية ختان البنات، لا يمكن إلا أن يقاوموا أى محاولة للقضاء على مثل هذه العادات الضارة.

وفى المجتمع السودانى جيش هائل من الدايات يعشن على هذه العمليات المتكررة، من فتح أعضاء المرأة واغلاقها فى مناسبات متعددة ما بين زواج وولادة وطلاق وزواج مرة أخرى.

ان الأسباب الاقتصادية، ومن ثم الأسباب السياسية، هي التي وراء نشوء واستمرار عادات مثل ختان البنات. وهذا التوضيح هام لان كثيراً من الناس يخلطون بين السياسة والدين. وكثير من الناس يعمدون إلى اخفاء الأسباب السياسية والاقتصادية بأسباب دينية، حتى يصرفوا الأذهان عن الأسباب الحقيقية. وكثير من الناس يقولون أن الإسلام هو السبب وراء ختان البنات في مصر، وهو السبب وراء الوضع الأدنى للمرأة في البلاد العربية.

لكنني أرى أن سبب التخلف في مجتمعاتنا العربية ليس هو الدين الاسلامي، وإنما هو السلطة السياسية خارج مجتمعاتنا (الاستعمار الاجنبي) أو السلطة السياسية في الداخل (الحكومات العربية الرجعية المستغلة) أو كلاهما معاً. ومحاولة تفسير الدين تفسيراً خاطئاً واستخدامه ليقدم اغراض القهر والخوف والاستغلال.

ان الدين بمعناه العام هو الصدق والمساواة والعدالة والحب والصحة لجميع الناس رجالاً ونساء. ولا يمكن أن يكون هناك دين يدعو إلى المرض أو تشويه أجساد البنات وقطع بظورهن.

وإذا كان الدين من عند الله، فكيف يمكن للدين أن يأمر بقطع عضو من الجسم الذي خلقه الله ؟ المفروض أن الله لا يخلق الأعضاء اعتباطاً . ولا يمكن أن الله يخلق البظر في جسد النساء، ثم ينزل على الناس ديناً يأمرهم بقطع هذا البظر. فهذا تناقض خطير لا يقع فيه الله. وإذا كان قد

خلق البظر كعضو حساس للجنس وظيفته الأساسية والوحيدة هي الأحساس بلذة الجنس، فمعنى ذلك أن الله قد أباح للنساء اللذة الجنسية وانها جزء من الصحة النفسية . وعلى هذا فان المرأة التي تحرم من اللذة الجنسية تحرم من جزء من الصحة النفسية. ولا يمكن أن تكتمل صحة المرأة النفسية بدون اكتمال لذتها الجنسية.

ان عدداً كبيراً من الامهات والآباء المتعلمين لا يزالون يفرعون من ترك البظر في أجساد بناتهم. وقد قال لى بعضهم ان الختان يحمى البنت من الأتزلاق والزلل. وهذا منطق خاطئ ، لأن الذى يحمى البنت أو الولد من الزلل ليس هو بتر الأعضاء الجنسية، وانما هو الوعي والمعرفة التى تساعد البنت على تحديد هدف ومعنى فى حياتها. والسعي لتحقيق هذا الهدف وهذا المعنى. وكلما زاد وعى الانسان (امرأة أو رجل) كلما ارتفع هدفه فى الحياة إلى المستوى الانسانى والرغبة فى تطوير الحياة إلى الأفضل ولا يقتصر هدفه فى الحياة على استخدام أعضائه الجنسية أو ممارسة الجنس. ان أكثر البنات تحرراً (بالمعنى الصحيح للتحرر) أقلهن انشغالا بالجنس ، لأن عقل البنت منهن يصبح مشغولاً بأشياء أخرى كثيرة فى الحياة. أما البنات المكبوتات، فلا يشغل رؤوسهن إلا الجنس والرجل. وقد وجدت أن المرأة الذكية المثقفة بصفة عامة، أقل انشغالا بالجنس عن المرأة الأخرى، لكنها أكثر جرأة فى ممارسته. وهى تنسأه بعد الممارسة والشعور بالرضا. وتفكر فى أشياء أخرى.

ان الجنس فى حياة المرأة الذكية المتحررة لا يشغل من حياتها إلا حيزه الطبيعى. أما الجهل والكبت والقيود والتخويف، فتجعل الجنس فى حياة معظم البنات والنساء يتضخم ويتمدد ليشغل كل حياة المرأة أو الفتاة:

وتدل نتائج البحث على أن الحب مفقود فى معظم الحالات بين الزوج والزوجة. ومعنى ذلك أن معظم الأزواج والزوجات محرومون من الحب ومحرومون من الجنس بمعناه الصحيح. ومعنى ذلك أنهم يحاولون تعويض ذلك الحرمان خارج الزواج. ولا شك أن الرقم فى هذا البحث الذى يشير إلى نسبة العلاقات الجنسية خارج الزواج اقل من الحقيقة. إذ ليس من السهل على الزوجة أن تعترف فى مثل هذه البحوث بممارستها الجنسية خارج الزواج. أما الأزواج فأنه من المعروف فى معظم المجتمعات (وليس فى مجتمعنا فقط) أن لهم علاقاتهم المتعددة خارج الزواج، ويشجعهم على ذلك النظم والقوانين وتقاليد الحضارة الأبوية التى تعطى للرجل وحده الحرية الجنسية.

لقد فشل الزواج بقوانينه الجائرة التى لا تساوى بين الرجال والنساء فى تحقيق السعادة للأزواج والزوجات. فالسعادة لا يمكن أن تتحقق إلا فى ظل المساواة والحب والحرية. وهذه المبادئ الثلاثة، عجز الزواج عن منحها للرجال والنساء، وبالأذات النساء. ولهذا لم أدهش حين وجدت أن ٨٥ بالمئة من الزوجات يرفضن الزواج بأزواجهن مرة أخرى لو عادت

السنين إلى الراء.

وقد لاحظت أن المرأة غير المتعلمة وبالذات الريفية أكثر رضاء عن حياتها من المرأة المتعلمة أو التي تعيش في المدينة.

ولا شك أن من مميزات الحياة الريفية ذلك الزواج المبكر الذي يحل مشكلة المراهقين والمراهقات في المدن ومايتعرضون له من كبت نفسى وجنسى، وقوانين أخلاقية متناقضة، وازدواجية فى القيم، ومشاكل متعددة . كما أن الحياة الريفية أقل تعرضاً من المدن للتناقضات الثقافية والأخلاقية الموجودة فى مجتمعنا والتي تنتقل عن طريق أجهزة الاعلام والافلام والمجلات والصحف وغيرها.

لكن حياة الفلاحة المصرية بصفة عامة حياة قاسية شقية، والاستغلال يقع عليها مضاعفاً. والذي يهبط إلى الريف المصرى يستطيع أن يرى الفلاحات الكادحات بجلاليهن السوداء المترية، وعبونهن الغائرة الحزينة، ووجوههن المصوصة، وأيديهن وكعوبهن الخشنة المشققة، فيدرك علي الفور مدى انسحاق الفلاحة المصرية. والذي يعيش يوماً فى بيت من بيوت الفلاحين يسمع صوت الزوج الخشن حين ينادى زوجته «يا بت ا» أو يرى كفه الخشنة الغليظة التي تسقط فوق وجهها فى صفة قوية لأى خطأ منها، أو صوته الغليظ حين يرتفع غاضباً لأتفه سبب قائلاً : على الطلاق بالثلاثة ! بالإضافة إلي ما يتعرض له البنت الفلاحة ليلة الزفاف من مهانة التقليد الذى لازال سائداً فى الريف المصرى، وهو فض بكارة

العروس بالأصبع واظهار الدم على بشكير للناس. وكم من مآسى بسبب العذرية فى الريف.

أما النساء العاملات الكادحات فى المصانع أو الوظائف والأعمال الدنيا، فحياتهن أشد قسوة ، لأنها تجمع التناقضات والمشاكل جميعاً: مشاكل الريف ومشاكل الحضر، مشاكل التطلع إلى الطبقة الأعلى، مشاكل الدخل الصغير المحدود، مشاكل العمل خارج البيت وداخل البيت، كل ذلك فى ظل القوانين نفسها المجازة التى تحكم النساء جميعاً. وقد أوضح تعداد ١٩٧٦ أن نسبة العاملات بأجر ٩٢ بالمئة من القوة العاملة كلها. لكن هذه النسبة لا تضم الفلاحات وربات البيوت اللاتى يعملن بغير أجر.

والمرأة الكادحة هى التى تعمل داخل البيت (الطبخ والتنظيف ورعاية الاطفال) وتعمل أيضا خارج البيت فى حقل أو مصنع أو مكتب أو أى مكان آخر. وتمثل النساء الكادحات أغلبية النساء فى المجتمع المصرى، من فلاحات وشفالات وعاملات بالمصانع وموظفات بالمصالح الحكومية والشركات ،ومهنيات فى مختلف أنواع المهن. هؤلاء اللاتى يقمن بأعمال فى المجتمع جنباً إلى جنب مع الرجال، ثم يعدن آخر اليوم إلى البيت ليعملن الأسرة أو الأب أو الزوج والاطفال، وتحول ظروفهن دون الحصول على خدمات المنازل.

ولا يخفى على أحد الحياة الشاقة المؤلة التى تعيشها الفلاحات

المصريات ، وقد أعتدت أن أزور قريتي كفر طحلة (قليوبية) كل عام، وأعيش بين الفلاحات من قريباتي ومن اهل قريتي، وأستمع إلى قصص حياتهن المؤلمة، وأشهد نماذج من حياتهن التعيسة. وأقف على مدى مايسود القرية المصرية حتى اليوم من أفكار متخلفة تحقر المرأة، وخزعبلات وخرافات.

ولا شك أن الفقر أو المشكلة الاقتصادية هي أهم مافى حياة النساء الكادحات. ان السعى وراء لقمة الخبز يمتص حياة المرأة منذ شروق الشمس حتى غروبها. فلا تكاد تجد الوقت لتلتقط أنفاسها، أو تنظر إلى نفسها في المرأة لتعرف أنها امرأة أو رجل ، أو تفكر فى ذلك الشئ الذى نطلق عليه أسم الحب أو الجنس.

سألت مرة احدى قريباتى المتزوجات عن حياتها الجنسية مع زوجها وعما إذا كانت ترضيها أم لا، وتطلعت إلى المرأة الفلاحة بدهشة وقالت : ماأن أضع جسدى المهدود فوق الحصيرة حتى أنام كالقتيل إلى أن اصحو على آذان الفجر.

ونظرت إلى هذه المرأة. كانت شابة فى الثلاثين لكنها تبدو فى الخمسين ، خشنة الملامح ، جافة الجسد، سمراء البشرة، سوداء الجلباب، ولذنيها من الاطفال ثمانية. وسألتها : كيف أنجبت هؤلاء الاطفال؟ قالت فى حزن : لا أعرف . ولدتهم كما تلد الجاموسة . وسألتها : والزواج ؟

قالت : الله يلعنه يادكتورة ! نحن هنا فى القرية لا نعرف شيئاً .
ما أن تكبر البنت منا ويبرز ثديها حتى يزوجها أهلها لأى فلاح.
سألتها : ألا تذكرين ليلة الزفاف ؟

قالت : أذكر أنه أغلق الباب على وضربى بفلقة الحمارة حتى
عضضت الأرض ثم قفز فوقى وأنتهى كل شئ.

وقد لمست الكثير من مشاكل الفلاحة المصرية الاجتماعية والنفسية
والجنسية، لكنى أعتقد أن المشكلة الاقتصادية تطفئ على جميع
المشاكل الأخرى إلا فى بعض الحالات النادرة، حين تصادف المرأة مشاكل
حادة بسبب زوج شديد القسوة يذيقها ألوان الضرب والعذاب، أو حماة أو
ضرة (زوجة ثانية لزوجها) تحول حياتها إلى جحيم ، أو طلاق يشردها
فى الطرقات تشحذ لقمة عيشها، أو تفقد صوابها ولا تجد أمامها إلا الزار
أو المشايخ أو أهل النصب والاحتيال.

والفلاحة المصرية رغم مشاكلها المتعددة أكثر قوة وصحة نفسية من
المرأة العاطلة بغير عمل داخل البيت أو خارجه.

ولا توجد لدينا بيانات لتحديد نسبة دقيقة للنساء العاطلات، إلا
أننا جميعاً نعرف أن هذه الفئة من النساء موجودة فى مجتمعتنا، وأنها
تمثل معظم النساء من الطبقة العالية والطبقة فوق المتوسطة، ونساء
الطبقة الجديدة التى تضخمت فى السنوات الاخيرة بسبب الشراء السريع
مع الجهل والتخلف.

ومعظم هؤلاء النساء يعشن فى المدن الكبيرة والمدن الصغيرة، ومنهن من تعلمت تعليماً عالياً بالجامعة ثم لزم البيت بسبب الزواج أو التقاليد أو عدم حاجة الابيرة إلى مورد اقتصادى اضافى. ومنهن من لم تتعلم على الإطلاق بسبب التقاليد.

على أن السمة الغالبة على هذه الشريحة من شرائح المجتمع المصرى أنها أكثر الفئات راحة من الناحية الاقتصادية (بدليل وجود خدم بالمنزل)، وأن مستواها الاقتصادى أعلى من مستواها الثقافى والحضارى (بدليل وجود المرأة بالبيت، وبدليل شدة التمسك بالتقاليد والعادات القديمة ولو ظاهرياً).

ومن المعروف فى علم المجتمع أن التغيير الاقتصادى يحدث بأسرع من التغيير الاجتماعى أو الثقافى أو الوجدانى. فما أسهل على الفلاح المصرى بمجرد أن يحصل على بعض المال، أن يشتري الثلاجة والراديو أو السيارة، ولكن ما أصعب عليه أن يغير من عاداته وتقاليد ونظراته إلى المرأة. وبالمثل أيضاً ما أسهل على الأسر العالية فى مصر أن تشتري أحدث الأجهزة، وتستخدم أحدث الوسائل التكنولوجية فى البيت والعمل، بل وترتدى أحدث الملابس من سراويل ضيقة وفساتين قصيرة تكشف عن أفخاذ النساء (المينى جيب) وغيرها من أزياء القرن العشرين. ومع ذلك تظل الأعماق عاجزة عن التخلص من الأفكار المتخلفة وخزعبلات القرن التاسع عشر. وبالمثل أيضاً ما أسهل على

المجتمع أن يتحول بالقرارات الاقتصادية وقرارات التأمين من مجتمع
اقطاعى أو رأسمالى إلى مجتمع اشتراكى، ومع ذلك تظل الأفكار
والمشاعر الوجدانية والتقاليد اقطاعية أو رأسمالية . ويمكن القول أن
مجتمعنا المصرى مزيج من كل هذه التناقضات والصراعات بين الريف
والحضر، بين القديم والجديد، وبين الشرق وبين الغرب، وبين الأقطاع
والرأسمالية والأشترابية. وتختفى هذه التناقضات أحياناً، أو تطفو على
السطح أحياناً، لكنها موجودة وتكون ظاهرة عامة عندنا.

ولا شك أن دراسة حياة المرأة المصرية فى الأسرة فوق المتوسطة
والعالية، وهذه الاسرات التى تكون النساء فيها عاطلات أو شبه عاطلات
يعطينا صورة عن جزء من حياة مجتمعنا المصرى عامة، كما أنها
تعطينا صورة أوضح عن تلك التناقضات. التى نعيشها . لأن المرأة
(بسبب كثرة المحظورات عليها بالنسبة للرجل) أكثر عرضة للوقوع
فريسة التناقضات الاجتماعية.

ان المرأة المصرية فى هذه الاسرات هى مستهلكة فقط (بعكس المرأة
المصرية الكادحة أو الفلاحة التى هى منتجة ولا تكاد تستهلك شيئاً).
ولهذا فأن الفرق كبير جداً بين هاتين المرأتين فيما عدا أنهما متساويتان
فى الخضوع للزوج بسبب اعتمادهما الاقتصادى عليه. (رغم أن الفلاحة
المصرية منتجة عن طريق عملها فى الحقل، إلا أنها تعمل بغير أجر
لحساب زوجها وتعتمد اقتصادياً عليه). ان نظرة واحدة إلى وجهه وشكل

المرأة من هذه الطبقات، وإلى وجه وشكل المرأة الفلاحة، تعطينا صورة صارخة للتناقض بين هذه وتلك. ان المستهلكة ممتلئة باللحم، وترتدى أفخر الثياب، وتضع على وجهها وجسدها كم هائل ثمين من المساحيق. فى حين تعاني المرأة الفلاحة من النحول وذبول الجسد المرهق، وتعانى نقصاً شديداً فى التغذية أيضاً، وجلابها الأسود المترب بتراب الحقل، ووجهها الذى لا تغسله إلا بالماء نظراً لأرتفاع سعر الصابون.

ولا شك أن هذا التناقض ليس قاصراً على النساء، ولكنه يشمل الرجال أيضاً، لكنه أوضح ما يكون فى النساء. لأن الاستغلال الواقع على النساء مضاعفاً. حيث أن البطالة تفرض على المرأة، ومن ثم يفرض عليها أن تكون مستهلكة فقط. كما أن الفلاحة المصرية تتعرض لأستغلال من زوجها، لأن زوجها يسيطر عليها ويشغلها كالأجير لحسابه، ويستهلك أكثر منها. فهو يعطى نفسه من الطعام والملابس والدخان والمتع مالا يعطيه لها.

ان جميع النساء اللاتى يعملن فى البيوت أو الحقول أو المصانع أو المهن المختلفة، جميعهن منتجات، وجميعهن يستهلكن أقل مما يستهلك الرجل فى أسرهن. أما هؤلاء النساء العاطلات بغير عمل فى البيت أو خارج البيت، فهن غير منتجات، ومن اللاتى يمكن أن نقول عنهن أنهن مستهلكات فقط.

وقد يتصور بعض الناس أن بطالة النساء ميزة تعطينهن الراحة. لكن

البطالة نوع من أنواع الاستغلال، والبطالة تحرم المرأة من العمل الذى هو ضرورة انسانية تحقق به ذاتها، وتحقق به نفعاً للمجتمع. وتحقق الذات يمنح الإنسان سعادة وذكاء وتطوراً وانسانية، وتحرم من كل ذلك النساء العاطلات.

ولهذا لا تشعر النساء العاطلات بالسعادة بسبب عدم وجود العمل، وبسبب أيضاً وضع المرأة الأدنى فى المجتمع، واحساس المرأة أنها تابعة وعالة على الرجل.

وان القانون يمنح الزوج حرية طرد زوجته فى أي وقت يشاء. ولهذا كله تشعر النساء العاطلات بالفراغ والتعاسة والقلق على مصيرهن ومستقبلهن، ويحاولن تعويض كل ذلك عن طريق الاستهلاك الشره، وقتل المال فى شراء الملابس وأدوات الزينة. وقتل الوقت فى الثروة والنميمة. واصطناع احتياجات جديدة لمزيد من الشراء والاستهلاك. واصطناع شهوات جديدة للطعام والحلويات والمربسات، والممارسات الجنسية، أو انجاب الأطفال.

ورغم الأكل الكثير، واللحم الكثير، والمساحيق الملونة، إلا أن المرأة العاطلة من هؤلاء حين تغسل وجهها، يبدو وجهها شاحباً بسبب الشقاء الذى تعيشه، وبسبب التناقضات التى تمزقها. فهي متخمة، لكنها محرومة. وهي مشبعة، لكنها فارغة. وهي مكتظة بالشهوات والمتع، وهي عاجزة عن الاستمتاع بشئ منها. وهي تقتنى الراديو والتليفزيون،

وتقرأ الصحف والمجلات، وتذهب إلى السينما. ولهذا فهي تقع أيضاً
فريسة التناقضات الثقافية في المجتمع كله. ويصلها حتى سيرها الأفلام
الجنسية، والرقصات العارية، والموضوعات الفنية الرخيصة المشوهة لكل
الحقائق والمشاعر.

يصل إليها كل ذلك عن طريق أدوات العلم الحديث والقرن العشرين.
والمرأة تتلقى كل هذا، وهي هنا أيضاً مستهلكة. هي «منفعلة» فقط.
لا تجرؤ على «الفعل» بسبب التقاليد. انها قد تحفظ عن ظهر قلب
النكات الجنسية الرخيصة، وتثرثر مع صديقاتها بكل قصص العشق
والغرام. لكنها لم تعيش في واقع حياتها قصة حب حقيقية. وان عاشتها
فهي تعيشها نظرياً فحسب، أو بطريقة مشوهة مريضة. وهي تسمع ليل
نهار تأوهات المغنيات والمغنين، وفوق الشاشة الكبيرة والشاشة الصغيرة
وأغلفة الكتب والمجلات، ترى أجمل الأجساد. لكنها لا تجرؤ على رؤية
جسدها في المرأة. ولا تجرؤ على الاستمتاع بالجنس. والزوجة من هؤلاء
تعانى من الحرمان الجنسي. ان علاقتها بزوجها لا تسبب لها الرضا، وإنما
النفور وكراهية الجنس. أن الرضا الجنسي لا يمكن أن يحدث في ظل
علاقة غير متساوية، ولا يمكن أن يحدث في ظل تربية صارمة تسبب
العقد. ولا يمكن أن يحدث في ظل تناقضات تسبب المرض النفسي
والقلق. كما أن الزواج في معظم هذه الحالات يتم لأسباب غير الحب
الحقيقي. وقد تكون أيضاً حرمت من العضو الحساس (البظر) بسبب

عملية الختان؟ وفي ظل القيود والمحظورات، فإن الجنس يصبح عملية منفرة كريهة، يهرب منها الزوجان، ويذهب كل منهما إلى حيث يعرض عن ذلك بطريقة أو بأخرى.

أن مظاهر التعويض نلاحظها على مثل هذه المرأة العاطلة في تقليدها الجنونى، أو جريها وراء الموضات، والتظاهر بالجاذبية الجنسية المتأججة، تعويضاً عن الحاجة الجنسية المكبوتة. أو ذلك النهم الشديد للأكل والأستهلاك الشديد الذى ليس إلا تعبيراً عن الكبت الشديد، والتمزق الشديد بين التناقضات.

ومن أهم نتائج هذا البحث أن أغلبية النساء العاملات متعلقات وغير متعلقات لم يتحررن، ولا يعشن حياة أسعد من حياة النساء غير العاملات. وأنهن مرهقات جسدياً ونفسياً بسبب الدورين اللذين يقمن بهما معاً داخل البيت وخارجه، بدون مساعدة الرجل أو المجتمع. إن خروج المرأة للعمل في ظل ظروف وقوانين لا تساوى بين الرجال والنساء في جميع الحقوق والواجبات، لا يؤدي إلا إلى المزيد من استغلال الرجل للمرأة خارج البيت وداخله، يعد أن كان يستغلها في الداخل فقط. إن المرأة الذكية الواعية هي التي ترفض أن يستغلها الرجل. ولذلك يزيد تمرد المرأة كلما زاد ذكاؤها وتعليمها. لكن التمرد أو الرفض يسبب لمعظم النساء العصاب. أما القليلات القويات فهن هؤلاء النساء اللاتي يحولن الرفض إلى ثورة، أو إلى فعل حقيقى يرفع عنهن الظلم والاستغلال.

ولهذا لا تصاب الثائرات بالعصاب، فالفعل الحقيقى هو المصدر الوحيد للصحة النفسية عند الإنسان الذكى الواعى. والفعل الحقيقى معناه العطاء للمجتمع، والايجابية، وليس التلقى، والسلبية. وكما قال كيركجارد : «أنه من الافضل أن تعطى عن أن تتلقى . أن التلقى اكثر صعوبة على النفس من العطاء».

وقال سقراط أيضاً : «لكى تعرف نفسك لابد أن تفعل». والفعل هنا هو العمل الحقيقى الخلاق، وليس العمل الروتينى الممل الذى يشبه دوران البقرة فى الساقية. وكم من النساء يدرن فى ساقية العمل سواء داخل البيت أو خارجه. وكم من رجال أيضاً.

كلمة حول علاج المرأة من العصاب

لعل من أهم مشاكل المرأة أيضاً أنها إذا ما أصيبت بالعصاب أو أى أزمة أو مرض نفسى، فأنها لا تجد أمامها إلا الطبيب النفسى الذى تذهب إليه، فيشبع جسدها بالحقن أو الأقراص أو يوجه إلى رأسها الجلسات الكهربائية.

ولأن معظم أسباب العصاب وغيره من أمراض المرأة النفسية ليست داخل رأس المرأة أو جسدها، وإنما هى فى المجتمع والأسرة والمدرسة والشارع وأماكن العمل. لذلك فإن الحقن والأقراص والجلسات الكهربائية لا تفيد شيئاً، ولا تعالج المرض من جذوره ، وإنما قد تساعد بعض الشئ فى تخفيف الألم أو التخدير المؤقت.

ان علاج الأمراض النفسية من جذورها، أو بمعنى آخر إزالة أسبابها الحقيقية يسمى علمياً بأسم الطب الوقائى النفسى، أسوة بالطب الوقائى

الجسدى الذى يمنع الأمراض العضوية عن الناس قبل أن يصابوا بها. ولكن الطب الوقائى (سواء كان وقاية من الأمراض العضوية أو الأمراض النفسية) لا يتقدم التقدم المطلوب الذى يتناسب مع أهميته البالغة لتحقيق الصحة الجسدية والنفسية للناس. والسبب فى ذلك هو أن تقدم الطب الوقائى يتعارض مع مصالح الأطباء ومفهوم مهنة الطب بصفة عامة. ان تقدم الطب الوقائى (النفسى والجسدى) معناه عدم حدوث أمراض جسدية أو نفسية، وهذا معناه أفلاس عيادات الأطباء الخاصة. حينما دخلت كلية الطب (فى بداية هذا الدخول) كنت أؤمن بأن مهنتى فى الحياة ستكون الطب. فقد كنت أعتقد اعتقاداً راسخاً بأن الطب رسالة انسانية. وفى اليوم الذى تخرجت فيه من كلية الطب (بعد ٦ سنوات ونصف) كنت قد آمنت بأن مهنتى فى الحياة لن تكون بأى حال من الأحوال هى الطب ، وأن الاعتقاد بانسانية الطب ليس إلا حلم مراهقة.

وهمست فى أذن أحد زملائى بهذا التغيير الضخم الذى حدث لى خلال سنوات الدراسة. فإذا به يصيح بصوت عال : وأنا أيضاً. وكلنا مثلك.

وقد حاولت أن أفهم الأسباب الحقيقية وراء هذا التغيير الذى يحدث للطالب أو الطالبة خلال سنوات الدراسة، فأدركت أن هذه الأسباب تنقسم إلى قسمين :

(١) الجو أو المناخ العام الذي يعيش فيه طالب أو طالبة الطب ويستنشق القيم المعوقة لنموه النفسى الانسانى.

(٢) المعلومات التى تدخل رأسه خلال هذه السنوات. والتى تفسد نظرته الشاملة إلى الإنسان كوحدة متكاملة من جسد ونفس ومجتمع. أما من ناحية الجو العام أو المناخ الذي يعيش فيه الطالب الطب، فهو مناخ يدفع بالطالب إلى التطلع إلى عربة استاذة. الطويلة الفارحة، وإلى يافطة عيادته الطويلة، والطريقة التى يضع بها قم سيجاره الذهبى فى قمه. لا أنكر أن بعض أساتذتى فى الطب كانوا يأتون إلى الكلية راكبين الترام العتيق الذى كان يمشى فى شارع القصر العينى. ولكن هؤلاء كانوا قلة قليلة نادرة، وكان معظمهم من أساتذة الطب الوقائى أو الصحة العامة. مما يجعل طلبة الطب يربطون بين التخصص فى الطب الوقائى وبين ركوب الترام.

وحيث أن أى إنسان مهما كانت طبقتة الاجتماعية يكره ركوب الترام البطي المزدهم، فيبدأ الشعور بالكراهية بنمو فى أعماق الطالب تجاه الطب الوقائى، ويعتقد أن التخصص فى الطب الوقائى ليس إلا نوعاً من الكوارث التى يجب أن يحصن نفسه ضدها وأن يتفانى فى أساليب الوقاية منها قبل أن تحدث.

كنت وأنا طالبة أحب قراءة كتب علم النفس والفلسفة والأدب والعلوم الانسانية والاجتماعية . وقد أدركت من هذه القراءات أن أسباب

الأمراض النفسية (وكثير من الأمراض العضوية أيضاً) تكمن خارج الإنسان. أي في المجتمع والبيئة الخارجية، بسبب الفقر والجوع والظلم والقهر والكبت والكذب الخ. ولهذا أدركت أن الطب الوقائي سيكون مصيرى، وليس الطب العلاجى. وهمست بهذه الرغبة فى أذن إحدى زميلاتى، فإذا بها تشهق فى فزع وكأننى همست لها برغبة جنسية آثمة أو محرمة وصاحت : ماذا الطب الوقائي ؟ لماذا يا أختى ؟ هو أنت فيك عيب أو عاهة ؟

كان المناخ الدراسى العام داخل كلية الطب يُرسب فى أعماقنا العميقة ازدراء الطب الوقائي، واحساساً بأن الاتجاه نحوه أو التخصص فيه لا يمكن أن يحدث لطالب ذكى متكامل القوى العقلية والجسمية. وإنما لابد أن يكون هناك عيب مافيه يمنعه من الاتجاه نحو التخصصات الطبيعية المشروعة فى الطب. والتخصصات الطبيعية المشروعة فى الطب هى التخصصات العلاجية، مثل الجراحة وأمراض باطنة ونساء وولادة وصدرية وجلدية وعصبية وتناسلية وعيون وغيرها. أما التخصص فى أى فرع من فروع الطب الوقائي، فهو جنوح عن الطبيعة وخروج عليها. ولابد أن يكون ذلك لسبب قهرى. أما أن يكون اختيارياً فهذا هو مالا يقبله أى عقل.

أما عن المعلومات التى تدخل رأس طالب أو طالبة الطب خلال سنوات الدراسة، فهى معلومات لا يمكن بأى حال من الأحوال أن تؤهل

الطبيب أو الطبية لمعرفة الأسباب الحقيقية للأمراض النفسية (وكثير من الأمراض العضوية أيضاً). وأنى أعترف بأننى لم أفهم فى جسم الانسان أو نفسه أو بيئته، إلا بعد أن تخرجت فى كلية الطب. وذلك من احتكاكى بالمجتمع، وقراءتى الخاصة فى العلوم المختلفة. ان الدراسة فى كلية الطب تفصل الانسان عن المجتمع، وتجعله جسداً معزولاً، كجسد الفأر الذى يعزل فى المعمل وبالتالى يجهل معظم الأطباء الأسباب الاجتماعية (وهى الأسباب الحقيقية) للأمراض فى أحيان كثيرة (الأسباب الاجتماعية تعنى الأسباب الاقتصادية والسياسية بطبيعة الحال).

أما عن نفس الانسان، فهذا هو ما لم يعرفنا به أحد خلال سنوات الدراسة فى كلية الطب، اللهم إلا محاضرة أو محاضرتين فى السنة الثانية لا توضح لنا نفس الانسان بقدر ماتزيدها غموضاً.

ولست أعتقد أنه يمكن لنا أن نعالج الأمراض النفسية (وكثير من الأمراض العضوية) ما لم تعالج الأسباب الاجتماعية لهذه الأمراض. وأول خطوات العلاج هو أن نعرف هذه الأسباب الاجتماعية لنعرف كيفية علاجها. ولعلنا قد أدركنا الآن بعض هذه الأسباب، وبعرفنا أن عدم المساواة، والكبت والقيود على الحرية، والخوف، وغيرها من العوامل الاجتماعية التى تتعرض لها البنت منذ طفولتها حتى كهولتها هى التى تسبب لها العصاب والأمراض النفسية.

ولهذا ليس أمامنا من وسائل العلاج إلا علاج هذه الأسباب، وإزالة
التفرقة بين الجنسين، وإزالة الكبت فى حياة البنات و النساء، وإزالة
القيود التى تمنع البنت والمرأة، وإزالة الخوف الذى يجعل البنت أو المرأة
تكذب على نفسها والآخرين.

فتصبح عاجزة عن ممارسة الحب الصادق. وتهيئة الظروف والامكانيات
التي تساعد المرأة علي العمل المنتج الخلاق، وتحقيق ذاتها كأنسانة لها
عقل، وليست مجرد جهاز تناسلى لولادة الأطفال واشباع الزوج.

ومن هنا نرى أن علاج النساء يرتبط ارتباطاً وثيقاً بقضية تحرير المرأة
. وإن قضية المرأة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بقضية تحرير المجتمع من الأسباب
التي تدعو إلى استغلال الانسان للانسان. والتفرقة بين البشر. وتمزيق
الناس إلى مجموعات فقيرة كادحة، يمرضها التعب والجوع والارهاق
والهموم، ومجموعات ثرية مستريحة، تمرضها الراحة والترف والتخمة
وتمزيق الناس إلى جنسين. جنس أنثوى مقهور، يمرضه القهر والخضوع
والكبت والخدمة والطاعة العمياء. وجنس ذكرى عدوانى، يمرضه العدوان
والبطش والظلم والاستبداد بالرأى.

إن الحكام المستبدين يتعرضون بسبب الاستبداد للسادية، تماماً كما
يتعرض المحكومون المستعبدون للماسوشية. إن الاستبداد والاستعباد
وجهان لعملة واحدة : هما يسببان السادية والماسوشية؟ ولا يمكن لنا أن
نعالج السادية والماسوشية بالأقراص والحقن والكهرباء. ولكن علاجهما

الوحيد هو علاج الاستبداد والاستعباد.

ومن هنا أهمية عدم الفصل بين العلوم السياسية والعلوم الطبية. أو أهمية ربط السياسة والطب. فالسياسة بمعناها الحقيقي لا تعنى تدبير المؤامرات أو المناورات، أو لعبة الانتخابات، ولكن السياسة هى توفير الطعام والصحة والوعى والمعرفة للناس. أو بعبارة أخرى توفير الصحة الجسدية والنفسية للناس.. ويتضح لنا أن هدف السياسة الصحيحة هو نفسه هدف الطب الصحيح، وليس هناك أى تعارض بين الطب والسياسة، بل لا يمكن لأحدهما أن ينفصل عن الآخر.

ولعل هذا هو السبب فى أن بعض الأطباء والطبيبات حين يدركون هذه الحقيقة، يقودهم عملهم الطبى الصحيح (فى الأنظمة الاستبدادية) لا إلى الثراء وشراء العمارات والأطيان، وإنما إلى السجون أو إلى المستشفيات النفسية. حيث يتعلمون عن طريق اختلاطهم بالمرضى أو المساجين حقائق الحياة أكثر وأكثر. ان هؤلاء المنبوذين من المجتمع سواء كانوا مرضى أو مساجين، يسكنون فى أيديهم وفى حياتهم كثيراً من الحقائق التى يخفيها المجتمع. وقد قال غاندى :«من أجل زعزعة نظام الطوائف يكفى تركيز الجهود على نقطة حساسة فى المجتمع :المنبوذين. وأنا أقول :من أجل زعزعة الاستغلال فى المجتمع والأسرة الأبوية، يكفى تركيز الضوء على نقطة حساسة فى المجتمع:النساء المريضات بالعصاب.

الجزء الثالث

نماذج

زينب

هي زوجة فى الرابعة والعشرين من عمرها، شاحبة الوجه، منكسرة العين، قالت لى أنها خائفة من أن تفقد عقلها. وسألتها عن مظاهر فقدان العقل التى تخافها. فقالت أنها حين تحتضن طفلتها لترضعها، تشعر برغبة فى أن تضغط عليها حتى تقتلها. وأنها من شدة هذه الرغبة التى سيطرت عليها أصبحت تخاف أن ترضع طفلتها، بل أحيانا ما ترتجف أصابعها حين تلمسها. ومن شدة خوفها من أن تقتل ابنتها أصبحت لا ترضعها ولا تلمسها، وتتركها وحدها تبكى. وقد أخذها زوجها إلى عدد من أطباء النفس، وحصلت على جميع أنواع العلاجات ابتداء من الجلسات الكهربائية حتى الأقراص المهدئة دون فائدة.

ويتلخص تاريخ حياة زينب فى أنها نشأت فى أسرة من أب وأم، وأربعة من الأبناء والبنات. وكانت هى البنت الكبرى. كان أبوها متوسط

التعليم، ويعمل فى شركة صناعية كمشرف أو ملاحظ عمال. ولم يكن مرتب الأب يكفى نفقات الأسرة، فكانت الأم تعمل أحياناً كخياطة وتحيك الملابس على مكتبها. بالبيت للأسرة المجاورة. ونشأت زينب على الطاعة واحترام أبيها وأمها، ودخلت المدرسة الثانوية فى الحى المجاور (باب الشعرية) . وكان أبوها (وأما أيضاً) يخاف عليها من صبيان الحى، وخاصة أن اشاعة ترددت فى الحارة أن بعض الرجال عثروا على مولود «لقيط» بجوار الجامع وأنهم سلموه للشرطة. ومن شدة خوف الأب كان يترك عمله أحياناً ويرافق ابنته إلى المدرسة، وكان يشدد عليها الرقابة، ولا يسمح لها بالخروج مع زميلاتهما. وكانت زينب لا تعترض على أى أوامر من أبيها.

حصلت زينب على الثانوية العامة، ولم يعطها أبوها فرصة للتفكير فى مستقبلها، فإذا به يسعى لتحصل ابنته على وظيفة بالمصنع الذى يعمل به. وأعتقد الأب أنه يضرب عصفورين بحجر واحد. فأن مرتب ابنته سوف يساعده فى نفقات الأسرة، كما أن وجودها معه فى الشركة نفسها يجعلها دائماً تحت مراقبته ويطمئن عليها دائماً.

أاشتغلت زينب فى مصنع الشركة ثلاث سنوات، لا يزيد عملها عن تعبته بعض الزجافات وتغليفها. وفي تلك الأثناء حصل أخوها الذى يصغرها بعامين على الثانوية العامة، ورغم أن مجموع درجاته كانت أقل من مجموع درجاتها، إلا أن الأب شجعه على دخول الجامعة. وفجلاً

ألتحق الأبْن بكلية العلوم. وكانت زينب تدفع كل مرتبتها لأبيها ، وكان الأب يعطيها مصروفاً شهرياً أقل مما يعطى أخيها. وكان يقول لها أن أختها شاب وطالب جامعي ويحتاج إلي مصروفات أكثر منها.

وكان لزينب ابن خالة تخرج حديثاً من كلية الهندسة، وعين في منصب ممتاز (في عين أبيها) . وأحست زينب أن أباهما يسعى بكل الطرق لتزويجها من ابن خالتها. وفعلاً استطاع أن يزوجه لها، ولم يكن لزينب أن تخالف أي أمر لأبيها. وكان يقول عنها أنها ابنة مثالية.

وبعد الزواج تركت زينب وظيفتها في الشركة، وتفرغت لزوجهما، الذي كان يعاملها معاملة طيبة بسبب طاعتها وهدوئها.

وتخرج أخوها في كلية العلوم، وكان متفوقاً فعين بالجامعة، واشترى سيارة، وأصبح موضع فخر الأب والأم وأفراد الأسرة كلها.

وأنجبت زينب طفلتها الأولى، وبدأت تنتابها حالة الخوف بالتدريج حتى وصلت إلي حالة الخوف التي وصفتها سابقاً، وهو الخوف من أن تقتل طفلتها. وتقول زينب هنا : «تصورى يادكتورة أنا أفكر في قتل ابنتي، وقد أنفق زوجي على الكثير عند الأطباء للعلاج بلا فائدة. والغريب أن أبي يتعاطف مع زوجي ، ويقول لي بشدة وقسوة : مرض نفسني أيه وكلام فارغ أيه !» ان حياتك تتحناها أية امرأة في العالم. لا أدري كيف يمكن لواحدة مثلك أن تكون تعيسة إلى هذا الحد. ان عليك أن تسجدي لله شكراً، لأنه منحك أباً حافظ عليك ثم زوجك لرجل

ناجح طيب هيا لك حياة مريحة ، ماذا تريدون أكثر من ذلك ؟
وتردد زينب لنفسها أمامي : «صحيح يادكتورة ماذا أريد أكثر من
ذلك . أننى يجب أن أكون سعيدة ، ولكن لا أدري لماذا أصبحت أخاف
حتى من السير بمفردي في الشارع » .

وسألتها : لماذا تخافين . ؟ الانسان لا يخاف إلا إذا شعر بخطر .

قالت : نعم . أشعر بخطر .

قلت : أين هو الخطر ؟

قالت : لا أدري ، ولكنى أخاف .

سألتها : وماذا قال لك الأطباء النفسيون ؟

قالت : قالوا لى أنه ليس هناك خطر فى حياتى ، ولا فى الشارع ،
وعلى إلا أخاف ، وكتبوا لى الأقراص المهدئة .

وحيثما نظرت فى عيني زينب ، بدأت الخوف والذعر . أنها تخاف
فعلاً ، لكن خوفها ليس لخطر خارجي نراه بأعيننا ، ولكن خوفها بسبب
خطر داخلي ، فى داخل نفسها . هذا الخطر لا نراه نحن وليس واضحاً
وضوح سيارة تجري بسرعة فى الشارع وتكاد تدوسنا ، او رصاصة منطلقة
من مسدس فى وجهنا . ولكنه خطر موجود ومحسوس داخل الشخص
الذى يعانى منه . ونحن عادة نقتنع بالخوف الذى يحدث للإنسان بسبب
خطر خارجي . نحن لا نقول عن أى شخص أنه مجنون إذا صرخ مذعوراً
فى الشارع بسبب سيارة مسرعة كادت تدهسه ، لكننا نقول أن زينب

مجنونة لانها تشعر بالخوف ونحن لا نرى أى خطر حولها.

ان عدم رؤيتنا للخطر لا يعنى أن الخطر غير موجود. قد يكون الخطر موجوداً ورؤيتنا هي القاصرة ،وهى العاجزة عن رؤيته أو إدراكه . وهذا هو ما حدث لزینب.

لقد تصور أباهما أن الخطر الوحيد الذى يمكن أن يهدد حياتها هو أن تحمل سفاحاً (كالأم المجهولة لذلك اللقيط الذى وجد بجوار الجامع). ولم يدرك على الإطلاق الخطر من ارغامها على قطع دراستها وطموحها، رغم ذكائها وتفوقها. ولم يدرك على الإطلاق الخطر من فرض زوج عليها لا تريده ولا تحبه. وتصور أنها يجب أن تسجد لله شكراً لأنه منحها هذا الأب الذى حافظ عليها، ثم زوجها لرجل ناجح طيب. ماذا تريد أكثر من ذلك؟

وفى رأى أن هذا الأب كان خطراً على ابنته كالسيارة الم رعة التى تدوس الانسان وتدوس على جسده، بل أن خطره كان أشد. لأن الخطر الذى يدوس النفس أشد فتكاً بالانسان من الخطر الذى يدوس على جسده فقط.

وبينما أنا أفكر فى هذا، سمعت زينب تقول لى : «أتعرفين يادكتورة كم أتمنى أن أشفى، كم أتمنى أن يزول عنى هذا الخوف، كم أتمنى أن أسير فى الشارع كما يسير الناس، وأرضع أبنتى ككل الأمهات دون أن تراودنى فكرة خنقها. أنى أتمنى الشفاء بأى ثمن. بأى ثمن. لقد قلت

لأحد الأطباء : اخلع عيني من رأسى أو أقطع ذراعى ، وأعطنى دواء
يشفينى!

وصدقت زينب بالطبع ، فأنا أعرف أن فقدان أى عضو من أعضاء
الجسم لا يساوى شيئاً بالنسبة لفقدان النفس. ولهذا فأن السيارة التى
تدهس شخص فى الطريق العام وتقطع ذراعه أو ساقه أو عين من عينيه،
فاخطرها أقل بكثير من أن يرزق الطفل بأب كمثل أبى زينب.

والغريب أننا جميعاً لا نرى خطر مثل هذا الأب. أنه فى نظرنا أيضاً
أب مثالى. فهو لا يسكر، ولا يسهر ، ولم يطلق زوجته، ولم يعريد، ولم
يسرق، ولم يختلس ولم يبطش. ولكنه كان أباً يعمل فى شركة طول
النهار، وينفق كل مرتبه على أسرته. يحافظ على أولاده وبناته،
ويحميهم من كلام الناس أو السمعة السيئة. ويختار لهم أزواجاً طيبين
ناجحين يضمنون لهم الراحة والحماية. مثل هذا الأب فى عيوننا جميعاً
ليس إلا أباً مثالياً وأباً محباً لبناته وأولاده. ولكن كم من الجرائم ترتكب
باسم المثالية وبأسم الحب. ان ما حدث فى حياة زينب هو جريمة قتل. لقد
قتلها أبوها. وهى تعيش مع زوج شبه أبها. أنه زوج مثالى محب
لزوجته. أنه لا يسكر ولا يسهر ولا يعريد، وينفق كل مرتبه عليها
وعلى البيت والطفلة. ماذا تريد أكثر من ذلك ؟ ما الذى يخيفها ؟ ان
حياتها آمنة تماماً، خالية من الحوادث والمفاجآت، خالية من التحديات
والصعوبات، خالية من التفكير فى شئ يحدث. لأن شيئاً لم يحدث. لأن

شيئا لن يحدث . لأن حياتها خالية خاوية، كعدم الحياة ، كالموت تماما .
وهنا حدثت الصدمة النفسية لزينب، وتسمى فى علم النفس بصدمة
«انعدام المؤثرات فى الحياة». وهى تشبه صدمة الموت، لكن الجسد يظل
على قيد الحياة. لقد أكتشفت زينب أن حياتها خاوية تماما. وأنها لم تعد
تنتظر شيئا من حياتها ، فالمستقبل سيكون كالحاضر، كالماضى، ولا شئ
سيحدث غير هذا الخواء فى حياتها. والاستسلام ، والطاعة المستمرة
لابيها ثم لزوجها. ان شيئا لم يحدث ليغير هذا وسوف تصبح حياتها لا
شئ فى المستقبل، كما كانت لا شئ فى الماضى.

وكانت زينب فى أعماقها لاتكف عن مقارنة نفسها بأخيها، الذى
أصبح ملء السمع والبصر بتفوقه الفكرى فى الجامعة. وقال لها أحد
الأطباء النفسيين الذى ذهبت إليه، أن ذلك بسبب عقدة الحسد الذى
تشعر به البنت نحو أخيها الولد بسبب امتلاكه عضو الذكر (أفكار
فرويد). لكنها ذهلت لهذا رأى، وقالت له انها لم تطرأ على بالها تلك
الفكرة أبدا. ولكنها تشعر أنها حرمت من التعليم العالى، وأنها كانت
أكثر تفوقاً منه وكاد أن يكون لها مستقبل أفضل من مستقبله. وأنها
تشعر أنه من الظلم أن تحرم من طموحها الكفرى. وأن يشغلها أبوها فى
الشركة، وتدفع مرتبها الشهري من أجل أن يدخل أخوها الجامعة،
ويتعلم هو وينجح، ويرقى، وتظل هى راكدة فى بيت الزوجية الآن.

والغريب أن هذا الطبيب فسر رغبتها فى قتل طفلتها على أنها نوع

من العدوان بسبب الكبت الجنسي الذي تعانيه. وكان هذا الطبيب قد سأل زينب عن علاقتها الجنسية مع زوجها، فقالت أنها لا تفكر في الجنس على الإطلاق، إذا رغب زوجها فيه، فأنها تمارس معه الجنس. وإذا لم يرغب فهي لا تفكر في الموضوع. وأستنتج أنها تعاني من البرود الجنسي، وأن هذا البرود هو سبب الاضطراب النفسي الذي تعاني منه. ولم يدرك الطبيب المعالج أن البرود الجنسي عند زينب ليس إلا نتيجة الموت النفسي والفكري الذي حدث في حياتها. ان الانسان (امرأة أو رجلاً) لا يمكن أن يُقتل فكراً ونفسياً وتظل رغبته الجنسية صاحبة وحدها، متأججة أو مشتعلة بالحياة.

ان النشاط الجنسي في حياة الانسان جزء من النشاط الفكري والنفسي، ويدرك الموت والبرود لا شك حين يدرك الموت والبرود النشاط النفسي والفكري.

ان خوف زينب من رغبتها المسلطة عليها لقتل طفلتها، لم يكن إلا تعبيراً عن احساسها بأن هذه الطفلة البنت ستقتل مثلها، وستعيش الحياة التي هي تعيشها. وأنها ما دامت ستموت كما هي ميتة، فالأفضل لها أن تموت وهي طفلة صغيرة، وقبل أن تتعذب، بدلاً من أن تمر بالمراحل جميعها التي مرت بها.

ان زينب قد أدركت الخطر المحدق بحياة أبنيتها، هذا الخطر الذي لا يراه معظمنا ومعظم أطباء النفس. لكن زينب قد أدركت الخطر لأنها

عرفته وعاشته وعانت منه. ولأنها أيضا انسانية ذكية ولها عقل يفكر. لكنها فى الوقت نفسه تدرك أن هذا الخطر يملأ الوجود، وأنه أقوى منها، وأقوى من أبنيتها، ولذلك فهي تشعر أنها لا تمتلك فى مواجهة هذا الخطر إلا أن تحبى أبنيتها منه، وذلك بأن تخفيها من الوجود تماما.

وهذا هو سبب خوفها من السير فى الشارع. كانت زينب حين تسير فى الشارع تخاف من أن تلقي بنفسها تحت العربات. حينما طلبت منها أن تفسر لى ماذا تشعر وهي تسير فى الشارع، قالت : أشعر كأننى أسقط تحت العربات.

وسألتها : كيف تسقطين ؟

قالت : لا أدري ، ولكنى أحس أن قوة خفية تدفعنى من الخلف تحت العجلات .

ان هذه القوة الخفية لم تكن إلا رغبة زينب نفسها فى أن تقتل نفسها. وهي رغبة منطقية جداً تتمشي مع رغبتها فى قتل أبنيتها. والخوف الذى تشعر به أيضاً خوف منطقى جداً، لأنها تحب نفسها، وتحب طفلتها أيضاً. وبسبب ذلك الحب هى تحاول أن تحمى نفسها وتحمى طفلتها من الموت. وكم يكون شاقا على الإنسان أن تضيق به سبل الحياة جميعاً فلا يجد طريقاً يسلكه إلا الموت. أو لا يجد طريقاً يهرب به من الموت إلا الموت ذاته.

وقالت لى زينب بعينين منكسرتين حزينتين جداً : الموت أرحم

يادكتورة مما أنا فيه، ليتنى أموت، أعطينى دواء يميتنى ويريحنى.
ولم يكن فى استطاعتى أن أكتب لها أى دواء. وماذا كنت أكتب لها:
تلك الأقراص الجديدة فى الطب النفسى التى يسمونها أقراص السعادة.
ان مثل هذه الأقراص فى رأى تشبه عصا الحمارى حين يرفعها فى الهواء
ويقول أنها ستتحول إلى عصفور.

لم أكتب لها أى دواء، لكنى قابلتها ثلاث مرات، وفى كل مرة كنت
أتحدث معها مايقرب من ساعتين، حاولت معها أن ألقى بعض الضوء
على حياتها وأسباب خوفها.

فأن الاسرة التى نشأت بها لم تكن أسرة ريفية فى الريف، حيث
يكون للنساء نوعاً من الحرية فى الذهاب إلى الحقل والعمل والاختلاط
بالناس ذكوراً واناثاً. ولم تكن من الأسر المثقفة المتحضرة نوعاً ما من
حيث يكون للنساء نوع من الحرية فى الذهاب إلى النوادى أو الجامعة أو
العمل. ولكنها تلك الأسرة المتوسطة أو تحت المتوسطة، التى تعيش فى
المدن، والتى تسيطر عليها التقاليد المتزمتة والآباء أنصاف المتعلمين
الذين هم أشد جهلاً من الجهلاء الذين لا يتعلمون شيئاً ويتصرفون
بفطرتهم وطبيعتهم.

ويتصف معظم هؤلاء الآباء بالإضافة إلى التزمت، يتصفون بالتطلع
إلى الطبقة الأعلى. بل أن تزمتهم الشديد ليس له من سبب سوى
تطلعهم الشديد. ان الأب لا يتردد لحظة فى التضحية بأبنته من أجل

الصعود درجة فى السلم الاجتماعى. وقد فعل ذلك أبو زينب. لقد أستغلها ، ومص دمها ، من أجل أن يصعد درجة فى المجتمع.

أستغلها قبل الزواج حين قطع تعليمها وشغلها وأستولى على مرتبتها. وأستغلها بأسم الزواج حين باعها لزوج من الطبقة الأعلى. كل هذا الاستغلال يحدث فى جو من التزمت الاخلاقي الشديد، والطاعة العمياء للأب ،التي يسمونها فى تلك الطبقة احترام الأب.

وسألت زينب : كنت تحترمين أباك ؟

قالت بصوت ضعيف :جدا. لقد عودنا على أن نقف حين يدخل، وأن نقبل يده حين نصافحه.

سألتها :وأملك؟

قالت : كانت أمى امرأة طيبة، مكافحة، تشتغل طوال النهار فى البيت والطبخ، وبالليل تجلس على الماكينة تحبك الملابس.

سألتها :ماذا كان شعورك نحوها ؟

قالت : شعور عادي. لم أكن أحترمها مثل أبى، لكنى كنت أشفق عليها، وأحيانا حين تقف فى صف أبى أشعر أنى أكرهها.

وسألتها : ألم تشعرى بالحب لاحد من الشباب ؟

قالت : لا . كنت أخاف من الصبيان، وكان أبى ينبهنى دائما للمحافظة على نفسى وإلا أثق بأى شاب. وفعلت كنت أشك فى أى شاب.

سألتها :والجنس؟

قالت : مع زوجى .

قلت : هل كان هناك جنس آخر ؟

قالت : لا .

قلت : إذن مع زوجك .

قالت : الحقيقة يادكتورة أنا لا أحب الجنس . أبى كرهنى في جميع الرجال .

سألت : هل أجروا لك عملية الختان ؟

قالت بالطبع ، هذا تقليد فى العائلة كلها .

سألتها : هل شعرت بالخوف يوم عملية الختان ؟

ضحكت وقالت : بالطبع ، هربت من الداية فوق الدولاب ، لكنهم أمسكونى فى النهاية .

كانت زينب امرأة طيبة هادئة ، لم يكن من الممكن لها بعد التربية التى تربتها أن تكون امرأة عنيدة رافضة أو ثائرة على الأوضاع فى حياتها .

ان عجزها عن الرفض والتمرد والثورة ، هو الذى ، أصابها بذلك العصاب ، أو حالة الخوف والفكرة المتسلطة التى تخاف منها .

انها لو أستطاعت أن ترفض وأن تثور لتخلصت من هذا العصاب . لكن مثل هذه التربية الصارمة المغلفة من الخارج بقشرة من الحب ، تخدع الانسان وتوهمه أن كل شئ علي مايرام ، وأنه ليس هناك سبب يجعله

يثور. وتقضي السنين على هذا النحو، ولا يفيق الانسان إلا على صدمة الموت. واكتشاف الحقيقة المرة، أنه فقد نفسه وأنه مات، وهو على قيد الحياة. كما حدث لزينب . ان الحياة القاسية الصعبة الواضحة القسوة أفضل بكثير من هذه الحياة، لأن الانسان يستطيع أن يثور عليها. ويجد من الأسباب الواضحة التي تجعله يثور مبكراً في حياته قبل أن يستفحل الأمر ويحدث الموت.

ان الموت في حياة الانسان أنواع متعددة، أحدها هو الموت البيولوجي . وهو موت الجسم. وأن الناس (بالذات الرجال) يحرصون على أن يعيشوا اجتماعياً ومهنياً وسياسياً وبيولوجياً ايضاً. ان الموت النفسى هو أن يعيش الانسان بيولوجياً فقط، ويموت في المجالات الفكرية والنفسية والاجتماعية.

أن كثيراً من الناس يتصورون أن الموت البيولوجي هو الموت الوحيد الذى يمكن أن يحدث لهم. ولهذا هم يموتون نفسياً وفكرياً، ولا يصابون بالعصاب. أو لا يشعرون بالخطر لأنهم لا يرونه وغير واعين به. ان مرض العصاب ليس إلا «نور أحمر» تشعله النفس علامة الخطر. ان المحظوظين فقط من الناس هم الذين يرون «النور الأحمر» هؤلاء الذين حظوا بقدر كبير من الحساسية والذكاء، والذين ارتفعوا كثيراً عن مجرد أن يعيشوا بيولوجياً ، أو يأكلون ويشربون وينامون ويتناسلون فقط. وحينما نظرت في عيني زينب رأيت الحساسية والذكاء، وأدركت أن

زينب لن تشفى من عصابها وحالة الخوف عندها إلا بأن أؤكد لها أن الخطر موجود فعلا، وأنها على حق فى خوفها. وأنها لكى تنقذ نفسها من الموت المحدث بها، لابد أن تعيش فكراً ونفسياً واجتماعياً، وذلك عن طريق العمل.

ولمعت عينها ببريق خاطف وقالت : «ياريت يادكتور، ياريت تشوفى لى شغل . أنا أريد أن أعمل». وطلبت من زينب أن تبحث عن أى عمل لها وأنا بدورى سأساعدها. وفعلا وجدت زينب عملاً فى إحدى الشركات التجارية. لم يكن هو نوع العمل الفكرى الذى تريده ، لكنها زارتنى بعد بضعة شهور. كانت مرحلة نشيطة، وأدركت أنها اجتازت الأزمة بنجاح. وقالت لى زينب بحماس: « ان عملى روتينى ممل يادكتورة لكنى اشتريت بكل ماهيتى كتباً وبدأت اقرأ»

وسكتت لحظة ثم قالت بشئ من التردد والخجل : «وقد بدأت أكتب أيضاً ..»

وسألتها : ماذا كتبت يازينب ؟

قالت بخجل : قصيدة شعر.

سألتها : ولماذا تخفضين صوتك هكذا. هل كتابة الشعر عملية مخجلة ؟

قالت : لا يادكتورة، لكنى وأنا تلميذة بالمدرسة الثانوية كتبت قصيدة شعر وأخفيت بها بين كتبى، لكن أبى عثر عليها، فقد كان يفتش

كتبى من حين إلى حين. وحين قرأها مزقتها، وأمرنى بأن أذاكر فقط،
والأشغل ذهنى بالأمور الفارغة.

وضحكت زينب وهى تناولنى قصيدتها، وقالت : « هذه القصيدة
ليست جيدة يادكتورة، لكنى سأكتب قصيدة أخرى، أنى أشعر بالراحة
وأنا أكتب. وقرأت قصيدة زينب. كانت أفضل فى رأى من كثير من
القصائد التى أقرأها منشورة فى بعض المجلات والصحف. وقلت لها
:أنها قصيدة جيدة يازينب وسأساعدك على نشرها فى إحدى المجلات.
وهنا صاحت زينب من شدة الفرح :صحيح يادكتورة ! صحيح
يادكتورة القصيدة أعجبتك ؟

قلت لها : أفضل من بعض القصائد التى تنشر فى المجلات. فلمعت
عينها بالسعادة، وتنهدت تنهيدة عميقة، وكأنها تقول لنفسها :أخيراً ..
أخيراً... أعثر على نفسى!

وأصبحت زينب صديقة لى حتى اليوم، ولم تعد تشعر بالخوف،
وأصبحت تحتضن طفاتها بكل حنان. وفى المرة الأخيرة التى رأيتها فيها
قالت لى :تعرفى يادكتورة ، أنا لم أكن أتصور أبدا أننى سأشفى.
قلت : أنت لم تكونى مريضة يازينب . أنت كنت شديدة البقظة
ولذلك أدركت الخطر من حولك ومن حول ابنتك.

قالت : تعرفى يادكتورة .. أنا سأبذل كل جهدى لأجعل ابنتى تعيش
حياة أخرى غير الحياة التى عشتها. سأوفر لها أحسن تعليم، وأحسن

كتب، ولن أزوجها ، ولكنى سأتركها هى التى تقرر حياتها بنفسها.

سألتها : وما رأي زوجك ؟

قالت وهى تضحك : ان زوجي رجل طيب يادكتورة ، ليس شديداً
مثل أبى. كما أنه فرح جداً حين شفيت، ويقول لى دائماً : اللي أنت
عاوزاه أعمليه.

علياء

«علياء» شابة طويلة سمراء ، ملامحها حادة قوية ، لا يمكن أن تضع ملامحها من ذاكرة من يراها ولو مرة واحدة. ان عينيها من ذلك النوع الذى يستحوذ على الإنسان ، ويفرض عليه أن يحترم صدقها وذكائها وان بلغ أية درجة من الجنون، أو الخروج عن المنطق المألوف لأغلبية البشر.

قالت لى وفي صوتها رنة خفيفة من السخرية : لم أكن أتصور أننى أدخل عيادة طبيب نفسى فى يوم من الأيام، كنت شديدة الغرور بأرادتى وقدرتى على تحدى العالم، والتعبير عن نفسى بكل صدق وشجاعة، ولم اكن أتصور أن شيئاً يحطمنى ، ولكننى أدركت أن المرأة لا يحطمها إلا زوجها.

وقاطعتها قائلة : « لا أظن أن شيئاً يمكن أن يحطملك. هذا هو احساسى قبل سماعى لمشكلتك». أبتسمت بطريقتها الهادئة المزوجة

بالسخرية الخفيفة وقالت : ولكنى محطمة فعلا يادكتورة. لقد تأكدت من ذلك فى الأيام الأخيرة. فأنا لا أنام إلا بالأقراص المنومة، ولا أصحو إلا بالأقراص المنبهة : ولم أعد أطبق أى شئ فى حياتى، حتى الكتابة التى كانت المنفس الوحيد لى، أصبحت عاجزة عنها. وقد أقدمت على الانتحار عدة مرات. ولا يشغلنى الآن سوى اختيار افضل وسيلة للموت. لقد كنت أظن أن الانتحار دليل الضعف، الجبن، الهروب من الحياة، ولكنى أعتقد الآن أن الانتحار دليل القوة والصلابة ومواجهة الحياة بشجاعة. لم أعد أرى فى الحياة شيئاً يستحق أن أعيش من أجله.

تغيرت ملامحها بسرعة، وكستها مسحة غريبة ومفزعة من الكآبة والحزن، أنتقلت إلى كأنها بالعدوى، فشعرت أن قلبى ثقیلاً، وأخذت أنصت إليها دون أن اقاطعها.

وقالت علياء بعد أن أشعلت سيجارتها : أخرجنى أبى من الجامعة وأنا فى السنة الأولى ليزوجنى من رجل تاجر ثرى. ولكن هذا الرجل طلقنى بعد سنة ونصف السنة أنجبت فيها طفلاً . وكان سبب الطلاق أنه نظر فى وجه طفله بعد ولادته، فأحس أنه ليس ابنه. وأن الطفل لا يشبهه . ودهشت لهذا لأننى كنت صغيرة (فى الثامنة عشر من عمري) ولم أكن أعرف أى رجل آخر. قال أنه يشك فى منذ ليلة الزفاف. لأننى لم أكن عذراء. دهشت أكثر وأكثر، لأننى لم أكن قد أتصلت جنسياً بأى

رجل قبل الزواج. وصارح هذا الرجل أبى وجميع أسرتى بكل شكوكه، وأرسل إلى ورقة الطلاق. ورفع أبى عليه قضية نفقة لى وللطفل، لكننا عرفنا أنه صفى جميع أعماله التجارية وغادر البلاد إلى كندا، ومعه زوجة أخرى. وأصبحت أنا وطفلي نعيش فى كنف أبى، الذى كان يتذمر دائماً من طفلى، وكثرة المصاريف، ويلمح لى دائماً بأن شكوك زوجي ربما كانت حقيقة. لكنى كنت أؤكد له دائماً أن زوجي كان كاذباً فى شكوكه، وأنه تعلق بكل هذه العلل ليطلقنى فى ظل تلك الفضيحة التى تسهل عليه التهرب من دفع النفقة لى وللطفل، حتى يغادر البلاد مع زوجته الأخرى. كانت حياتى أنا وطفلي فى بيت أبى جحيماً، ومهانة. ولم تكن أمى تملك شيئاً ولا أخوتى الستة الصغار. وفكرت فى أن أعمل بالثانوية وأعول نفسى وطفلى. وكنت أشعر برغبة شديدة للكتابة، وكتبت قصة قرأتها لأحدى صديقاتى ، فأعجبت بها جداً، وشجعتنى على أن أحاول نشرها فى إحدى المجلات. وأخذ عنها أجراً.

وحصلت على عمل كتابى بأحدى المؤسسات الصحافية. وبالرغم من أن عملي لم يكن فنياً، إلا أن جو العمل هياً لى الاتصال ببعض الصحفيين والكتاب. وبدأت أفهم الحياة، وأقرأ كثيراً، وأكتب من حين إلى حين.

ثم قابلت زوجى الحالى، وهو محام. وأحبنى وأحبته وتزوجنا منذ خمسة عشر عاماً، وأنجبت بنتين. وبذلك أصبح لدى ولد وبنتان. صارحت

زوجى قبل الزواج بكل ما حدث لى فى حياتى قبل أن أقابله، وصدقنى وطلب منى أن أنسى ما فات، وأن أفكر فى المستقبل. وفعلاً فعلت ذلك. وبدأت أعمل من أجل مستقبلى ككاتبة، فقد أحسست أن الكتابة هى مستقبلى الوحيد. وكنت أفرح كلما نشرت لى قصة، وحازت أعجاب بعض الناس. ولم يكن ينغص على فرحتى إلا زوجى، الذى بدأت أدرك أنه يحاول أن يعطينى عن الكتابة. وكان يتعلل بأن الكتابة تشغلنى عنه وعن البيت. لكنى عرفت أنه يفار من أى نجاح أدبى أحصل عليه. وبدأ يظهر ضيقه كلما تقدمت فى الكتابة وعرفنى الناس، وإذا نشرت عنى إحدى الصحف خبراً، أو نشرت صورتى، فالويل لى فى هذا اليوم. ان زوجى لابد أن يعتمد مشاجرة فى البيت لأتفه الأسباب. وكنت أتحمّل زوجى لأننى كنت أحبه، وكنت أحب أسرته وأولادى، ولا أريد أن تتحطم حياتى الزوجية للمرة الثانية. وكان زوجى يقسو على كلما تحمّلته، وكلما تنازلت عن حق من حقوقى من أجل ارضائه، طمع فى المزيد. وظللت على هذا النحو حتى وجدتنى فى النهاية قد تنازلت عن كل مستقبلى الأدبى، ولم أعد أكتب، ولم أعد أنشر شيئاً، وأصبحت منعزلة عن الحياة الأدبية كلها، ولم يعد زوجى يجد أى سبب للتشاجر معى. لكنى بدأت أشعر بالصداع والأرق، وشعرت بكراهية لحياتى ورغبة فى الموت. وذهبت إلى طبيب نفسى، فأعطانى أقراصاً مهدئة أقراصاً منومة، ونصحنى بأن أحاول الكتابة مرة أخرى. لكنى أصبحت

عاجزة عن الكتابة ، وعاجزة عن التفكير عن شيء، أو التركيز. كراهيتي
لزوجي تزيد يوماً بعد يوم، لأنني أشعر أنه السبب فيما حدث لي، ولم
أعد أشعر معه بأية رغبة عاطفية أو جنسية. وقد أتهمني منذ شهر
بالبرود الجنسي، وهددني بأنه سيذهب إلى امرأة أخرى فلم أشعر بأي
اهتمام. بل شعرت بشيء من الراحة. لأنه سينشغل بأمرأة أخرى عني.
علاقتي بأولادي لم تتغير كثيراً ، لكنني أشعر أنني أصبحت أكثر
ابتعاداً عنهم ، وأكثر رغبة في الانطواء على نفسي. وفي احدي الليالي
كنت مؤرقة، وأشعر بصداع شديد واختناق. وحينما رأى زوجي حالتي
ثار وغضب، وقال أنه لا يعترف بشيء اسمه مرض نفسي، وأنه لا يرى أي
سبب في حياتي يدعوني إلى الاكتئاب. وأنتى يجب أن أحمد الله لأننى
عثرت على زوج رضى أن يتزوجنى رغم الماضى الذى عشته. وكدت
أصعق من قسوة الكلام الذى قاله لى، والذى أكد لى فيه أنه لم ينس أبداً
ماقلته له، وأنه كان يشك فى أيضاً، وأن من الأفضل لنا أن ننفصل.
وأعترف لى صراحة أنه تزوج امرأة أخرى. وفى اليوم التالى أرسل إلى
ورقة الطلاق.

وسكتت علياء قليلاً لتستريح ، ونظرت إلى فى تساؤل قائلة : إلا
ترين يادكتور أن هذا الزوج حطمنى ؟
قلت لها : أنت التى حطمت نفسك حين تخليت عن الكتابة وهجرت
الفن الذى كان يعطيك معنى للحياة.

قالت : ولكنى فعلت ذلك من أجل ارضاء زوجى وعدم تخطيم حياتى الزوجية.

قلت لها : ولكن حياتك الزوجية تخطمت رغم ذلك ، أليس كذلك ؟
قالت : نعم.

قلت : إذن كان من الأفضل إلا تهجرى الكتابة أبداً. ان الكتابة جزء من نفسك، لا تستطيعي أن تعيشي غيرها. أما زوجك فلقد عجزت أن تعيشي معه قبل أن تنفصلا رسمياً بالطلاق. لقد انفصلت عنه منذ فقدت رغبتك العاطفية والجنسية نحوه. ولم تكن حياتكما معاً بعد ذلك إلا نوعاً من الطلاق غير الرسمي. وإننى أعتقد أن حالتك ستتحسن كثيراً بعد هذا الطلاق، وأنت ستعودين إلى الكتابة، وتجتازين هذه التجربة القاسية بنجاح كما أجتزت غيرها من قبل.

قالت : لا أظن أننى سأستطيع هذه المرة.

قلت : ستستطيعين يا علياء . أنت نوع من الناس الذين لا يمكن أن تهزمهم الحياة.

تساءلت بدهشة : كيف عرفت ذلك ؟

قلت لها : أرى ذلك فى عينيك .

ابتسمت ابتسامة واهنة ، وشدت قامتها بعض الشيء ،وقالت : كنت أحس ذلك، ولكن الآن .. أحس أننى تخطمت.

قلت لها : لا شئ قادر على تخطيمك مادمت قادرة على الحصول على

ورقة وقلم.

وأبتسمت أكثر اشراقاً وتساءلت : أتظنينا أننى سأستطيع أن أكتب مرة أخرى بعد كل هذا التوقف.

قلت لها : أنت لم تتوقفى يا علياء. لقد كنت تقاومين دائما. وهذا الصداع والأرق والتعب النفسى، لم يكن إلا نوعاً من المقاومة . أنك لم تستسلمى أبداً. وسوف تكون كتاباتك أكثر نضجاً وخبرة بالحياة. وحينما نهضت علياء وصافحتنى أحسست من يدها وهى تشد على يدى كأنها تمدنى بشئ، وأنها قادرة على الوفاء أحسست بهذا العهد.

كاميليا

كاميليا امرأة فى الخامسة والعشرين ، نشأت فى أسرة متحررة، لا تفرق فى المعاملة بين ائولد والبنت. ودخلت كاميليا الجامعة، وتخرجت، وأشتغلت بأحدى الوظائف. أحبت أحد زملائها فى العمل، وبادلها الحب، وتطورت العلاقة حتى بلغت العلاقة الجنسية. شعرت بالسعادة معه، ورغبت فى الزواج منه لكنه لم يفتحها فى موضوع الزواج، فبدأت هى بمفاتحته على أساس الحب الذى بينهما. لكنها فوجئت بأنه بدأ يتهرب منها، ثم قطع علاقته بها تماماً، وعرفت أنه خطب ابنة خالته، وهى بنت فى السابعة عشر.

تغلبت على الصدمة النفسية، وأستمرت فى عملها وحياتها. وفى يوم عرفت من زميلتها أن ابن عمتها وهو مهندس ناجح، يريد التقدم

للزواج منها. فكرت بينها وبين نفسها فى الموضوع، وأدركت انها لا يمكن أن تعيش بغير زواج، كما أدركت أن معظم الرجال لا يتزوجون الفتاة التى تنشأ بينها وبينهم علاقة حب قبل الزواج. وقررت أن تتزوج ابن عمتها. فهو ناحج، وهو يريد لها، وهى لا تكرهه، وربما تحبه بعد الزواج. لكن المشكلة أمامها كانت تلك العلاقة انسابقة التى حدثت فى حياتها. وكانت تعلم أن ابن عمتها لن يسكت إذا أكتشف ليلة الزفاف أنها غير عذراء، سألت احدى صديقاتها عن حل المشكلة، فأخذتها صديقتها إلى طبيب، حيث أجرى لها عملية جراحية بسيطة، وأعاد لها عذريتها نظير عشرين جنيهاً.

بدأت كاميليا تستعد للزواج، واشترى لها أهلها الجهاز، وأخذت تسمع كلمات الحب من خطيبها، وكانت تتوقع أنها ستكون سعيدة. لكنها بدأت تشعر بالأرق والصداع وآلام فى أماكن متعددة فى جسمها. وكلما دعاها خطيبها للخروج، تشعر برغبة فى النوم وعدم الخروج. لم تكن تعرف السبب فى تلك الحالة، فهى لا تكره خطيبها، وتريد الزواج منه، لكنها لا تستطيع مقاومة حالة الأرق والقلق الذى أصابها. ذهبت إلى أحد أطباء النفس، فأعطاه أقرصاً منومة ومهدئة، وقال لها أن معظم البنات يشعرن بقلق قبل الزواج، بسبب الخوف القديم منذ الطفولة، وأن هذا القلق سيضيع تماماً بعد الزواج.

وتزوجت كاميليا ابن عمتها، وكانت تتوقع أن يزول عنها الأرق

والقلق بعد مرور ليلة الزفاف على خير. ومرت ليلة الزفاف على خير، ومرت ليال أخرى كثيرة على خير، لكن الأرق والقلق ظلا ملازمين لكاميليا، بل زادا . وبدأت تشعر أحياناً بعدم القدرة على النهوض من السرير والسير. وأنتابتها حالات من البكاء الطويل، أو الضمت الطويل، أو الشرود الطويل، وبدأ زوجها يضيق بها، بعد أن أخذها لعدد من الأطباء الذين لم يستطيعوا شفاء ها.

وسألت كاميليا : هل ذكرت قصة حبك السابق للطبيب النفسى، وقصة العملية الجراحية وإعادة العذرية.

وقالت كاميليا : لا.

وسألتها : لماذا ؟

قالت : لم أستطع. خشيت أن يخطئ الطبيب ويقول لزوجى أو أحد أفراد أسرتى. ثم أن هذا الموضوع فات علي خير، وكان لابد أن يضع القلق أو أنه السبب.

قلت لها : لكن القلق لم يذهب، لابد إذن أن يكون هناك سبب آخر. قالت : نعم، ولكنى لا أعرف هذا السبب الآخر. لقد كنت مرحة، وكنت أحب الحياة، وكنت مقبلة على كل شئ، والآن أنا عكس ذلك تماماً، لم أعد مرحة ، ولم أعد مقبلة على أى شئ. كأننى أصبحت واحدة أخرى غير كاميليا التى كنت أعرفها.

قلت لها : هذا هو سبب القلق. لقد تخليت عن نفسك الحقيقية،

وعشت بنفس أخرى مزيفة ليست هى حقيقتك.

قالت : بالضبط . منذ اليوم الذى خرت فيه من عيادة الطبيب بعد أن أجرى عملية إعادة العذرية، شعرت كأننى أضاع على وجهى قناعاً وأرتدى شخصية أخرى مزيفة.

قلت لها : ولأنك بطبيعتك وتربيتك انसानه صاده، لهذا أنت تصارعين هذا الزيف بذلك القلق والعصاب.

قالت بأسى : أنا اكراه الكذب، وأتعذب أن أكذب، ولكن ليس أمامى طريقاً آخر وإلا تحطمت كل حياتى.

قلت لها : أنت تحطمين نفسك الحقيقية، وتتصورين أن حياتك يمكن أن تظل من الخارج بالشكل الذى يقبله المجتمع.

قالت : الناس يهملها الشكل الخارجى فقط، أما الداخلى فلا أحد يهتم به .

قلت لها : ولكنك لست من هؤلاء الناس الذين يمكن أن يعيشوا على الكذب، ويرتدون شخصيات أخرى غير حقيقتهم.

قالت : نعم، ولهذا أنا أتعذب.

قلت لا: هذا العذاب يدل على أن جزءاً من نفسك الحقيقية لازال يقاوم. وقد ينتصر يوماً وترفضين الزيف، وقد ينهزم تماماً وتعيشين كما

يعيش معظم الناس، فأيهما تفضلين ؟

قالت فى حيرة : لا أدرى.

قلت لها : لا أدري هذا يتوقف عليك، وعلى هدفك من الحياة. إذا كان هدفك من الحياة هو الاستقرار في حياتك الزوجية الحالية بأي شكل وبأي ثمن، فسوف ينهزم الجزء الباقي من نفسك الحقيقية بمزيد من الاقراص المهدئة والمثومة، وتشفين من الأرق، والقلق، وتقبلين الزيف والكذب كأشياء طبيعية في الحياة. أما إذا كان هدفك هو أن تكوني نفسك الحقيقية، وأن تطوري هذه النفس لتكون أكثر صدقاً وأكثر عظمة وأكثر نفعاً للمجتمع وتطوره إلي الأفضل، فسوف ينتصر الجزء الحقيقي من نفسك وترفضين الزيف وتخلعين القناع، حتى ولو تحطمت حياتك الزوجية الحالية.

وحين نظرت إلي وجهها رأيت شاحباً، ولم أستطع أن أخمن من شحوبها النتيجة النهائية للصراع في أعماقها.

ويبدو أنها كانت تريد مني أن أحدد لها طريقها، فسألتني قائلة : لو كنت مكاني يادكتورة ماذا كنت تفعلين؟
وقلت لها : أفضل نفسي الحقيقية.

ورأيت ابتسامة لأول مرة على وجهها، وقالت بصوت جديد لم أسمعه من قبل : وأنا أيضاً.

نحوه

فتاة فى الحادية والعشرين، طالبة بالسنة النهائية بالجامعة. تعاني من تبلول لا ارادى بالليل وبالنهار، وصداع ، وبكاء قد يستمر طوال النهار والليل. وهى فتاة ذكية حساسة، متفوقة فى دراستها رغم كل هذا، ولم يبق أمامها للتخرج سوى بضعة شهور. لكن التبول اللاارادى يسبب لها كثيراً من الحرج والمشاكل. تشعر أحياناً برغبة فى الانتحار، ولكنها لا تقدم على الفعل. ذهبت إلى عدد من أطباء. النفس وأعطيت أنواعاً مختلفة من الأقراص دون جدوى. قالت لى أن أحد أطباء النفس الذين ذهبت إليهم سألها عن اسمها وأسم أبيها وعمله، ثم شخصها فوراً وكتب فى أوراقها : اكتئاب وقلق. ودهشت كيف يشخص هذين المرضين بعد سؤالين عن اسمها وأسم أبيها وعمله. وحينما أبدت اعتراضها على ذلك، لأنه لا يعرف عنها شيئاً ولم يفحصها، وأنها لن تأخذ الأقراص

التي كتبها لها صرخ فيها قائلاً : هذا شغلى أنا.

نشأت نجوى فى أسرة متوسطة الحال، الأب موظف بشركة (تعليم متوسط) ، ولها أخ يكبرها بعامين، ولها أخ أصغر وأخت واحدة. ماتت أمها وهى فى التاسعة من عمرها ، وعرفت من عمتها وخالتها أن أمها كانت تعيش فى حياتها مع زوجها. وأنها طلبت الطلاق منه ولم يطلقها. وأنها ماتت وهى فى الثلاثين من عمرها لمرض ما فى قلبها. وعاشت نجوى مع أبيها وأخواتها. وتصف نجوى أباه بأنه رجل شديد القسوة، لدرجة أنه من حين إلى حين يطرد أولاده وبناته فى الشارع، ويقول لهم أنه غير ملزم بأطعامهم. ويضطر الأولاد والبنات إلى الذهاب إلى عمتهم أو خالتهم، حيث يتعرضون لقسوة أشد، فيعودون إلى أبيهم . وبالطبع فشل الأولاد والبنات فى دراستهم ، ولم يكملوا التعليم، إلا نجوى التى أتمت بسبب ذكائها. لكنها لم تكن تحصل على تقديرات جيدة بسبب أنها تطبخ لأخواتها وتغسل لهم وتخدم الأب ايضا، الذى كان يعاملها بقسوة شديدة كأنها خادمة وأقل. وحينما تطلب منه أن يعاملها بهدوء (دون أن يسبها) يقول لها : «أنا تعودت على ذلك، والبنات خلقت لتخدم ولتسب، وإذا لم يعجبك الحال فالباب واسع والشارع واسع». وكانت تضطر أن تخضع من أجل أن تستمر فى دراستها التى كان يهددها دائماً بأنه لن يدفع لها المصاريف، مما اضطرها إلى الاستدانة، وعمل «قرض» من الجامعة تسدده بعد التخرج.

الأب له شخصية هادئة أمام الناس والأقارب، ولكنه في البيت يصبح شرساً وقاسياً. تقول نجوى أنه يتصور نفسه أباً مثالياً لأنه يأويهم في البيت ويطعمهم.

أجريت لها عملية الختان وهي طفلة في السادسة من العمر. وكذلك أختها. وكذلك جميع بنات العائلة. مارست نجوى العادة السرية في الطفولة والمراهقة، وتمارسها الآن على فترات متباعدة. تشعر بحنين جارف لمح رجل، لكن مشكلة التبول اللاإرادي تجعلها تخاف. ولم تتصل بأحد من الجنس الآخر سوى بعض المشاعر العاطفية من طرف واحد، من ناحيتها هي فقط.

قسوة الأب على بناته أشد من قسوته على أولاده، ويفرق في المعاملة بينهما، ويتحيز للأولاد رغم فسادهم وانقطاعهم عن الدراسة. الأب كان يضرب أولاده وبناته بشدة بالعصا والكرياج، وهم جميعاً يخافون منه. يكذب أمام الناس ويتظاهر أنه يعاملهم برقة، وإذا صرح أحد أولاده أو بناته بما يحدث حقيقة، ضاعف الأب من قسوته عليه أو عليها.

تقول نجوى أنها محاطة بالقسوة والكراهية، من الأب، ومن أخيها الأكبر، لأنها تكمل دراستها الجامعية وهو لم يكمل دراسته. يعاملها أخوها بقسوة وكراهية. أختها الأصغر فشلت في دراستها، وأصبحت من أجل أن تحصل على ملابسها تخرج من حين إلى حين مع الرجال،

وتأخذ منهم بعض المال. وبالطبع تعرف نجوى عنها كل شيء، لكنها
تتظاهر بأنها لا تعرف، لأنها تحب أختها وتشفق عليها من أبيها القاسي.
وتسألنى نجوى بحيرة : هل يمكن يادكتورة أن تغير الأقراص من
ظروفي التي أعيشها ؟ ليس امامي الآن إلا الانتحار.

قلت لنجوى أنها قطعت شوطاً كبيراً في دراستها، ووصلت إلى السنة
النهائية، رغم كل ظروفها القاسية. وأنها لو تخرجت، وأشتغلت، وتركت
بيت أبيها، فسوف تتخلص من كثير من المشاكل. ولم يكن باقياً على
تخرجها إلا شهرين . وطلبت منها أن تتحمل هذين الشهرين بأي شكل .
لكنها قالت لى : كنت أتمنى أن يكونا شهرين فقط يادكتورة، ولكن أبى
بعد تخرجى لن يوافق على أن أترك البيت. كما أننى لن أعمل بعد
التخرج مباشرة، وربما أنتظر عاماً كاملاً حتى أجد عملاً. وهذا أيضاً
سبب شقائى. ثم أن أبى بعد أن أحصل على عمل، سوف يستولى على
مرتبى بالقوة. ولن أتخلص منه أبداً.

ولم تنجح نجوى من التخلص من التبول اللاإرادى رغم مواظبتها على
أدوية الأطباء طوال العامين الماضيين. وكانت تتصل بى من حين إلى حين
تليفونياً، وتشكو لى من حياتها في البيت، وأنها غير قادرة على
المذاكرة. وأن الأقراص التي تأخذها تسبب لها اختناقاً، وتود لو أمتنعت
عنها، لكن طبيبها يصر على هذه الأقراص.

وأخفت نجوى شهراً أو أكثر، وظننت أنها مشغولة بالامتحانات. لكن

صوتها جاءنى يوماً من خلال التليفون. وسألتها عن حالتها، فقالت :
أبى دخل مستشفى الدمرداش الاسبوع الماضى، صدمته عربة وهو عائد
إلى البيت ليلاً، ونقلوه إلى المستشفى.. وقال لى الطبيب أن الإصابة فى
العمود الفقرى، وأنه أصيب بشلل فى نصفه الأسفل وسوف يظل راقداً
بقية حياته.

وأحسست أنها فى حاجة إلى، فطلبت منها أن تزورنى. وجاءت نجوى
. ورأيت على الفور أنها تغيرت، وأن شيئاً ما تغير فى ملامحها
ونظراتها. وسألتها عن صحة أبيها. فقالت أنه نقل إلى البيت، وأنها
تخدمه هى وأختها ليل نهار، وأنهما يشفقان عليه كثيراً، فقد أصبح
كالطفل الصغير. ولم يعد ينادى نجوى إلا بأبنتى الحبيبة نجوى. وأطرقت
نجوى إلى الأرض، ومسحت دموعها بمنديلها. لكنها حين رفعت عينيها
إلى لاحظت أن شيئاً تغير فيها.

وسألتها : وكيف حالك أنت يا نجوى ؟

قالت : تصورى يادكتورة، لقد نسيت مرضى تماماً فى مرض أبى. لم
أعد أشعر بأى صداع أو اختناق.

سألتها : والتبول اللاإرادى ؟

قالت : منذ اليوم الذى نقل فيه أبى من المستشفى إلى البيت لم أبلل
فراشي ولا ليلة حتى اليوم.

سألتها : كيف تعللين ذلك ؟

قالت : أنا أحس أنني تغيرت يادكتورة ، منذ رأيت أبى يتحول فجأة من رجل جبار قاس إلى طفل ضعيف يبول فى فراشه ولا يستطيع أن يضع الطعام فى فمه إلا بمساعدتى أو بمساعدة أختى. هذه الصدمة جعلتنى أفيق من كل آلامى السابقة. وأن أقف على قدمى لأتولى مسؤولية الأسرة، خاصة وأن أخى منذ علم بحادث أبى اختفى من البيت ولا نعرف أين ذهب.

وسألتها : وكيف حال المذاكرة ؟

قالت بأسى : لن أدخل الامتحان هذا العام لأنى غير مستعدة. ولكنى مصممة على التخرج العام القادم، لأشتغل وأعول الأسرة. تصورى يادكتورة أن معاش أبى لا يكفى ابجار الشقة. لكن أختى اشتغلت فى محل تجارى، وسوف تساعدنا حتى أخرج.

ليلى

هى موظفة بأحدى الوزارات، ورغم أنها متخرجة فى كلية الآداب، إلا أنها تعمل عملاً كتابياً لا علاقه له على الإطلاق بما تعلمته أو بما كانت تطمح فى عمله. تعالج ليلى منذ عام عند أحد أطباء النفس من حالة اكتئاب. ليلى وصفت لى حالتها كالآتي : «أصحو من النوم الساعة الخامسة صباحاً، لأحضر الأفطار لزوجى وأطفالى، ويخرج زوجى إلى عمله، ويذهب الطفلان الكبيران إلى المدرسة، ويبقى الطفل الثالث الصغير معى، وأحماله على كتفى وأسير حتى بيت حماتى على بعد حوالي كيلو مترين من بيتى. وأحياناً أركب الأتوبيس، ولكنى أفضل السير عن بهدلة الطفل فى الأتوبيس. وأترك الطفل لحماتى التى تتلذذ دائماً من الطفل، وأن صحتها لم تعد تحتمل تربية الأطفال، ويكفيها أنها ربت سبعة أولاد من قبل. وبعد أن أترك الطفل، أركب الأتوبيس

إلى الوزارة. وأن عملية انتظار الأتوبيس والركوب والوصول إلى عملي
يستغرق منى علي الأقل ساعتين. بالإضافة إلى الأهانة التي أشعر بها
وأنا داخل الأتوبيس، وجسدى محشور بين أجساد الرجال. ومعظم الرجال
مكبوتون جنسياً، ولذلك كثيراً ما أهبط من الأتوبيس قبل وصولي،
وأسير بقية المسافة على قدمي. وحين أصل إلى عملي، أكون منهكة
القوى والأعصاب. ويقابلنى رئيسى فى العمل كل يوم بالتأنيب الشديد،
لأنى أتأخر عن العمل كل يوم تقريبا، بالإضافة إلى الأجازات المتكررة،
حين أضطر للبقاء مع طفلى بالبيت إذا مرض، أو إذا مرضت حماتى ولم
تستطع رعايته فى ذلك اليوم، أو إذا مرضت أنا وشعرت بالإنهاك
العصبى أو النفسى الشديد ولم أستطع النهوض من سريري.

بحثت عن خادمة أو دادة للطفل تبقى معه فى البيت وتساعدنى فى
أعمال الطبخ والغسل والتنظيف، ولكنى لم أجده. معظم الخادومات الآن
يطلبن أجوراً عالية لا أستطيع دفعها. قلت لزوجي ذات يوم أننى سأترك
عملي واتفرغ لأطفالى والبيت والطبخ، لأنى لا أستطيع أن أجمع بين
كل هذه الأعمال والوظيفة. وبحثنا الموضوع، وأتضح لنا أننا لا يمكن لنا
أن نعيش بمهية زوجى فقط. فأضطررت إلى الاستمرار فى وظيفتى رغم
الأرهاق الجسدى والنفسى. زوجي يعود فى الرابعة بعد الظهر منهكاً
وفى حاجة إلى أن يأكل ويستريح. وأنا أعود قبله بساعة واحدة،
(الساعة الثالثة)، وفى هذه الساعة رغم إرهاقى أطح بسرعة الغداء.

وأحضر الطعام لزوجي وأطفالي العائدين من المدرسة . حين ينام زوجي بعد الغداء، أذهب إلى بيت حماتي لأحضر طفلي. وفي الليل أجهز العشاء للجميع، وأساعد طفلي في المذاكرة. وفي الساعة العاشرة مساءً أو بعد ذلك، أضع جسمي في السرير وأنا أشعر بكل أوجاع العالم. ولا ينقذني من أوجاعي إلا النوم. زوجي ينتهي عمله حين يصل إلى البيت الساعة الرابعة، ويأكل وينام، وفي المساء يخرج. ويقول لي أنه ذاهب لزيارة بعض أصحابه. وحين أطلب منه أن يبقى معي بالبيت ويساعدني، تحدث مشاجرة، ويقول أنه لا يطيق الجلوس في المساء في البيت. وقلت له أنني أيضاً لا أطيق البقاء في البيت والقيام بكل هذا المجهود وحدي. لكنه يقول لي أن كل الزوجات يعملن في البيوت، وكل الرجال يخرجون في المساء. وهذه هي طبيعة الحياة. كنت أشعر ببعض اللذة الجنسية في أول الزواج. لكنني الآن بسبب جسدي المنهك وأعصابي المنهكة، فأنا لم أعد أحتمل الجنس، وأفضل عليه النوم والراحة. ويظهر زوجي الغضب كثيراً حين أقول له أنني متعبة. فتحدث مشاجرة، ويرتدي ملابسه ويخرج، ولا يعود إلا قرب الفجر. وأصبحت أضطر إلى تلبية رغبته رغم تعبى، وأصبحت العملية الجنسية عبئاً جسدياً ونفسياً في حياتي. وزادت من أعبائي عبئاً. أنني الآن في الثانية والثلاثين من عمري، ولكنني أشعر أنني لم أعد شابة، ولم أعد أجد أي لذة في أي شيء في حياتي، وأشعر بامكتئاب من حين إلى حين، وأحياناً لا أنام إلا بالأقراص

المنومة. وحين سألتني الطبيب النفسى عن حياتى الجنسية، وقلت له
أننى لم أعد أحب الجنس، قال اننى مصابة بالبرود الجنسى، وأعطانى
بعض الاقراص والحقن. ولم أشعر بأى تحسن، بل زادت حالتى سوءاً.
خاصة وأن زوجى أصبح يهملنى ويخرج كل ليلة، وأننى احس أنه عرف
امراً أخرى. وأشعر بقلق شديد خوفاً من أن يطلقنى. ولا أعرف ماذا
أفعل وحدى بهؤلاء الأطفال الثلاثة. ان حياتى لم تعد تطاق، وأصبحت
أعصابى على وشك الانفجار. وأخشى أن أفقد السيطرة على نفسى
تماماً، وتراودنى أفكار تخيفنى، منها فكرة الانتحار. والراحة الكاملة فى
الموت. ولكنى أتراجع عن الفكرة حين أفكر فى أطفالى، وأن أحداً لن
يرعاهم بعدى. خاصة وأن زوجى من النوع الذى لا يطبق رعاية
الأطفال، ويقول أنها مهنة المرأة والرجل غير مسؤول عن رعاية الاطفال.
مع أن زوجى متعلم ومتخرج مثلى فى الجامعة.

وقلت لللىلى ان حياتها صعبة بغير شك، وأنها ليست وحدها التى
تعانى، وأنما آلاف الزوجات العاملات يعشن الحياة المرهقة التى تعيشها
هى. وأن زوجها ليس الرجل الأنانى الوحيد الذى لازال يرفض مشاركة
زوجته أعباء البيت والاطفال، بالرغم من أنها تشاركه نفقات البيت.
وقلت لها أن التعليم لا يعنى الثقافة، وكم من رجال متعلمين ولكنهم
غير مثقفين. فالثقافة تجعل الرجل فاهماً لأمر الحياة، مدركاً لدوره
الجيد حين يتزوج امرأة تعمل مثله، ويشعر بمسؤولية جديدة تجاه البيت

والأطفال، تماما كما تدرك زوجته مسؤوليتها الجديدة تجاه مشاركتها في
الأنفاق.

ولكن كيف يمكن أن تشفى ليلى من عصابها بتلك الكلمات. ان
علاج ليلى لا يمكن أن يكون بكلمات، ولا يمكن أن يكون أقراصاً تبتلع.
أنها في حاجة إلى دار حضانة بجوار منزلها تترك فيها طفلها. وهى في
حاجة إلى مقعد فى أتوبيس تجلس عليه بكرامتها، لتصل إلى عملها.
وهى فى حاجة إلى راحة بالبيت بعد العودة من عملها . وإلى شريك
يحادثها فى المساء، أو يخرجان معا إلى المسرح أو السينما. ولكن هذا
كله لا يمكن أن يحدث فى حياة ليلى، وفى حياة عدد كبير من الزوجات
العاملات فى مجتمعنا. فالمجتمع عندنا لم يخطط بعد لأن تعمل
النساء، ولذلك لم ينشئ المجتمع دور الحضانة الكافية لأطفال العاملات،
ولم يحل مشكلة الأعمال المنزلية والطبخ بوسائل أخرى حديثة أو
مؤسسات، ترفع عن كاهل المرأة أعباء الغسل والتنظيف والطبخ. ولم
تتطور عقلية معظم الأزواج بحيث يساعدون المرأة فى أعمال البيت
والطبخ والأطفال . والسبب فى عدم تطور عقلية الرجل، أن التعليم
والثقافة العامة والاعلام والصحافة لا تزال فى معظمها تنشر الأفكار
العتيقة التى لا تناسب إلا نساء متفرغات فى البيوت بغير عمل. فمن
هذه المرأة العاملة التى تستطيع أن تنفذ تعليمات المحررة أو المذيعة
المشرفة على ركن المرأة بشأن رسم الحواجب، وتنعيم البشرة، وعروض

الأزباء ؟ أن المرأة العاملة إذا وجدت المال لشراء هذه الملابس، وهذه المساحيق والدهانات، فلن يكون لديها الوقت، وإذا كان لديها الوقت. فلن يكون لديها الجهد، بعد كل ذلك الأرهاق الجسدي والنفسي داخل البيت وخارجه. ان الثقافة العامة والاعلام لا تخاطب أغلبية النساء الكادحات والعاملات ، ولكنها تخاطب تلك الفزة العاطلة من النساء، والتي لا تعمل خارج البيت، والتي تحررت من العمل داخل البيت بسبب وجود الخادومات والطباخات والمربيات. ولهذا يغضب أزواج العاملات حين يرون زوجاتهم مرهقات غير أنيقات، ويتصورون أن هذا تقصير من الزوجة، أو استرجال بسبب عملها، ولذلك يتركون بيوتهم في المساء، ويذهبون يبحثون عن هؤلاء النساء الأنبيقات الناعمات البشرة، اللاتي لا يقشرن البصل والثوم. وينسى الزوج منهم أنه كى يتناول غذاءه لابد لزوجته أن تقشر البصل والثوم. ولكن معظم الأزواج تعلموا الأنانية منذ الطفولة، وفي المدارس ، وفي الشوارع، ومن خلال الكلام الذى يسمعون فى الراديو، أو يقرأوه فى المجلات والصحف. ولا يمكن لأمثال ليلى من النساء العاملات أن يتخلصن من أسباب العصاب فى حياتهن مالم يتعلم الذكور منذ الطفولة التعاون مع اخواتهم. ومعنى ذلك أن تكون مساواة المرأة والرجل حقيقة يؤمن بها المجتمع، وترجمها إلى افعال، وليست مجرد شعارات أو نظرية داخل أدراج مغلقة.

كنت أدرك أن هذا الكلام كله لا يعالج ليلى، ولكن المشكلة ليست

مشكلة ليلى وحدها. انها مشكلة جميع الزوجات العاملات فى مجتمعنا. والعلاج هنا ليس علاجاً طبياً، ولكنه علاج اجتماعى وسياسى بالدرجة الأولى. وهذا العلاج لن يحدث طالما أن أغلبية النساء بعيدات عن العمل السياسى، يتصورن ان العمل السياسى من اختصاص الرجال وحدهم. وبذلك ينفرد الرجال بالسلطات فى المجتمع، ويصبح اصدار القوانين من عمل الرجال وحدهم، وبالتالي تكون معظم القوانين فى صالح الرجل.

وهذا هو السبب فى أن كثيراً من القوانين فى مجتمعنا تعدلت ماعدا القوانين الخاصة بالمرأة والرجل. لقد تعدلت بعض القوانين التى تنصف الفئات التى ظلمت من الشعب، مثل الفلاحين والعمال بعض الاتصاف. وأصبح هناك قانون ينص على أن يمثل الفلاحين والعمال فى التنظيمات السياسية بـ ٥ بالمئة على الأقل، رغم المحاولات العديدة لاجهاض فعالية هذا القانون. أما المرأة التى تمثل نصف المجتمع، فلا يمثلها إلا أفراد قليلات يعددن على الأصابع. ولا تزال قوانين الزواج والطلاق تظلم المرأة ظلماً بيناً. وحين تبدأ بعض محاولات لتعديل القوانين، يفضب الرجال، ويستخدمون قوتهم لمحاربة التعديل. أما النساء فيتراجعن إلى الوراء، لانهن لا يمثلن أية قوة سياسية يمكن لها أن تفرض التعديل. وينتصر الرجال. وتظل القوانين الظالمة كما هى.

وقد يظن بعض الناس أن النساء المريضات بالعصاب هن فقط اللاتى

يعانين من هذا الوضع. وإلى هؤلاء أنقل مانشرته جريدة الأخبار فى ٢٤ مارس سنة ١٩٧٤. كتبت جريدة الأخبار تحت عنوان : أما من نهاية لهذه المآسى تقول :

« كيف نجد لهذه المآسى وهذه القصص غير الانسانية نهاية : زوجة شابة ظلت أكثر من عشر سنوات تتردد على المحاكم، وبين مكاتب المحامين، وتفقد راحتها وشبابها ومالها من أجل الطلاق من زوج أستعمل حقه فى أن يطلق أو لا يطلق بأرادته وحده، مستغلاً كل الأسباب المشروعة وغير المشروعة لجعل الزوجة معلقة. لا هى مطلقة ولا هى متزوجة، لا لشيء إلا للكيد والانتقام. وأخرى منفصلة عن زوجها وتعمل فى الخارج، وتطلب الطلاق من زوجها. وفى كل مرة تعود إلى مصر لترى أبناءها وأهلها، يجبرها زوجها على دفع مبالغ خيالية من أجل موافقته لها على السفر مرة أخرى . لدرجة جعلها تغيب عن مصر سنرات طويلة، وتعيش فى الغربة، وتقاسى الحرمان من الوطن والأهل والأبناء حتى لا تتعرض من جديد لاستغلال الزوج الجشع الذى لا يستعمل حقه الشرعى من أجل حبه لها وحرصه على الحياة الأسرية معها، وإنما من أجل المال فقط.

« ويتقابل هذا النوع من الظلم . ظلم آخر ، الزوج الذى يطلق زوجته بدون أسباب قوية، لمجرد نزوة أو رغبة أو ليتزوج غيرها، ويتركها هى وأطفالها بلا مأوى وبلا مورد، مدة لا يعلم إلا الله وحده مداها ، إلى أن

تحكم لها المحكمة بنفقة لا تكفيها هي وأولادها في أغلب الأحيان .
وتضيع الزوجة الشابة بين الحاجة وبين اشفاقها على أولادها. ويصبح
مصيرها في مهب الريح بين اغراءات الانحراف وبين العذاب والخيرة في
البحث عن عمل شريف، يصعب عليها ايجاده في ظروفنا الحالية .

«وزوجة أخرى أفنت زهرة شبابها بجانب زوجها تكافح معه وتحمل
شظف العيش من أجل أن يبنى مستقبله. وبعد أن تصل إلى السن التي
لا تستطيع معها بدء حياة جديدة، تجد نفسها بدون عائل اللهم إلا نفقة
سنة واحدة، لا تجد بعدها حتى لقمة العيش. لا شيء إلا ليتزوج الزوج
زوجة أخرى شابة تقاسمه نجاحه الذي صنعت زوجه الأولى وأفنت في
سبيله شبابها وحياتها !!!

«أليس هناك نهاية لهذه المآسى التي نسمع عنها، وتحدث حولنا كل
يوم، ولا نجد لها حلا عادلا !».

مديحة

كانت مديحة من أذكى النساء اللاتي قابلتهن فى حياتى . وهى تخرجت فى كلية البنات (علوم) ، وأشتغلت مدرسة علوم بأحدى المدارس. لكنها كانت تكره وظيفتها، وكانت تحب الرسم، وحولت حجرتها فى البيت إلى مرسم، وأقامت معرضاً للوحاتها فى أحد الأحياء الصغيرة بالقاهرة. تزوجت أحد الرسامين ، الذى شعرت نحوه بالحب. أنجبت منه طفلاً. ثم حدث الطلاق لأن زوجها كان يغار عليها لدرجة الجنون، وحول حياتها إلى جحيم مع أنها كانت تحبه. لم يكن فى حياتها رجل آخر. لم تفكر مديحة فى الزواج مرة أخرى، وتفرغت لعملها الفنى وهو الرسم، وحاولت أن تنجح فيه. لكنها شعرت منذ عشرة شهور بأرق وصداع وخفقان فى القلب. ذهبت إلى طبيب باطنى، فحولها إلى الطبيب النفسى الذى شخص مرضها بكلمة «قلق» وأعطاه بعض الأقراص. لكن

حالتها لم تتحسن. وتصف مديحة مشكلتها كالآتي :

أن كل الحياة من حولي تفرض على أن أكذب. أن أكون واحدة أخرى غيري. أن أكون مزدوجة الشخصية. لأن المجتمع من حولي مزدوج الشخصية ومزدوج الأخلاقيات. إن مرضي النفسي وأرقى وقلقى كله سببه أنني عاجزة عن أن أكون واحدة غيري. كل ماأطلبه هو أن أكون نفسي وحقيقتي، وأن أعبر عن ذلك بالرسم.

ولكنهم يسدون أمامي كل الطرق. نصحتني إحدى صديقاتي من الرسامات الناجحات أن أفعل مثلها، وأن أجعل النجاح هدفي (معنى النجاح هنا هو أن يفتح الوزير معرضي وتكتب عنه الصحف). ولكنني أرى النجاح غير ذلك. أنني أحاول أن أقدم فناً جيداً رفيعاً يعبر عن حقيقة الانسان ومشاعره. كما أنني أشعر باحترام لفتي، ولا أطيق الانتظار في مكاتب الوزراء وكبار الموظفين. وتقول عني صديقتي أنني لست اجتماعية. ولكن الرسم والقراءة وطفلي ووظيفتي التي أكل منها (وهي التدريس) كل ذلك يأخذ وقتي. ومع ذلك فأنا اجتماعية ولست منطوية على نفسي. أنا أحب الاختلاط بالناس، وبالذات الناس الذين أشعر أنهم صادقون في مشاعرهم وأفكارهم. ولكني لا أطيق هؤلاء الذين يحاولون التزييف أو النفاق. وهذا هو السبب الحقيقي وراء كراهيتي الانتظار في مكاتب الوزراء وكبار الموظفين. صديقتي تقول لي أنني سوف أظل رسامة مغمورة لا يعرفها أحد (بمعنى آخر رسامة

فاشلة). ولكنى عاجزة عن أن أفعل ماتفعله هى، وعاجزة عن أكون شخصية أخرى غير شخصيتى . ولكنى أشعر بالعزلة، وأشعر بالوحدة، وأشعر أن فنى لا يصل إلى الناس. وأنا لا أرسم كى أتفرج على لوحاتى، ولكنى أرسم ليري الناس لوحاتى. ان الفنان لا يعيش إلا من خلال تفاعل الناس بأفكاره. أننى فى أشد الحاجة إلى الناس، والوصول إلى توصيل فكرتى إلى الناس يكلنى الكثير. يكلفنى أن اقلق السلطة، وأكذب، وأصبح مزدوجة الشخصية. ان السلطة تقف بين الناس والفنان، لا يمكن ان يرى الناس لوحاتى إلا بعد موافقة السلطة، وعن طريق أجهزتها ووسائلها. وظللت أرسم بضع سنوات ثم توقفت. كنت أشعر بالاختناق حين أجلس وأتفرج على لوحاتى المتراكمة وحدى، أو مع صديقتى التى كانت تحب رسوماتى ولكنها تكره انطوائى وابتعادى عن الناس.

بعد طلاقى من زوجي بثلاث سنوات شعرت بالحب نحو رجل آخر، لكننا لم نتزوج. لقد كان نسخة مكررة من زوجي السابق. كان يقول أنه يحبنى، لكنه كان يريد أن يملكنى امتلاكاً كلياً بحيث لا أفكر إلا فيه هو. ماذا يأكل، وماذا يشرب ، وماذا يلبس؟ وكيف يستمتع بالجنس والخروج والنزها؟ كان لا يطيق أن أنشغل عنه بالرسم أو القراءة أو حتى طفلى الصغير. وكان يغار من حياتى الماضية، ومن زوجى السابق، ومن طفلى ، ومن لوحاتى، ومن أى شئ يشعر أننى أحبه، أو كنت أحبه.

وقد أراد هذا الرجل ان يسلخنى عن كل هذا، وأن يبعدنى حتى عن طفلى الذى لم يكن له أحد يرعاه غيرى. ولهذا هربت من هذا الرجل ، ورفضت الزواج به. ورغم أننى كنت أشعر نحوه بميل شديد. وقد أرهقتنى هذه المشكلة نفسياً، وزادت من أرقى، وقلقى. ولم أجد الحل الا فى الاقراص المهدئة والمنومة.

ولم أشعر بالحب بعد ذلك لأي رجل. لقد أكتسبت من خبراتى السابقة فهماً لشخصية الرجل المزدوجة فى مجتمعنا. أنه يفكر بطريقة، ويسلك فى الحياة اليومية بطريقة اخرى. أنه يتكلم نظرياً عن المساواة والحب والأخلاق، ولكنه ينتهك فى تصرفاته اليومية كل هذه المبادئ. ومضت اربع سنوات إلى الآن دون أن أحب أى رجل، ودون أن أمارس الجنس. لأن الجنس مرتبط عندى مع الحب. اننى أشعر بحنين جارف إلى الحب والجنس. وأشعر كالظمان الذى لا يجد الماء . مع أننى محاطة بالرجال فى وظيفتى. ولكنهم جميعاً من النوع المزدوج الشخصية. وقد قال لى الطبيب النفسى أن أتنازل بعض الشئ عن مبادئى، وأن أعيش كما يعيش الناس ولكنى لا أستطيع . أننى لا أستطيع أن أكون مزدوجة الشخصية. ولا أستطيع أن أفقد الحقيقة من أجل أى شئ، وأن كان هو النجاح كرسامة، أو النجاح كامرأة وزوجة. لكن الفشل الذى أعيشه يرهقنى نفسياً، وعدم تمكنى من عرض لوحاتى على الناس يقتلنى، وعدم اشباعى لحاجتى إلى الحب والجنس يرهقنى جسدياً ونفسياً. وأنا

لازلت أعيش في هذه الدوامة، والأقراص المهدئة والمنومة لا تفعل لى شيئاً الآن .

وحيثما أزيد كمية الاقراص، أشعر بقواى الجسمية تخور وتضعف. وأعشر بالأختناق، وأحياناً بعدم القدرة علي النهوض من سريري. وأحياناً أشك في نفسي، وأظن أن طريقتي في الحياة خاطئة، وأن العيب في وليس في الآخرين. ولكنني أتذكر طفولتي، وما كان يقوله لى أبى وأمى، وكم كانا بثقان في وفي ذكائى، وكانا يشجعانى دائماً على الصدق، وكنت متفوقة في دراستى. وكان أبى وأمى يمنحانى الحرية ويشقان في. ولم أتعود أبداً على أن أكذب أو أغير حقيقتى. لدرجة أننى كنت أحكى لأبى ولأمى عن كل ما يحدث لي مع زملائى وزميلاتى ولم يكن أبى أو أمى يمنعانى من أن يكون لى اصدقاء من الجنسين. بالطبع لم اتعرض لعملية المختان، وحدثتنى أمى عن الدورة الشهرية والحيض قبل أن اصل إلى سن البلوغ. وحدثتنى عن كثير من الأمور، ومنها العادة السرية. وقد كنت أمارسها قليلاً قبل أن أنام، وخاصة أيام الربيع، حين يصبح الجو دافئاً بعد الشتاء، أو حين أتخيل الرجل الذى أحبه. كنت أصل إلي الأورجازم من هذه الممارسات. وقد وصلت إلى الأورجازم بسهولة مع زوجى أول الأمر، وحين كانت حياتنا لا تزال سعيدة. ولكن حينما أفسدت غيرته الشديدة حياتنا، لم أعد أصل إلى الأورجازم، ولم أعد أحب ممارسة الجنس معه. وتكرر هذا مع الرجل الذي

أحيته. أحياناً أمارس العادة السرية حين يشتد توترى الجسدى
والنفسى، وأصل إلى الأورجازم، وأشعر أن التوتر زال عنى. لكنى أظل
أشعر بظماً إلى الحب والجنس مع رجل أحبه. حينما أرسم أشعر بالراحة،
ولكن حينما تظل اللوحة قابعة فى ركن حجرى المظلم أشعر بالأختناق.
أنا أحب طفلى، وأشعر بالراحة حين أحتضنه وأقبله وأطعمه. ولكنى
أشعر أنه لا يأخذ إلا جزءاً صغيراً من حياتى، وطاقتى النفسية والفنية.
وأشعر برغبة فى إفراغ تلك الطاقة فى شئ أكبر. ليست عندي مشكلة
اقتصادية، لأن مرتبى الشهرى بالاضافة إلى مورد آخر صغير من منزل
تركه لى أبى يكفينى أنا وطفلى. ليست عندي مشكلة فى الوظيفة
سوى أننى أشعر بالملل من التكرار. ولا أشعر بلذة فى الوظيفة، أو
تجديد بها. ولكنى فى حاجة إليها بسبب المرتب الشهرى ، ولأننى لا
أستطيع أن أعيش اقتصادياً على الرسم وبيع لوحاتى كما يفعل
الرسامين المشهورين.

هذه هى مشكلة مديحة كما عبرت هى بنفسها عنها. وقد ذهبت إلى
طبيبين نفسيين للتخاض من الأرق والصداع وحالات الاكتئاب التى
تصيبها. أحد الأطباء شخصها «قلق» وأعطاهم الأقراص اللازمة.
والطبيب الثانى حاول أن يقنعها أن المشكلة داخل رأسها هى، وأن
العلاج هو اقتلاع هذه المشكلة الوهمية من رأسها عن طريق تغيير
كيمياء الدماغ. وذلك عن طريق حقنها بمادة كيميائية معينة، سوف

تشعر بعدها بالراحة والسعادة وانتهاء المشكلة. ولم تقتنع مديحة بهذا الكلام ، لكنها تركت نفسها ليفعل بها الطبيب النفسى ما هو يراه. وفعلا اخذت جميع العقاقير الكيماوية التى أعطاها لها. ولكن حالتها لم تتحسن، ولم تشعر بالراحة أو السعادة.

والمشكلة كما هى واضحة ليست فى رأس مديحة. أن عقل مديحة عقل ذكى منذ الطفولة. وهى فنانة وخلاقة، وهى انسانة طبيعية تماما. وسليمة النفس والجسد والعقل. ولكن المشكلة فى المجتمع الذى يحوط بمديحة. وعلاج المجتمع لا يكون بالأقراص والعقاقير، ولكن بعلاج المجتمع ذاته من الأساليب التى تفرض على أمثال مديحة الكذب والازدواجية فى الشخصية والاخلاق.

سوزان

هى امرأة فى الثامنة والعشرين ، مثقفة ثقافة عالية، وبعد تفوقها الجامعى سافرت إلى أوروبا فى بعثة دراسية ،ثم عادت وأشتغلت فى عمل فكري تشعر فيه بلذة وعطاء فكري لعدد من الناس. شعرت بالحب لأحد زملائها وكان يدرس معها فى أوروبا. وقد أستمروا هذا الحب (أربع سنوات خلال البعثة الدراسية. وكانت هذه المدة كافية لأن يعرف كلا منهما الآخر معرفة كبيرة ، متنوعة، منها المعرفة الفكرية والمعرفة الجنسية. وتقول سوزان : كان رجلاً ذكياً متطور الأفكار، وكان يتعامل معى بالمثل، ويحترم حقوقى كأنسانة مثله تماماً، ويعترف بأننا متساويين فى الذكاء والعقل. وكان بيننا أيضاً توافق جنسي كبير بسبب احترامه لاجبايتى ورغباتى تماماً كرغباته، ولهذا أستمروا الحب بيننا أربع سنوات. وحينما عادا إلى مصر فكروا معاً فى الزواج. لكنها شعرت أنه متردد فى الزواج منها، وبدأت تفهم جوانب جديدة فى شخصيته. وأن عودته

إلى المجتمع الذى تربي فيه والذى نشأ فيه على تقاليد معينة، جعلته يعود إلى الإيمان بهذه التقاليد، خاصة وأنها فى صالح الرجل. لكنه كان لا يزال يحبها، وكانت لا تزال تحبه. ورغم بوادر الخلافات الفكرية التى بدأت بينهما، إلا أن الزواج تم بينهما. وأستمر ثلاثة أعوام، ثم حدث الطلاق بعد أن أنجبت سوزان طفلاً واحداً. وعند الطلاق كانت حاملاً فى الطفل الثانى، فلبأت إلى طبيب وأجرى لها عملية اجهاض. وتقول سوزان: « خلال ثلاث سنوات الزواج حاول زوجى أن يغيرنى لأن أتقبل العلاقة بين الزوج والزوجة على أساس أن الزوج له حقوق وواجبات تختلف عن حقوق وواجبات الزوجة، ولكنى لم أستطيع ولم أقبل أن أتغير».

وتحكي سوزان عن أن زوجها لم يعترف لها صراحة بأنه المسيطر، ولكنه كان يغلف ذلك دائماً بطريقة أو بأخرى. كأن يقول لها مثلاً: ماذا يقول الناس عنى؟ أنهم سيقولون أننى لست رجلاً كى أترك زوجتى تفعل ما تفعلين. ولم تكن هى فعلت شيئاً سوى أنها تصرفت بطبيعية وتلقائية فى وسط مجموعة من الأصدقاء والصديقات، وعبرت عن آرائها فى بعض الأمور، أو طلبت من زوجها أن يصنع الشاى للضيوف لأنها منهمكة فى النقاش معهم. وتقول سوزان: «فى كل مرة يأتى أصدقاء له يطلب منى أن أصنع لهم الشاى، وأصنعه عن طيب خاطر. ولكن حين يأتى أصدقاء لى، وأطلب منه أن يصنع الشاى لهم (بسبب انشغالى

معهم) يغضب، فأضطر أن أترك اصدقائى بعض الوقت لأعمل لهم الشاى».

ولم يكن زوجها يعارض فى خروجها إلى العمل بالطبع. فعمل المرأة أصبح من القيم الاجتماعية السائدة، ولم يعد يتشكك الناس فى رجولة الرجل الذى يوافق على أن تعمل زوجته. بالاضافة إلى أن مرتبها كان يضاف إلى مرتبه فى الأنفاق على الأسرة. لقد كان زوجها قادراً على تقبل القيم الاجتماعية السائدة فقط، لكنه كان عاجزاً تقبل أى قيمة أخرى غير سائدة. مثل أن يصنع الزوج الشاى لضيوف زوجته، أو أن يرتدى فوطة المطبخ ويغسل الصحون مثلاً. ولم يكن لديهم شغالة مستديمة للقيام بالأعمال المنزلية. (بسبب النقص فى الشغالات عامة، وينسب عدم وجود وقت عند سوزان أو زوجها للبحث عن شغالة) وإنما كان يأتيهم طبّاخ فى الصباح، يطبخ الطعام وينصرف. وكان على سوزان أن تعد المائدة وتغسل الصحون، بالاضافة إلى تنظيف البيت. وحين جاء الطفل زادت أعباؤها بالطبع. ولم يكن زوجها يمانع فى مساعدتها أحياناً، لكنه كان يكره هذه الأعمال، وكان يساعدها لبضعة دقائق ثم سرعان ما يمل ويكف، ويتركها هى تكمل الجزء الأكبر الباقى.

وتقول سوزان: «كنت أشعر بعدم العدالة، فى الوقت الذى أشاركه فى الأنفاق على الأسرة، وأبذل جهداً فى عمل خارج البيت مساوياً للجهد الذى يبذله فى شمله، أجدنى فى البيت أشتغل أكثر منه. وفى الساعتين

اللتين ينامهما بعد الغداء، أشتغل أنا في المطبخ بغسل الصحون وإزالة التراب من فوق الاثاث».

لكن أهم ماسبب لسوزان حالة الاكتئاب التي أصابتها، وألتي قادت إلى الطلاق، هو أن زوجها كان يحاول أن يغير شخصيتها وطبيعتها بحيث تتلاءم مع كونها زوجة له. وأن الزواج مؤسسة أبوية، السلطة فيها للأب (لم يقل ذلك صراحة لها، وكان يدعى أنها مؤسسة قائمة على التعاون بين الزوجين والمشاركة، لكن أعماله كانت تتناقض مع مايقوله) . مثال ذلك أن سوزان كانت من النوع الطبيعي البسيط سواء في ملابسها أو في تصرفاتها. لم تكن من النوع الذي يزيف وجهه بأنفعالات غير حقيقية، أو يغطيه بطبقات من المساحيق، وكانت مشغولة بعملها الفكرى عن الجرى وراء الموضات والأزياء الأنيقة من آخر طراز. وكان زوجها على خلاف ذلك. فهو من النوع الذى يحب دائماً أن يظهر بأحسن مظهر ممكن، وأن ينتمى في مظهره إلى الطبقة العالية . وكان يقول لها أن كل الناس ترتدي أقنعة حين تلتقي في المجتمع، وأنه لابد أن يرتدى أيضاً القناع. ولكنه كان يخلع قناعه في البيت. ولم تكن سوزان بطبيعتها قميل إلى ذلك، وترى أن تكون دائماً على حقيقتها سواء داخل البيت أو خارجه.

وكانت العلاقات بينهما تنشأ أحياناً لأنها تريد أن ترتدي الملابس المريحة البسيطة التي تحب أن ترتديها. وكان هو يصر على أن يتدخل

في ملابسها ، ويطلب منها أن ترتدى الملابس الأنيقة اللائقة بزوجة رجل له منصب محترم، وأسرة تنتمى إلى الطبقة العالية. وخاصة في الحفلات الليلية، حيث تتبارى الزوجات (والأزواج) في الإعلان عن انتمائهم للطبقات العالية. وفي مرة من المرات أحتد النقاش بينهما حول الملابس التي كانت سترتديها في إحدى الحفلات. كانت تصر سوزان على ارتداء بلوزة بسيطة وينظفون . وأصر الزوج على أن ترتدى فستاناً للسهرة كان قد اشتراه لها في أحد سفرياته إلى أوروبا. وأنتهى النقاش بأن ذهب هو إلى الحفل وحده. ورفضت سوزان إلا أن ترتدى الملابس التي تريدها هي. كانت تقول له أنها لا تتدخل في الطريقة التي يلبس بها، فلماذا يتدخل هو في ملابسها؟ وكانت سوزان تحب بعض الأشياء الصغيرة التي تذكرها بصباها وطفولتها، كأن تشتري قرطاساً من الفول السوداني مثلاً وتأكله وهي سائرة في الشارع. وكان زوجها يستاء أشد الاستاء، ويقول لها أن مثل هذا لا يليق بوضعها الاجتماعي. وكان يشعر بالخرج حين يراها أحد من أصدقائه أو أفراد أسرته وهي تتصرف مثل هذه التصرفات ويقول لها: «ماذا يقول الناس عني؟». وكانت سوزان تغضب، وتقول له: «مادخلك أنت في هذا؟ أن الناس يجب أن تحكم عليك بتصرفاتك أنت، وتحكم على تصرفاتي أنا» لكنه كان يرد عليها قائلاً «طالما أنت زوجتي فأنت كل تصرف من تصرفاتك ينسب إلى أنا». وتشعر سوزان بالضيق وتقول له: «ولكنك الآن تقيدني ، أنت تريد مني أن أتصرف

وفق ماتريد أنت ، وليس وفق ماتريد أنت فحسب، ولكن وفق مايريد،
الناس عن زوجتك ، ومعنى ذلك أن أقلد تصرفات جميع الزوجات من
طبقتك الاجتماعية ، وأن ألغى شخصيتى وطبيعتى تماماً».

وأعتذرت سوزان لي وهى تحكي عن كثرة المخلاقات التى كانت تنشب
بينها وبين زوجها بسبب مثل هذه الأشياء، التى تبدو صغيرة جداً وليس
لها قيمة. لكن سوزان أكدت لى أن مثل هذه الأشياء الصغيرة، ليست
صغيرة، وليست تافهة. لأنها تحدث كل يوم. ولأنها الحياة اليومية لأى
زوج وزوجته، ولأى انسان. ان من أبسط الحقوق للإنسان أن يرتدى
الملابس التى تريده (بشرط إلا يصدّم مشاعر الناس بالملابس الشاذة
جداً)، وأن يتصرف بحرية وتلقائية (طالما أنه لا يضر أحداً).

وتقول سوزان أن زوجها كان يقول لها دائماً أن كلمة (يضر أحداً)
هذه نسبية، فأن عدم قبولها للقيم الاجتماعية السائدة في طبقتهم تضره
من حيث أن الناس يقولون عنه أنه زوج غير قادر على السيطرة على
زوجته رهنا تشعر سوزان بالرغبة فى الصراخ، وتقول له : ولكنى
سأضطر إلى تغيير كل صفاتي وكل شخصيتى من أجل أن تتمتع أنت
وسط أسرتك ومجتمعك بلقب «الزوج المسيطر على زوجته». وتساءل
سوزان زوجها هنا : « وأنا، ألم تفكر في الضرر الذى يحدث لي أنا بسبب
محاولتك قتل شخصيتى الحقيقية ». ويرد زوجها قائلاً : « نحن لا نعيش
وحدنا. أننا نعيش وسط مجتمع ».

وبهذا شعرت سوزان أن زوجها يريد لها أن تخضع لقيم المجتمع السائدة. وكانت هي ترفض هذا الخضوع، وتشعر أنها تخون نفسها وتخون عقلها لو أنها فعلت مالا تؤمن به، أو ماتشعر بأنه العدالة. وكانت ترى أن العدالة هي أن يكون من حقها أن تتصرف وتلبس وتفكر بما تراه مناسباً لها.

وبما زاد من شدة الصراع بين سوزان وزوجها أن سوزان نشأت في أسرة متحررة نوعاً ما، وأن أباه كان رجلاً مفكراً متقدماً لا يفرق في المعاملة بين بناته وأولاده. وكانت سوزان أكبر اخوتها البنات والبنين. وكانت أمها قد توفيت وهي طفلة، فمارست سوزان مسؤولية الأم إلى حد ما. وبسبب تحرر أبيها واتساع أفقه، فقد شعرت بشخصيتها. وكانت تتصرف بحرية. وكان أبوها يشجعها على أن تكون طموحة فكرياً، وساعدها أيضاً ذكائها على أن تتفوق في دراستها، ووجدت في مكتبة أبيها الفرصة للقراءة وتوسيع أفقها.

أما زوجها فقد نشأ في أسرة ثرية، والده رجل أعمال وصاحب مصنع. ولا يهتم من حياته إلا الربح المادي بأي شكل. وأمه كانت من الطبقة الأرستقراطية التي تعلمت قليلاً من الفرنسي وقليلاً من الببانو، ثم باعها أهلها باسم الزواج لهذا الزوج الرأسمالي الثرى. وكان له ثلاث أخوات بنات تعلمن في مدرسة فرنسية ثم تزوجن لأزواج أثرياء من أصحاب الأرض أو أصحاب المصانع. وهكذا تأثر زوجها بقيم هذه الأسرة

الرأسمالية الثرية والجاهلة، والتي تعيش لتأكل أفخر أنواع المأكولات، وترتدى أفخر أنواع الملابس، ولا يكون دور النساء فيها إلا الاستهلاك الشديد فقط (كل نساء أسرته ليس لهن عمل لا داخل البيت ولا خارجه). أما رجال أسرته فهم مشغولون ليل ونهار في مصانعهم وفي تجميع أكبر قدر من الأرباح ورأس المال.

وكان زوج سوزان مختلفاً عن رجال أسرته في أنه تعلم تعليماً عالياً، وسافر إلى الخارج في بعثات متعددة. وكان متفوقاً في عمله الفكري، ولم يكن يهتم كثيراً بالمال مثلهم، ولكنه كان متأثراً إلى حد كبير بقيم أسرته، يقيم وزناً كبيراً لكلام أمه. وكانت أمه حين تقارن بين سوزان وبين بناتها من ناحية الأناقة والأهتمام بالبروتوكول الاجتماعي، تجد أن ابنها كان يستحق زوجة أفضل. ولم تكن مثل هذه الأم بطبيعة الحال تقدر أي صفة فكرية في سوزان، لأن الزوجة في رأيها لا تقاس بالفكر، وإنما تقاس بالشكل الخارجي والأناقة والجمال. وكانت سوزان مشغولة دائماً بسبب عملها الفكري وقراءاتها. وكانت الأم تغضب من ذلك، وتقول لأبنها دائماً: «لقد تزوجت رجلاً وليس امرأة».

وتبتسم سوزان بمرارة وتقول أن زوجها كان يتأثر بكلام أمه، وكان على استعداد لتقبل فكرة أنها رجل وليست امرأة، لو لا تلك العلاقة الجنسية الناجحة بينهما، والتي كانت تؤكد له أن سوزان امرأة. وكان الجنس يلعب دوراً كبيراً في استمرار الحياة الزوجية بينهما، رغم الخلافات

الكثيرة للأسباب السابقة وما شابهها.

وتقول سوزان أن نجاح الجنس بينهما كان بسبب أنها كانت ايجابية، وكانت تتصرف معه بحرية. وأنها كانت تحبه، وتشعر أنه يحبها رغم كل الخلافات. وكانت سوزان تصل إلى الأورجازم بسهولة وعدة مرات، ولم تكن تشعر بأى حرج مع زوجها. وقد جاء ذلك من تربية أبيها المتحررة لها، ومن اختلاطها المبكر بالجنس الآخر وحياتها فى أوروبا سنوات طويلة، وعدم احساسها بأن اللذة الجنسية أثم أو عيب. وبالطبع لم تتعرض سوزان لعملية الختان، أو التربية الصارمة لقمع شخصية البنت، لأن أمها توفيت وهى طفلة، ولأن أباهما كان متحرراً ، ولم يكن يفرض عليها القيود المعتادة.

وتقول سوزان أن زواجها أمتد ثلاث سنوات بسبب الحب والثقة المتبادلة بينهما. وبالرغم من أن زوجها كان يعلم أنه ليس الرجل الأول فى حياتها العاطفية والجنسية إلا أنه كان يثق فى أنها انसानة صادقة، ولم يكن يشك فيها أبداً من هذه النواحي، لأنه كان متأكداً من حبها له. وفعلا كانت سوزان تحبه. ولم تكن من نوع النساء الذى يمكن أن يكذب على الزوج أو على الآخرين، كانت تشعر أنها فى غير حاجة إلى الكذب، وقد رباها أبوها على أن تكون صادقة دائماً.

وكانت سوزان رغم اعتزازها بشخصيتها على استعداد دائماً للعطاء والحنان. لكنها لم تكن تؤمن بالتضحية الدائمة من جانب الزوجة، والأخذ

الدائم من جانب الزوج. كانت تريد الحياة الزوجية تبادلاً في العطاء والأخذ. لكن ذلك كان مستحيل الحدوث في ظل القيم الاجتماعية السائدة التي تفرض عليها أن تضحي بكل شيء كبير وصغير في حياتها وشخصيتها من أجل زوجها. ولم يكن زوجها (بتربيته وأسرته وعدم قدرته على الصعود فوق القيم السائدة) قادراً على تحمل ما تسببه تصرفات سوزان الطبيعية واعتزازها بحريتها وشخصيتها من حرج ومشاكل بسيطة، لا تزيد عن موضوع الرجولة ومفهومها السائد من حيث السيطرة وحكم الزوجة. وكانت هناك أيضاً الخلافات حول المشاركة في الأعمال المنزلية، أو في رعاية الطفل، ومحاولة زوجها لقاء كل هذه الأعباء عليها وحدها.

أما كيف حدث الطلاق، فتقول سوزان أن الخلافات اليومية أصبحت تزيد بينهما، حول اللبس والأكل والطفل والخروج والحفلات وزيارة أسرته، إلى حد أن ذلك أصبح يؤثر على حبهما وعلى علاقتهما الجنسية. وتقول سوزان:

«بعد مشاجرة من هذه المشاجرات حول رأي أمه في لم أشعر برغبة جنسية في تلك الليلة، لكنه أصر على أن يحدث الجنس ليحدث الصلح ككل مرة، لكنني هذه المرة عجزت عن أن أشعر بأية رغبة جنسية نحوه، وحديث الجنس من طرف واحد فقط، وتكرر ذلك، وأصبحت شبه باردة جنسياً معه، وصارحته بالأمر. وبدأت أشعر أن حياتنا معاً أصبحت

مهدة، لعدم المشاركة فى أى شئ، سوى بعض القراءات والأفكار المشتركة العامة المجردة. لكن حياتنا العملية اليومية أصبحت تتباعد . وأصبحت أشعر بحالات الاكتئاب، وأرق ، وقلق، وبدأت فى ابتلاع الأقراص المنومة والمهدئة، لكن حالتى لم تكن تتحسن».

وسألت سوزان : « فكيف حدث الطلاق؟ ».

وقالت : « فكرت فى الطلاق حين وجدت نفسى وحيدة فى البيت مع طفلنا وقراءاتى، وأصبح زوجى يخرج ويسهر فى بيت أسرته مع مجموعة من الأصدقاء والصديقات، الذين لم أكن أشعر بتجاوب فكرى معهم، وأشعر بتفاهة أحاديثهم. وباتصاله المتكرر بأسرته، والجو الاجتماعى الذى يعيشون فيه. أصبح أكثر شبهاً بهم، وأكثر حرصاً على التكيف مع قيمهم وبذلك زادت بيننا الخلافات إلى حد أن قلت له فى يوم أن زواجنا لم ينجح، ومن الأفضل أن نواجه الأمر بدلا من الهروب من الحقيقة.

ووافقنى زوجى على ذلك، وتم الطلاق بهدوء شديد. وبالطبع أخذت الطفل معى، ولم يطلب هو أن يأخذه.

وسألتها : « هل تحسنت حالتك النفسية بعد الطلاق ؟ »

قالت سوزان : « نعم ، زال عنى الأرق، والقلق ، لكن ماهى إلا بضعة شهور وأصبحت مواجهة بمشاكل اجتماعية كثيرة هى مشكلة المرأة المطلقة فى مجتمعنا. وكان على أن أصارح المجتمع مرة أخرى ،ولكن وحدي هذه المرة. وبدأ الأرق يعاودنى، وحالات الاكتئاب، ولم أعد

أستطيع أن أنام بغير الأقراص المنومة».

سألتها : « وماذا عن عملك الفكرى ، هل يرضيك ؟ »

قالت : « لولا عملى الفكرى الذى يعوضنى كثيراً ويؤكد لى قدرتى ، لفقدت عقلى تماماً . أو فكرت فى الانتحار بأساً من حياتى فى مثل هذا المجتمع . لكن الظروف التى أعيشها تعطلنى كثيراً ، وتجهدننى . فإذا بى فى حالة من الأرهاق النفسى يجعلنى عاجزة عن اعطاء علمى حقه من التفرغ والاثراء المستمر . وهذا أيضاً يشقبنى ويعذبنى . ولكنى أدور فى حلقة مفرغة ، وأحس أننى أصارع قوة ضخمة أكبر منى بكثير ، وأحياناً أتساءل أليس أبى هو المسؤول عن شقائى لأنه عودنى على أن أكون مستقلة حرة وصديقة فى مجتمع لا يحب فى المرأة إلا الكذب والخداع وعدم الاستقلال » .

وأكدت لسوزان أنها كانت محظوظة ليكون لها مثل هذا الأب المتحرر الواسع الأفق ، وطلبت منها أن تكف عن الأقراص المنومة والمهدئة ، وأن تصمم حياتها وبين نفسها على الاستمرار فى الكفاح من أجل تفوقها فى عملها الفكرى ، وتنمية قدراتها فى عملها وفى عطائها الفكرى للناس ، مما ينورهم ويساعدهم على تغيير القيم المتخلفة . وأن تفتح ذراعيها للحياة ، وتعيش وتسعد وتتصرف بتلقائية وحرية ، وأن ترتدى الملابس التى ترتديها ، ويتصدق الناس الذين تريد أن تصادقهم ، وتأكل الفول السودانى كما يحلو لها وهى سائرة فى الشارع ، وأن تشتري الكتب التى

تحبها، وتقرأ ، وتفكر ، وتنتج . وتكون الأنسانة الطبيعية الصادقة. وإذا أحبها رجل كما هي فلتتزوج، وإذا أراد أن يضعها فى قالبه فلترفض..، وليكن زواجها السابق خبرة كبيرة لها، وتجربة تساعد على فهم الحياة والناس ، تجعلها أكثر تمسكا بمبادئ الصدق لا العكس.

واختفت سوزان شهوراً طويلاً، ثم قابلتها صدفة فى الطريق، وأحسست من نظراتها اللامعة وحركتها النشيطة أنها تغلبت على الأزمة. وشدت على يدي وهي تصافحنى، وقالت : « لقد قذفت من نافذة حجرة نومى بكل علب الأقراص المنومة وصمت على أن أكون قوية وشجاعة وصادقة. وأنا أستعد للسفر مرة أخرى فى بعثة قصيرة إلى غينيا». وتألقت عيناها بالحماس وهي تقول : « هذه أول مرة أزور فيها إفريقيا، وأشعر بشوق كبير لرؤية هذه البلاد».

وتركتنى سوزان واتجهت إلى مكتب شركة الطيران. وأحسست أن حياتها أصبحت مليئة ومتجددة وأنها أصبحت تعطى لعملها الفكرى اهتماماً أكبر، وأنها وضعت قدمها على الطريق. وتخيّلتها وهي تلتقي بالرجل الصادق مثلها، الذى يستطيع أن يقدر صدقها ويحترمها فتعيش معه. أو أنها لا تعثر عليه أبداً. فلا تشعر بالفشل أو الاكتئاب، ولا تتعاطى الأقراص المنومة أو المهدئة، ولكنها تجد فى عطائها الفكرى للناس مايسعدها ، ومايعرضها عن أي شئ آخر. والحياة بغير زواج أفضل من الحياة فى ظل زواج فاشل وغير سعيد.

فاطمة (أ)

فاطمة فى العشرين من عمرها ، طالبة بكلية الآداب قسم فلسفة ، ذكية تقضى معظم وقتها فى قراءة الفلسفة والتاريخ والأدب وعلم النفس . وتفتح عقلها على مفاهيم جديدة تماماً عليها ، متناقضة تماماً مع القيم التى تربت عليها فى أسرتها . كانت أسرتها إحدى أسر الطبقة المتوسطة ، أبوها كان مدرساً للجغرافيا بأحد المعاهد المتوسطة . وأمها فى البيت ، ولها أربع بنات كبراهن هى فاطمة . وكان الأب من النوع المتدين ، الذى ورث الدين عن أبيه كما ورث البيت الذى يعيش فيه . ورغم أنه مدرس ، إلا أنه لم يقرأ شيئاً خارج ذلك المقرر المحدود الذى يدرسه للتلاميذ فى الجغرافيا . ورغم تدينه الشديد ، إلا أنه كان جاهلاً بالدين ، لأنه لم يقرأ فيه إلا تلك المعلومات الأولية التى يعرفها جميع الناس ، والتى لا تساعد إلا على أداء الفرائض . أما حقيقة الدين وجوهره ، فلم يكن يعرف عنه شيئاً . وكان كمعظم الآباء (وبالذات آباء البنات)

متزمتاً، يخاف على بناته من الفساد الأخلاقي الذي يعتقد أنه منتشر. والذي يري مظاهره في الرقصات الخليعة في السينما والتليفزيون، وصور النساء نصف العارية فوق أغلفة المجلات. وقد فرض الأب على ابنته الكبرى فاطمة أن تواظب على الصلاة وهي طفلة في السابعة من العمر. وكان يحذرها من الإختلاط بالأولاد. وكانت فاطمة تلميذة مجتهدة في المدرسة الابتدائية، لكنها كانت ضعيفة جداً في الحساب. فأتى لها أبوها بمدرس للحساب في البيت (وهو أحد زملائه المدرسين في المعهد) ، وكان هذا المدرس يشرح لها الحساب، لكنها كانت تحس أصابعه أحياناً فوق فخذه، وأحياناً تصعد أصابعه إلى فوق. ومن شدة الحزي والحياء والخوف، كانت تستسلم لأصابعه استسلاماً كاملاً، وأحياناً تشعر باللذة التي سببت لها إحساساً أليماً بالذنب، ورغم أنها كانت تصلى، وتطلب من الله أن يغفر لها، إلا أن الإحساس بالذنب كان يورقها كثيراً. وحصلت فاطمة على الابتدائية، ولم يعد مدرس الحساب يأتي إليها. وتنفست الصعداء. لكنها وهي في الثالثة عشر أو الرابعة عشر كانت تمارس العادة السرية أحياناً، وتشعر بلذة، ويعقبها ذلك الإحساس الأليم بالذنب، والذي لا يضيع بالصلاة والصوم وطلب المغفرة من الله.

وحين حصلت فاطمة على الثانوية العامة، لم يمنعها أبوها من دخول الجامعة لأنها كانت تحب التعليم والقراءة، ولأن أحداً لم يتقدم للزواج منها. وكان الأب يحمل هم أربع بنات، ويتمنى لو رزقه الله بأربعة

عرسان لهن ليزوجهن وينتهى من عبثهن. لكن أحداً لم يتقدم. ودخلت فاطمة كلية الآداب وبدأت تقرأ كتب الفلسفة. وكان أبوها يفرض عليها أن ترتدي طرحة تخفى تحتها شعرها، وترتدي أكماماً طويلة صيف شتاء، ولم تكن فاطمة تختلط بزملائها في الكلية. كانت تتصور أن مصافحتها للرجال حرام، وأن صوتها عورة، وكانت بعد انتهاء المحاضرات تسرع إلى البيت دون أن تكلم أحداً، كانت حياتها تنحصر في المذاكرة والقراءة والصلاة.

لكنها بعد سنتين في الجامعة، شعرت بالميل نحو أحد زملائها، وتصورت أن هذا الزميل يخصها بنوع من الإهتمام. كان يبتسم حين يراها في الفناء. أو يقول لها صباح الخير، فيحمر وجهها وترد عليه بالتحية. وبدأت فاطمة تعيش حباً صامتاً لهذا الشاب، وتغذيه بأحلامها وخيالاتها. ولم تجرؤ على أن تصرح له بهذا الحب، بل كانت تختلس إليه النظرات من بعيد. وفي الليل تحلم أحلاماً جنسية تسبب لها في النهار إحساساً طاغياً بالذنب. وفوجئت فاطمة في يوم أن هذا الزميل قد خطب زميلة أخرى. وتصورت أنه خانها. وأصيبت بصدمة عنيفة، جعلتها تبكى وحدها وهي في سريرها. وحين تصلى تطلب من الله المغفرة على ذنوبها. وكانت ذنوبها أنها تخيلت كثيراً أن هذا الشاب يقبلها ويمارس معها الجنس في أحلامها.

وفي يوم كانت فاطمة تصلى، فإذا بها بدلاً من أن تسبح بحمد الله،

تبدأ فى توجيه اللوم إلى الله، بل أكثر من اللوم. كلمات عنيفة قاسية لا يمكن أن يوجهها أحد إلى أحد، فما بال الله. وأرتعدت فاطمة من الذعر، وحاولت أن تمنع نفسها لكنها لم تستطع. كانت هذه الألفاظ تسيطر عليها ولا تستطيع منعها. ومن شدة الذعر، كانت تبدأ الصلاة مرة أخرى، وتستغفر الله على ما بدر منها من ألفاظ وأفكار سيئة. لكنها بعد الإستغفار تجد نفسها فريسة مرة أخرى لهذه الأفكار والألفاظ غير اللاتقة. والغريب أن هذه الألفاظ تحولت بعد أيام قليلة إلى أفعال. وأصبحت فاطمة فريسة لأحلام جنسية مفزعة، تُفرض عليها فرضاً بقوة قاهرة لا تستطيع منعها. ولم تكن هذه الأفعال تحدث إلا مع الله، الذي كان يتجسد أمامها أحياناً على شكل رجل. ومن شدة الفزع كانت تبكى، وتلعن نفسها، وتتهم نفسها بسوء الخلق والفساد، وتكثر من الصلاة. حتى أصبحت تصلى نصف النهار. لكن الصلاة أصبحت ترعبها أيضاً، لأن الأفكار السيئة كانت تغزوها أثناء الصلاة ذاتها.

ولم تستطع فاطمة أن تحكى مشكلتها لأبيها أو لأُمها. وحينما بدأ الهزال والشحوب يظهر عليها، أدركت أنها أصبحت عاجزة عن النوم، وعذبها الأرق والبكاء، لجأت إلى الطبيب الباطنى فى عيادة الجامعة. ولم تستطع بالطبع أن تحكى حقيقة المشكلة، لكنها قالت له أنها تشعر بصداع دائم ولا تنام. وحولها الطبيب الباطنى إلى الطبيب النفسى. ولم تستطع أن تحكى له حقيقة المشكلة. كانت ترتعد كلما أنفجرت شفتاها

لتقول كلمة «الله» وتصورت أن ما يحدث لها جريمة لا تغفر، وأن أي أحد سيسمعها، سيتهمها بأفزع الأشياء. وأعطاهما الطبيب النفسى بعض الأقراص المهدئة والمنومة. ولم تشعر فاطمة بأي تحسن، وأصبحت حياتها جحيماً. ولم تعد قادرة على المذاكرة أو القراءة. وفى إحدى الليالى، وبعد أن عاشت أكثر من ساعة فريسة لتلك الأفعال والأفكار اللاارادية المنكرة، فكرت فى الإنتحار. وأبتلعت جميع الأقراص الباقية فى الزجاجة. وكادت تموت، لولا أن أمها حملتها بسرعة إلى المستشفى، حيث عملوا لها غسيل معدة، وانقذوا حياتها. وعادت مع أمها إلى البيت.

لكن أسرتها هبت من نومها فزعة ذات ليلة على صوت صرخة عالية، ورأوا فاطمة ملقاة على سجادة الصلاة، والطريحة حول رأسها، تهذي بكلمات غير مفهومة، فحملوها إلى المستشفى النفسى، حيث تلقت الجلسات الكهربائية.

وسألتنى فاطمة بصوتها الضعيف الخائر : ماذا أفعل يا دكتورة ؟
إنهم يمنعونى من الموت.

وسألتها : ألم تتحسنى بعد مجيئك إلى المستشفى ؟
قالت : لا. لقد زادت حالتى سوءاً. وبعد أن كانت الأفكار السيئة تراودنى مرة أو مرتين فى اليوم، أصبحت تراودنى ثلاث وأربع وخمس مرات. ولا أدري ماذا أفعل ؟

نظرت إلى فاطمة بعينين مذعورتين. وسألتها وأنا أنظر داخل عينيها :
ماذا يفزعك يا فاطمة ؟

قالت : يفزعني عذاب الله.

قلت لها : أن الله لن يعذبك .

نظرت إلى في دهشة وقالت : كيف أننى بنت منحطة، وسوف يحرقنى الله.

قلت لها : لست بنتاً منحطة.

فسألت بسرعة : وهذه الأفكار السيئة يادكتورة ؟

قلت : يمكنك التخلص من هذه الأفكار لو أستطعت التخلص من إحساسك بالذنب . أنك لست مذنبه يا فاطمة.

سألت : وهذه الأفكار ؟

قلت : أنها لا تراودك وحدك . بعض الناس تراودهم هذه الأفكار نفسها بسبب التزمت والتخوف والكبت.

أتسعت عيناها بدهشة وقالت : لا أظن أن هناك من يراوده مثل هذه الأفكار.

وحكى لفاطمة عن بعض الحالات من الفتيات اللاتي قابلتهن، واللاتي كن يعانين من المشكلة نفسها. وشرحت لها أسباب ذلك.

إن الإحساس الشديد بالذنب الذي عانت في طفولتها بسبب مدرس الحساب، ثم بسبب ممارسة العادة السرية، ثم بسبب الأحلام الجنسية،

أرهقها نفسياً. خاصة، وأنها تعيش فى جو من القيم والتقاليد التى تتناقض تماماً مع ما يحدث لها فى أعماقها. لقد وقعت فاطمة فريسة التناقض بين الواقع الذى يفرضه عليها جسدها، وبين النظرية التى يفرضها عليها أبوها والمجتمع من حواياها. ولا شك أن قصة حبها الصامت ومن طرف واحد، تدل على أنها فى حاجة ماسة إلى تبادل الحب مع الرجل. لكن القيم النظرية داخل رأسها كانت تمنعها من ممارسة الحب أو الإعتراف به، وهذا جعلها تختزن عواطفها كالبخار المضغوط داخل نفسها. وكان لا بد أن يأتى يوم وتنفجر نفسها كبركان لأقل هزة، وقد حدثت هذه الهزة حين خطب هذا الشاب (الذى أحبته ومارست معه كل شئ فى أحلامها) فتاة أخرى غيرها. إن رد الفعل لهذا الحدث كان شديداً، بسبب شدة الشئ المخزون داخل فاطمة.

ولم يكن لفاطمة أن تشفى من حالتها إلا إذا أصبحت واعية بهذه الأشياء :

١ - إن اللذة التى شعرت بها وهى طفلة (بسبب المدرس) أو بعد ذلك (بسبب العادة السرية) كانت إحساساً طبيعياً، وما كانت لتسبب لها أي ضرر، لولا الإحساس بالذنب الذى صاحبها، والذي كان له تأثير ضار على نفسيتها.

٢ - أن الأحلام الجنسية التى كانت تعيشها كانت أحلاماً طبيعية. وما كانت لتسبب لها أي ضرر لولا ذلك الإحساس بالذنب الذى صاحبها.

٣ - أن حبها لذلك الشاب كان شيئاً طبيعياً، وكان يمكن أن يكون أكثر صحة لو أنها غذته بالحقيقة والواقع بدلاً من الخيالات. وربما لو عرف هذا الشاب أنها تحبه لأحبها، ولكنه كان يجهل بالطبع أنها تحبه، ولذلك لا يمكن أن نعتبر خطوبته لفتاة أخرى خيانة لها.

٤ - إن الإحساس بالذنب، والكبت، والتناقض، والخوف الشديد من عقاب الله ، هو الذي أدى بها إلى تلك الحالة العكسية التي أصابت علاقتها بالله . ولا بد لها أن تدرك أنها غير مذنبة، وأن الله لن يعاقبها، وأنها ليست الوحيدة التي تشعر بما شعرت به، وإنما هناك الكثيرين غيرها.

ولم يكن من السهل بطبيعة الحال إقناع فاطمة بهذه الحقائق، ولكنها شعرت بإرتياح شديد، وتنهدت وهي تقول : لقد كنت أتصور أنني فتاة منحطة الخلق، فاسدة. وكنت أظن أنني الفتاة الوحيدة على ظهر الأرض التي حدث لها ذلك. وكلما كنت أؤكد لفاطمة أنها ليست الوحيدة التي حدث لها ما حدث، وأنها فتاة ذكية، وأخلاقها طيبة، وليست منحطة، وأنها تستحق كل خير من الحياة، كلما كانت تشعر فاطمة بالإرتياح. وطلبت منها أن تتطلع إلى المستقبل، وأن تضع لنفسها هدفاً فكرياً تحققه بقراءاتها ودراساتها.

وقد قابلت والد فاطمة وشرحت له حالة ابنته على حقيقتها، والأسباب الحقيقية . ولم يكن هذا الأب منغلق الذهن تماماً، وكان قد بدأ يلمس

الراحة والتحسن فى عينى ابنته . وبدأ الأمل فى شفائها . وبسبب ذلك أنصت إلى بذهن مفتوح، وأقتنع بما شرحت له، وطلبت منه أن يساعدنى من أجل شفاء ابنته.

وفعلًا ساهم هذا الأب فى شفاء ابنته. فقد أكد لها أنها غير مذنبه، وأن إحساسها بالذنب لا أساس له. وأن أحداً لن يعاقبها. وأن من حقها أن تحب، وأن تشعر برغبات جنسية. وقد كان لوقع هذه الكلمات من الأب نفسه فعل السحر فى نفسية ابنته، التى بدأت تشعر كأن عبئاً ثقيلاً ينزاح عن قلبها، وقالت لى فى إندهاش وراحة، لم أكن أتصور أن أبى سيقول لى هذا الكلام فى يوم من الأيام.

وساعد هذا الأب ابنته على الخروج من المستشفى، أنتظمت فاطمة فى دراستها مرة أخرى. وجاءنى صوت أبيها فى التليفون ذات يوم يقول فى سعادة :

- تصوري يا دكتوراه لقد نسيت تماماً هذا الشاب الذى سبب لها الصدمة. لم أكن أتصور أنها ستنساها ، لقد كانت تهذى بإسمه طول الليل.

قلت له: هذا الشاب لم يكن السبب الحقيقى فيما حدث لفاطمة. أنه كان القشة فحسب التى قسمت ظهر البعير. أما السبب الحقيقى فهو الخوف الدفين منذ الطفولة. أو أن فاطمة وهى طفلة، حكى لأمها أو أبيها عن حكاية مدرس الحساب، أو عن العادة السرية. ولو أن أمها (أو

أبأها) طمأنأها وشرأا لها أأائق الأأاة ، لما أألت فاطمة فى تلك الألةة
المفرأة من الأوف والأأة. ثم الإأساس العنأف بالأأب، الأى. أأأر فى
الأنأاة على شكل المرأ النفسى.

سهيير

دق جرس التليفون فى منزلى الساعة السادسة صباحاً، وجاءنى صوت فتاة مضطربة وخائفة، وتطلب منى المجرى إليها فوراً.

وسألتها : أين أنت ؟

قالت : مستشفى العباسية .

سألتها : ما أسمك، وفى أى قسم ؟

قالت : سهيير فى قسم

ركبت سيارتى الصغيرة، وطوال الطريق من الجيزة إلى العباسية وأنا أفكر فى أمر تلك الفتاة. ولا بد أن الأمر خطير ، حتى تطلبنى بالتليفون فى هذا الوقت المبكر، خاصة وأننى لست من أطباء المستشفى. ولا بد أنها بذلت جهداً كبيراً فى التمكن من استخدام تليفون المستشفى فى ذلك الوقت، وأنا أعلم حال التليفونات فى المستشفيات العامة فما بال تليفونات المستشفيات النفسية. ولا بد أنها دفعت شيئاً

للتصوري النبوي، أو تنازلت له عن طعامها ، أو نفذت أوامره
ومسحت العنبر بدلاً منه (إذا لم تكن تملك شيئاً تدفعه له).

حين دخلت المستشفى من باب الحديقة الخلفي، رأيت بعض المريضات
بملابسهن البيضاء جالسات على الحشيش. ونهضت واحدة حين رأت
العربة، وأقتربت مني.

قائلة : معك ثلاثة قروش ؟

سألتها : نعم، لماذا ؟

قالت : سأشتري قطعة حلوة .

وتقدمت واحدة أخرى مني تقول : معك سيجارة. وجاء رجل عجوز
له عينان واسعتان حزنتان ، وقال لي : أعطني قرشاً.

ولم أدهش بالطبع، فأنا أعرف من زياراتي لهذا المستشفى، ولغيره
من المستشفيات النفسية (وغير النفسية) كم يجوع المرضى والمريضات،
وبالذات هؤلاء الذين لا أهل لهم، أو الذين تخلق عنهم أهلهم بسبب طول
المرض (مشاعر الأسرة والأهل تجاه الابن أو الابنة المريضة تظهر على
حقيقتها). أو الذين لهم أهل فقراء لا يرسلون إليهم طعاماً بصفة
منتظمة، أو حتى بصفة متقطعة.

تركت عربتي تحت شجرة أمام المبنى الرئيسي للمستشفى، وسرت
نحو المبنى الآخر حيث القسم الذي به «سهير». حين دخلت المبنى لفح
وجهي على الفور هواء رطب بارد له رائحة عفنة كرائحة حظائر الماشية

فى بيوت الفلاحين فى قريتنا. ورأيت بعض المريضات جالسات على الأرض، وأمامهن أكواز من الصفيح. وعرفت أنهن يشربن الشاي، وهذا الشاي المغلى عدة مرات (لأستخدامه أكثر من مرة) يعد ترفاً تحظى به المريضات القادرات على دفع ثمنه للتمورجية.

كانت سهير راقدة فى عنبر (يشبه إلى حد كبير العنابر التى رأيتها فى سجن النساء بالقناطر) وسريرها عليه مرتبة رفيعة ممزقة فى أجزاء، ويخرج منها القطن. والملاءة بلون التراب. وإلى جوارها على رف النافذة رغيف أسود، وبقايا عدس فى صحن نحاس، تجمع حوله عدد من الذباب والصراصير السوداء الصغيرة (تذكرت على الفور المناظر التى رأيتها فى سجن القناطر).

جلست على طرف السرير، وفى مواجهتى وجه «سهير» الشاحب بلامحها الدقيقة، وعيناها الواسعتان لها نظرة فاحصة ذكية.

قالت لى بصوت هادئ : ألا تذكرين يادكتوراه ؟

قلت لها : يخیل إلى أننى رأيتك من قبل .

قالت : نعم، منذ عامين، حين جئت إلينا فى ندوة فى كلية طب

شمس.

قلت : أنت طالبة بكلية الطب ؟

قالت : نعم ، فى السنة النهائية.

قلت : وكيف جئت إلى هنا ؟

قالت : أنا لم أجيء . هم الذين أتوا بى إلى هنا .

قلت : من ؟

قالت : أهلى ، راسى وزوجته .

سألتهما : لماذا ؟

قالت : سأحكى لك كل قصتى ، ولكنى لجأت إليك اليوم لتساعدبنى فى الخروج . فالأمتحان بعد أسبوع واحد ، وأريد أن ادخله حتى لا تضيع على السنة . لقد ذاكرت وأنا هنا ، ولا أريد أن أتخلف عن الإمتحان . إن تخرجى من الكلية سوف ينقذنى من أبى ، وأستطيع أن أعول نفسى ، وأعيش وحدي بعيداً عن أسرتى .

وطلبت من سهير أن تترك سريرها ، وأن تهبط معى إلى فناء المستشفى لنجلس فى الهواء الطلق وأسمع قصتها . كنت قد شعرت بآلام فى رأسى وجسمى من الرائحة العفنة داخل العنبر ، والمنبعثة من جسد امرأة ترقد على السرير المجاور لسرير سهير .

وجلسنا فى الفناء ، وبدأت سهير تحكى قائلة : كنت فى السادسة من عمري حين رأيت أبى يضرب أُمى ، ويصرخ قائلاً لها : أنت طالق . ولم أعد أرى أُمى ، وتزوج أبى من امرأة (هى أخت زوجة عمى) ، وأصبح عمى يزورنا مع زوجته كثيراً . وفى يوم كنت أطعم الفراخ فوق سطح المنزل ، حين دخل عمى ورائى العشة ، ورفع عنى ملابسى وهو يهمس بصوت غريب قائلاً : لا تخافى . كنت فى حوالى السابعة من العمر ،

ومن شدة الذعر لم أستطع أن أقول لأبى (بسبب قسوته الشديدة على، دائماً يقول أننى أشبه أُمى). ولكنى قلت لزوجة أبى، وكانت تظهر لى بعض العطف أحياناً. ولكنها صفعتنى على وجهى، وقالت بغضب: لا تقولى هذا الكلام المسئى إلى عمك يا بنت! أنه رجل فاضل، ويحب زوجته، وزوجته تحبه، فلا تفسدى حياتهما بهذه الخيالات التى تتوهميها. وكنت طفلة، وصدقت زوجة أبى أن الذى حدث لم يكن إلا خيالاً توهمته. لكن عمى كرر ما فعله مرة ثانية. وفى هذه المرة أدركت أشياء لم أكن أدركها فى المرة السابقة. وقال عمى يهددنى: لا تقولى لأحد وإلا ذبحتك! وأصبحت أخاف من الصعود إلى عشة الفراخ فى السطح. وضربتنى زوجة أبى مرة لأصعد وأطعم الفراخ، لكنى رفضت. فظلت تضربنى حتى سال الدم من أنفى، فصرخت وقلت لها: لا أريد أن أصعد! فصرخت: لماذا؟ فصرخت وأنا أبكى: أنه يصعد ورائى! فصرخت: من؟ فقلت لها: عمى! فنظرت إلى فى استنكار، وصدفتنى على وجهى وهى تقول: أنت مجنونة! سأقول لأبيك ليضربك. وكنت أخاف من أبى، لأن ضربه كان شديداً. وكان يضربنى على رأسى وكأنه يريد أن يقتلنى. فرجوتها ألا تقول له شيئاً، وأخذت أكل الفراخ وصعدت إلى العشة وأنا أرتعد خوفاً. ولم يجرى عمى. وعرفت أنه مريض، ثم مات بعد بضعة شهور. وفرحت حين علمت بموته فرحاً شديداً. وكنت فى حوالى العاشرة من عمري. وأرتدت زوجة أبى

السواد، ورغم أننى كنت صغيرة، إلا أنها أتت لى بفستان أسود لأرتديه، فرفضت، وضربتنى وهددتنى بأن تقول لأبى إذا لم ألبس الفستان الأسود. وأضطرت إلى ارتدائه.

وأصبحت زوجة أبى تفرض على أشياء كثيرة وتهددنى. وأصبحت أشعر أننى أسيرة لها. ووضعت كل همى فى المذاكرة. وكان لى ابن خالة يكبرنى بخمس سنوات، وكان يزورنا أحياناً. وكنت أحكى له عن قسوة أبى وزوجته، فكان ينصحنى بالمذاكرة ودخول المدرسة الثانوية مثله، ثم نشتغل فى أي عمل ونهرب من أهلنا. وكان هو أيضاً يعانى من قسوة أبيه. وفعلاً كنت متفوقة دائماً فى الدراسة، وحصلت على مجموع عال فى الثانوية، رغم أن زوجة أبى كانت تشغلنى فى البيت، وتفرض على ترك المذاكرة ورعاية أطفالها. وحاول أبى (بتحريض من زوجته) أن يمنعنى من دخول كلية الطب. لكن خالتى وزوجها وابنها ظلوا وراءه حتى قبل. ودخلت الكلية. وكنت متفوقة دائماً، ولا أجد صعوبة فى أي علم من العلوم، ولكن الصعوبة الوحيدة كانت فى الجو الذى أعيشه فى البيت.

وحينما وصلت إلى السنة النهائية، بدأت زوجة أبى تدرك أننى سأكون طبيبة عما قريب. وبدأت تغير من معاملتها لى، وتنادينى أحياناً يادكتورة سهير. وفى يوم جلست إلى جوارى، وقالت أتت لى بعريس ممتاز. ولم يكن هذا العريس إلا أحد أقربائها. وكان رجلاً مترهلاً

لم أشعر نحوه بأي مشاعر، وكنت أشعر بالميل لابن خالتي، الذي كنت أشعر بأنه يحبني، ويهتم بي. وكان هو سبب تحملى لحياتي الشقية في البيت، وفي نجاحي في دراستي. وكنا قد اتفقنا على الزواج بمجرد تخرجي.

لكن أبى جاءني يوماً وقال لي أن ذلك الرجل (قريب زوجته) قد خطبني منه، وأنه وافق. وأنه اتفق معه على أن يكون كتب الكتاب الخميس القادم. أما الدخلة فتكون بعد تخرجي هذا العام. ورغم أنني كنت أخاف من أبى، فقد طلبت منه أن يؤجل ذلك كله حتى أنتهى من دراستي. ولم أستطع بالطبع أن أقول له أنني لا أريد هذا الرجل، وأريد رجلاً آخر. لكن أبى رفض فكرة التأجيل، وفوجئت بيوم كتب الكتاب، وأبى هو الذي يوقع عقد الزواج بصفته وكيلاً عني. وأصبح الرجل المترهل (قريب زوجة أبى) هو زوجي الذي سأزف إليه بعد تخرجي من الكلية.

وهـ أُمُتَزَت الأرض من تحت قدمي، وأحسست أن الأمل الذي بنيت به راح. وأننى لن أتححر إلى الأبد من هذه الأسرة. وبدأت أشعر بالصداع والأرق. ولم أعد أستطيع المذاكرة. وجاء الامتحان النهائي ورسبت في الامتحان بالطبع، وتدهورت حالتي. وأصبحت أشعر برغبة في البكاء الدائم، والصراخ. وأشتدت قسوة أبى وزوجته عليّ. وأصبحت أقضى اليوم كله في سريري راقدة، وأشعر بالصداع والآلام في كل جسمي. وفي

يوم جاءت زوجة أبى لتخرجنى من السرير بالقوة، لأحضر الغداء لأبى. لكنى رفضت. فصفعتنى على وجهى. فأنهلت عليها ضرباً ولكماً. وجاء أبى وضربنى. فأخذت أصرخ بأعلى صوتى، وفقدت الوعى تماماً. ثم حين أفقت وجدتنى هنا فى هذا المستشفى. وعلمت أن زوجة أبى قالت لأبى أننى مجنونة. واقتنع أبى بكلامها، وحملنى على الفور فى تاكسى إلى المستشفى. ولم يحاول واحد من الأطباء أن يسمع ما أقوله. لقد أكتفوا بما قاله أبى وزوجته. وادخلونى بالقوة إلى مكان مظلم رطب، حيث سلطوا على رأسى جلسة كهربية، جعلت عظامى تؤلمنى عدة أيام. ورفضت أخذ أي أقراص، وقلت للطبيب أننى لست مريضة، وأننى طالبة بنهائى طب. فرد على الطبيب قائلاً : لا تتصرفى إذن كالجاهلات، وخذي الدواء الذي بصرف لك. وطلبت منه أن يسمعنى لمدة خمس دقائق لأننى لست مريضة، لكنه لم يتوقف، وأسرع وركب عربته، وغادر المستشفى. والآن يا دكتورة أرجو أن تساعدنى فى الخروج من هنا. إن أي عاقل يدخل هنا لا بد أن يصبح مجنوناً بعد بضعة أيام. إن كل الظروف التى عشتها تدفع إلى الجنون فعلاً. ولكنى لا زلت أحتفظ بقواى العقلية. وقد علمت من الطبيب أن زوجة عمى ذكرت له أننى كنت وأنا طفلة أتخيل أشياء وهمية، فحكيت له قصة عشة الفراخ وعمى . وقلت للطبيب ان هذه الحكاية ليست خيالاً، وأنها حدثت بالفعل. وكنت أتصور أن الطبيب سيصدقنى. لكنه أمر بإعطائى جلسة كهربية. وحينما

طلبت من الطبيب أن يخرجني من المستشفى حتى لا يضيع على
الإمتحان للمرة الثانية، قال لى : سأخرجك حين تشفين تماماً.

وسألته : ومتى أشفي تماماً ؟

قال : حين تكفين عن تصور الخيالات.

قلت له : أية خيالات ؟

قال : الخيالات عن عمك وعشة الفراع.

قلت : هذه أشياء حدثت وأنا طفلة صغيرة وقد نسيتها.

قال : هذه أشياء لم تحدث.

قلت له : كيف عرفت أنها لم تحدث ؟

قال : أهلك قالوا أنها لم تحدث.

قلت : ولماذا تصدق أهلى ولا تصدقنى أنا ؟

قال : نحن نصدق الأهل ولا نصدق المرضى.

قلت : ومن قال أننى مريضة ؟

قال : نحن.

قلت : من أنتم.

قال : الأطباء.

قلت : ولكن لم يحدث أن فحصنى طبيب واحد منكم، ولم يحاول

واحد منكم أن يسمعنى أكثر من نصف دقيقة. وقد أمرتم لى بجلسة

كهربية فوق رأسى، قبل أن تسمعوا منى شيئاً. هل هذه مهنة الطب ؟

قال غاضباً : المستشفى بها ٣٥٥٠ مريضاً ومريضة (٢٢٠٠ مريضاً، ١٣٥٠ مريضة) فهل يمكن أن أسمع كل واحد منهم أكثر من نصف دقيقة.

قلت : وهل أنت الطبيب الوحيد هنا ؟

قال : نحن تسعة أطباء فقط فى كل هذه المستشفى ، أي أنّ كل طبيب مسؤول عن ٤٠٠ مريض ومريضة، أي أننى لو أستمعت لكل مريض لمدة دقيقة واحدة، فمعنى ذلك أننى أقضى سبع ساعات فى اليوم لمجرد سماع أقوال المرضى والمريضات. ومتى إذن يمكننى أن أقوم بأعمالى العلاجية الأخرى.

قلت : ولكنك لا يمكن أن تقوم بأعمالك العلاجية الأخرى دون أن تسمع ما يقوله المريض أو المريضة؟

قال : وهل كل ما يقوله المريض صحيحاً ؟

قلت : بالطبع لا، ولكن هل كل ما يقوله الأهل صحيحاً ؟

قال : لا بالطبع، ولكن ماذا أفعل أنا ؟

قلت : لا بد أن تبحث عن الحقيقة. إن معظم المريضات هنا لسن مريضات. وإنما لهن مشاكل مع الأسرة، ومن الظلم اتهامنهن بالجنون أو المرض النفسى.

قال : وماذا تريد الآن ؟

قلت : أريد أن تكتب لى خروج من المستشفى.

قال : سأكتب لك « خروج » حين تشفين تماماً.

قلت : وكيف تعرف أنني شفيت تماماً ؟

قال : حين تقولين أن موضوع عمك لم يحدث، وحين تتكلمين عن أبيك وأسرتك باحترام. إن هذا الأب هو الذي أنجبك، وهو الذي أطعمك، وهو الذي أدخلك كلية الطب، ويجب أن تشعري نحوه بالإمتنان لا الكراهية.

وسكتت سهير قليلاً، وكان قد تجمع حولنا بعض الفتيات والنساء المريضات. ونظرت إلى سهير بعينيها الواسعتين الحائرتين وقالت : المفروض أن أكذب لكى أخرج من هنا يا دكتور، وسوف أكذب حتى أخرج من هنا، وألا أنتهيت تماماً.

وقالت إحدى الفتيات، والتي بدت فى مثل عمر سهير (٢٤ سنة) : أرجوك يا دكتورة، وأنا أيضاً أريد أن أخرج، لقد ضيعوا على امتحان العام الماضى. كل زميلاتى وزملائى تخرجوا من كلية الصيدلة، وأنا هنا فى هذا القبرا!

وسألته : كيف دخلت إلى هنا ؟

أبتسمت بسخرية وقالت : الدخول إلى هنا سهل جداً.

وقالت فتاة أخرى : يكفى أن يرفع الأب سماعة التليفون ويقول لهم خذوا أبنتى. وقالت امرأة أخرى : يكفى أن يرفع الزوج سماعة التليفون، ويقول لهم خذوا زوجتى !

وقالت سهير : لقد عرفت لأول مرة القانون الغريب رقم ١٤١ لسنة ١٩٤٤ الذي لا زال يسري حتى اليوم، والذي بمقتضاه حسب المادة الثانية، فإنه يمكن لأي شخص (الأب أو الزوج أو الجار) أن يبلغ البوليس (ولو كيدياً) ويقول : هذه مريضة أو هذا مريضاً. وتحضر عربة البوليس على الفور وتحمل الشخص بالقوة. وإثبات كون الشخص مريضاً أم لا يتم بواسطة مفتش الصحة (الذي لا يعرف شيئاً في الطب النفسى، أو حتى الطب الجسدي، لأن عمله الأساسى هو فحص الموتى واستخراج شهادة الوفاة). وما أن يري مفتش الصحة رجال البوليس يسوقون إليه شخصاً، فإن هذا الشخص مريض بعقله لا شك. ومهما قال هذا الشخص شيئاً فلا أحد يصدق. ويكتب مفتش الصحة على الأوراق : حالة جنون. ويساق الشخص إلى المستشفى على الفور.

وقالت إحدى النساء الواقفات حولنا : الدخول سهل جداً يادكتور، يكفى أن ترزق واحدة مثلى بزواج جشع. أراد أن أبيع جسدي ليسدد ديونه. وحين رفضت، ضربنى، وطلب البوليس. وحين ساقونى إلى مفتش الصحة، قلت له أن زوجى هو المجنون، لأنه يريد أن يجعلنى مومساً ليسدد ديونه. لكن مفتش الصحة كان يستعد للخروج من مكتبه، فلم يسمعنى. وكتب شيئاً على الأوراق بسرعة، وساقونى إلى هنا.

وقالت امرأة أخرى : أراد زوجى أن يطلقنى ليتزوج امرأة أخرى.

وقال لى : تنازلى عن النفقة والمؤخر، فرفضت. فضربنى، وطرردنى من البيت. وفت عند الجيران، لأن أهلى فى أسوان. وفى الصباح عدت إلى بيتى فحاول أن يطرردنى. قرفضت : فضربنى ومزق ملابسى، وطلب البوليس. وأخذونى بملابسى الممزقة إلى مفتش الصحة، ولم يكن موجوداً. فأتصل به التمورجى بالتليفون. وقرر مفتش الصحة أننى مريضة بالتليفون ودون أن يرانى، وساقونى إلى المستشفى.

وقالت سهير : الدخول إلى هنا سهل جداً، ولكن الخروج عملية صعبة جداً ومعقدة. فكيف يمكن إثبات أن هذا الشخص شفى أم لم يشف بعد. إن مقومات إثبات المرض غير موجودة. وبالتالى لا توجد مقومات تثبت الشفاء. ولهذا يتردي الشخص بالسنوات فى هذه المستشفى، خاصة إذا نسيه أهله، ولم يطالبوا بخروجه. بعض المرضى والمريضات دخلوا المستشفى منذ ثلاثين عاماً. وفى معظم الأحيان لا يطالب الأهل بالخروج. إن معظم الآباء أو الأزواج الذين يدخلون أبنتهم أو أبنيتهم أو زوجتهم إلى هذه المستشفى، يفعلون ذلك من أجل التخلص منهم. فكيف يمكن أن يهتموا بعودتهم، أو يطالبوا بخروجهم. ثم أن الذى يدخل إلى هنا مرة واحدة يصبح موصوماً إلى الأبد. ومن السهل إدخاله مرة أخرى، أو التلميح بأنه دخل هذه المستشفى من قبل، ليتحطم مستقبله. وقالت فتاة أخرى يبدو على وجهها الأسى والحزن : إنى اسعى لدى الأطباء منذ ثلاث سنوات للخروج دون جدوى . لقد أحضرنى أبى هنا

منذ أربع سنوات وأختفى. وكلما طلبت الخروج قال لى الطبيب أن أبى لم يحضر. ولا بد للمستشفى أن تسلمنى لأبى أو ولى أمري الذي أحضرنى.

وقالت فتاة أخرى : إنهم يرمون بنا هنا، ليتخلصوا من أكلنا ومصاريفنا.

وقالت سهير : إنى أطلب منك يا دكتور، أن تنقذينى وتخرجينى من هنا !

وصاحت الفتيات والنساء من حولنا : ونحن يا دكتور، أنقذينا واخرجينا من هنا !

وكان يوماً من أتعب أيام حياتى ، ووجدتنى وسط أكثر من أربعين أو خمسين فتاة وامرأة، وكل واحدة تحاول أن تحكى قصتها. وكلهن ضحايا أسر مزقتها الطلاق وتعدد الزوجات، وخيانة الأزواج، وخيانة الآباء، وضعف الأمهات. وبعضهن طالبات بالجامعة أو المعاهد العليا، أو موظفات، وبعضهن زوجات بغير عمل وبغير عائل. وبعضهن أنقطعت عنهن زيارات الأهل منذ سنوات طويلة، وأصبحن بغير أهل، ويعشن تحت رحمة مجموعة من التمورجية. يأكلن أكلهن (أكل المستشفى الضئيل) ويشغلن فى مسح الأرض وغسل الملابس والصحن، والتي تعصى الأوامر فليس هناك إلا الضرب، وأحياناً الإعتداء الجنسى ذاته. وحين تذهب الفتاة إلى الطبيب لتشكو، فإن أحداً لا يسمعها، وإن

سمعت فإن أحداً لا يصدقها. لأن معظم أطباء النفس يؤمنون بالمثل القائل : إذا كان المتكلم مجنوناً فالمستمع عاقل.

وتركت سهير والفتيات والنساء البائسات، وذهبت إلى الأطباء. وجاوت أن أعثر معهم على حل، لكن أحداً لم يكن بيده الحل. ووجهات النظر تختلف. كان بعضهم يري أن المريضات والمرضى أيضاً يظلمون، وأنهم جميعاً ضحايا أسر فاسدة، أو فقر شديد، أو مشاكل جنسية وكبت وحرمان، وبعضهم كان يري غير ذلك. ويعتقد أن المريضات والمرضى نوع أدنى من البشر ويستحقون ما هم فيه. وأنست في أحد الأطباء نوعاً من الفهم وأتساع الأفق والإنسانية، فطلبت منه أن يساعد سهير في الخروج بأسرع ما يمكن حتى لا يضيع عليها الامتحان. وفعلاً تمكنت سهير من الخروج من المستشفى بمساعدة هذا الطبيب. وكم كانت فرحتي حين سمعت صوتها في التليفون يأتيني بعد عدة شهور، وينبئني بأنها نجحت، وحصلت على بكالوريوس الطب والجراحة، وأن الرجل المترهل (قريب زوجة أبيها) يرفض تطليقها، وأنها تستعد لرفع قضية في المحكمة ليحكم لها القاضي بالطلاق، ولتستطيع الزواج من ابن خالتها. وسألتها : وما موقف أبيك الآن ؟

قالت : حين خرجت من المستشفى، علمت أنه طلق زوجته. ولذلك هو يشجعني على الطلاق من قريبها.

سميحة

هى فتاة فى الثانية والعشرين تحاول الإنتحار وتكره حياتها. نشأت فى أسرة تفضل الذكور على الإناث فى كل شئ، حتى الأكل. وتقول سميحة : كان أبى وأمى يطلبان منى دائماً أن أخدم أخى، وأسقيه وهو راقد فى السرير، وأمسخ حذاءه، رغم أننى كنت فى المدرسة أكثر تفوقاً من أخى، وكان أخى يضربنى إذا لم أخدمه، وكنت أضربه كما يضربنى. لكن أبى وأمى كانا يسمحان له بضربى ويمنعانى من ضربه. وكنت أتمنى أن أكون ولداً مثل أخى ليعاملنى أبى وأمى كما يعامله، ولا أشعر بالمهانة التى أشعر بها كلما نهرتنى أمى أو نهرنى أبى قائلاً : أنت بنت ! وكنت أبكى وأنا أصلى لله، وأسأله لماذا خلقنى بنتاً. وكنت أوجه إليه اللوم لأنه لا يعدل بينى وبين أخى، ولا يجعل أبى وأمى يعدلان بينى وبين أخى. وقد انهارت كل آمالى حين رفض أبى أن أدخل الجامعة بعد حصولى على الثانوية. وفوجئت بهم فى يوم يقولون

أننى سأتزوج. وبكيت ورفضت. لكن أبى عقد قرانى على رجل لا أعرفه ولا يعرفنى، أبى هو الذي وقع على عقد قرانى لأنه ولى أمرى. حاولت الانتحار عدة مرات، فأخذتنى أمى إلى طبيب نفسى . قال الطبيب أنه سيعالجنى فى ثلاثة أشهر، وعلى أن أذهب إليه مرة كل أسبوع. وفعلاً كنت أذهب إليه، وفى كل مرة يجلس أمامى يسألنى أسئلة غريبة. سألنى مرة : لماذا أحسد أخى وأتمنى أن أكون ولداً؟ فقلت له : لأن أهلى يفضلونه على. لكنه طلب منى أن أفكر قليلاً وأتذكر طفولتى. ولما لم أتذكر شيئاً، قال لى : هل لأنه يملك عضو الذكر وأنت لا تملكينه؟ وفرجت بهذا السؤال الغريب، وقلت له أن ذلك لم يخطر ببالى أبداً. لكنه سألنى إذا ما كنت أحب أبى أكثر من أمى، فقلت له أننى أفضل أمى، لأنها تقف إلى جانبى أحياناً. أما أبى فهو الذي منعى من دخول الجامعة. وهو الذي عقد قرانى رغم أنفى. لكنه لم يقتنع بكل ما قلته. وقال لى ان هذه هى الأسباب الظاهرية لحالتى النفسية، وأن الأسباب الحقيقية هى أننى أحسد أخى بسبب امتلاكه لعضو لا أملكه. وأعطانى الطبيب عدة جلسات كهربية. وسألنى عما إذا كنت أريد أن أنجب أطفالاً؟ وقلت له أننى لا أريد أن أتزوج، لكنه أخذ يقنعنى بأن أطيع أهلى وأتزوج، فالزواج هو الحياة الطبيعية لكل امرأة، وأن أفكر فى إنجاب طفل يعوضنى عن النقص الذي أشعر به كبنت لا تملك ما يملكه أخى الذكر، وانتهت الأشهر الثلاثة. ولكن حالتى ازدادت سوءاً. وأخرجت

لى سميحة من حقيبة يدها عدداً من الروشتات المسودة بعدد كبير من أسماء الأدوية والعقاقير: أقراص لإزالة الصداع، وأقراص منومة لإزالة الأرق، وأقراص لفتح الشهية، وأقراص مهدئة . وقالت لى سميحة أنها تبتلع ما يقرب من اثني عشر قرصاً فى اليوم الواحد من مختلف هذه الأدوية.

وذهبت إلى الطبيب النفسى الذي يعالج سميحة وسألته عن اسم المرض الذي يعتقد أنه أصاب سميحة فقال لى : اكتئاب . وسألته عن سبب ذلك الإكتئاب، فقال لأنها ترفض أنوثتها وتتمنى أن تكون ذكراً، بسبب عقدة حسد عضو الذكر منذ طفولتها. وقال لى : ان سميحة بلغت الثانية والعشرين من عمرها ولكنها لم تنضج نفسياً وتقبل أنوثتها، وأنها لا تزال فى مرحلة الطفولة النفسية ولم تتخلص من عقدة حسد عضو الذكر.

وقلت لهذا الطبيب النفسى : أن سميحة لا تعاني من أية عقدة، لكنها تعاني من أبيها الذي حرّمها من التعليم، وأصر على أن يزوجه رجلأ غريباً عنها لا تريده.

ورد على الطبيب قائلاً : ولكن سميحة لها ثلاث أخوات بنات أخريات، وقد حرّمهن الأب نفسه من التعليم وزوجهن، وهن يعشن مع أزواجهن فى هدوء، ولم تحاول واحدة منهن الإنتحار كما حدث لسميحة. قلت له : لأن سميحة أكثر طموحاً فى الحياة من أخواتها. إن قبول

أخوتها للقهر بسبب خوفهن من عصيان الأب، أو لسبب آخر، لا يعنى على الإطلاق أن تكون سميحة مثلهن وتقبل القهر.

وقال الطبيب : إن الأب هو الذي يملك حق تقرير مصير ابنته. وليس هذا قهراً. أنا شخصياً لا أوافق أن تتزوج ابنتى ضد ارادتى، وإلا فما فائدة الأب؟ إن دور الأب أن يختار لأولاده أحسن حياة، ويوجههم إلى ما هو فى صالحهم.

قلت له : هناك فرق كبير بين التوجيه وابداء الرأي، وبين الفرض والإجبار.

وقال الطبيب : إن سميحة فتاة غير طبيعية. أنها عنيدة صلبة الرأي. وهى تحاول التشبه بالرجال. وسألته : كيف ذلك ؟

قال : أنها تكره الفساتين وأدوات الزينة، ولا تعتنى بجمالها كما تفعل كل البنات فى سنها.

قلت : ربما لها هواية أخرى غير الفساتين وأدوات الزينة، ربما هى ترى جمالها فى شئ آخر غير شكلها. لقد عرفت منها أنها تحب القراءة وأنها تفضل شراء الكتب عن شراء الفساتين وأدوات الزينة.

وقال لى الطبيب : وهل تعتقدين أن هذا طبيعى لفتاة فى مثل سن سميحة؟

قلت له : أنه شئ طبيعى جداً لأي فتاة فى مثل سن سميحة أن

تفضل شراء الكتب عن شراء الفساتين وأدوات الزينة. إن سميحة تعتقد أنها إنسانة لها عقل، يجب أن تغذيه وتنميه بالقراءة والمعرفة، وليست مجرد جسد أو أداة لجذب الذكر. إن سميحة تمثل الفتاة الذكية التي تنظر إلى نفسها نظرة إنسانية متكاملة، وليست تلك الفتاة الغبية التي تتصور أن النقود لم تصنع إلا لشراء الفساتين والأحذية واللحم والخضار، وأن شراء الكتب ليس من شأنها وإنما من شأن الرجال. ورد الطبيب بغيظ : إذا انهمكت المرأة في قراءة الكتب والعمل وخلافه، فمن إذن سيرعى الأسرة والأطفال، وبعد الطعام للزوج حين يعود من عمله مرهقاً. إن هذه الأفكار لا تقود أبداً إلى تدعيم الأسرة، بل إلى تفكيك الأسرة. أنها لا تقود إلى سعادة الأسرة بل إلى شقائها. لقد خلقت المرأة للبيت والرضاعة ورعاية الأطفال وخدمة الزوج، أما الرجل فقد خلق للأعمال الأخرى.

ولم يكن هناك جدوي من المناقشة، واستأذنت من هذا الطبيب بعد أن أعطيته قائمة بأسماء الكتب الجديدة في علم النفس.

ولم يكن في إمكان الطبيب النفسى بطبيعة الحال أن يشفى سميحة من حالتها، رغم الأقراص العديدة التي كتبها لها. وقد صممت على أن أساعد سميحة وأنقذها من محاولاتها المتكررة للإنتحار، والتي كان يمكن أن تفقد حياتها تماماً في واحدة منها. وذهبت مع سميحة إلى أبيها وأمها، وتحدثت مع الأب والأم. وأقنتع الأب والأم بأن بقاء سميحة على

قيد الحياة أهم من تزويجها بذلك الرجل (الذي أتضح أنه يملك عمارة كبيرة). وصرف الأب والأم نظرهما عن هذا الزواج، كما أن العريس نفسه كان قد هرب بعد أن علم عن محاولات سميحة للإنتحار. وأستطعت في الزيارة الثانية أن اقنع الأب والأم بأن تنتسب سميحة إلى الجامعة من أجل استكمال دراستها، بدلاً من أن تبقى في البيت وتسبب لهم المشاكل. وفعلاً انتسبت سميحة إلى كلية الآداب.

وانقضت بضعة شهور، حين ذهبت إلى معرض الكتاب الدولي الأخير، وبينما أنا أقف في أحد الأجنحة، رأيت سميحة، لكنها لم ترني. كانت تقف أمام صفوف الكتب وعيناها من خلف النظارة الطبية تنتقلان ببطء وهدوء فوق العناوين. فيهما لمعة الذكاء، والثبات، والإستغراق. بالرغم من أن شاباً وقف بجوارها، بل شاباً كثيرين، من كل جانب، يدفعونها ويتزاحمون. لكنها لا تحس بهم. وعيناها لا تنفصلان عن صفوف الكتب. لا تنشغلان لحظة واحدة عن ذلك الإستغراق الشديد، كأنما العالم كله من حولها لم يعد له وجود إلا تلك الصفوف المتراسة من الكتب.

وهبطت عيناها تتأملان جسمها: جسم مشوق رياضي، وساقان قويتان داخل بنطلون، وقدمان ثابتان فوق كعب سميك منخفض. وأمتدت يدها إلى كتاب وفتحته، ورأيت أصابع يدها. أصابع رفيعة قوية. أظافرها بغير طلاء. قرأت في الكتاب بضع صفحات، ثم أعادته

إلى مكانه. وانتقلت إلى كتاب آخر. أنها لا تكتفى بقراءة عنوان الكتاب أو أسم مؤلفه، ولكنها تحاول أن تتعرف أيضاً على شئ من مضمونه قبل أن تشتريه.

أدركت أن سميحة قد شفيت. وأدركت أنها لم تشف فحسب، ولكنها تمثل الفتاة المصرية الجديدة. وشتان بينها وبين تلك الفتاة القديمة التي كانت تظن أن المعارض لا تقام إلا لعرض الأزياء والموديلات والبضائع ومستحضرات التجميل، وأن النقود لم تصنع إلا لشراء الفساتين والأحذية واللحوم والخضر. أما أن يكون هناك معرض للكتب، فليس هذا من شأنها، وإنما من شأن الرجال. وليس كل الرجال أيضاً، وإنما هؤلاء الرجال الذين تخصصوا في القراءة. وكان القراءة تخصص معين لا يقوم بها إلا فئة قليلة من الرجال. والقراءة أيضاً كما قالت لها أمها أو جدتها تضعف البصر ويجب على البنت أن تحافظ على جمال عينيها لتجذب الرجل بسهولة، ويرتفع ثمنها في سوق الزواج. والرجل لا يحب الفتاة التي تلبس نظارة طبية. لماذا؟ أنها لا تدري. ولكن هذا ما قالت له أمها وخالتها وعمتها.

وكم يبدو الفرق كبيراً بين الفتاة الجديدة والفتاة القديمة، وبين العينين النظيفتين الذكيتين من خلف النظارة البيضاء، وبين العينين الغبيتين الغارقتين في سواد الكحل والرميل والظلال الخضراء.

كم يبدو الفرق كبيراً بين الجسم الرياضى المشوق، وبين الجسم

الكسول المرتخى، بين الساقين القويتين اللتين تتحركان بحرية داخل البنطلون، وبين الساقين السمينتين الملتصقتين داخل المينى جيب الضيق، بين القدمين الثابتين فوق الكعب السميك المنخفض، وبين القدمين المقوستين المتأرجحتين على كعب رفيع عال.

كم يبدو الفرق بين الأصابع الرفيعة القوية بأظافرها القصيرة بغير طلاء، تقلب صفحات الكتب في نهم، وبين الأصابع الطرية البضة ذات الأظافر الطويلة المدهية الحمراء كمخالب الحيوانات المفترسة، تقلب في اللحوم والفساتين في نهم.

كم يبدو الفرق صارخاً بين الفتاة الجديدة التي تدفع بسخاء سبعة جنيهات لشراء كتاب تريده، وتبخل بمثل هذا المبلغ على شراء فستان، وبين الفتاة القديمة التي تدفع سبعة جنيهات ثمن تفصيل الفستان الواحد وتعتقد أن الكتاب يصبح باهظ الثمن لو أرتفع سعره عن سبعين قرشاً. كم يبدو الفرق واضحاً بين الفتاة الجديدة التي يحوطها الشباب من كل جانب فلا تنشغل بهم عما تريد أن تقرأ، وبين الفتاة القديمة التي إذا لمحت شاباً من نافذة أو من على بعد كيلومتر ساوت شعرها وحاجبها وبرشت بعينها.

هذه هي الفتاة المصرية الجديدة سميحة، بجمالها الطبيعي وبساطتها وحبها للكتب والقراءة، بنظارتها الطبية البيضاء، وبنطلونها البسيط العملي، وحذائها المنخفض المتين. بشخصيتها الواثقة بنفسها المعترزة

بقيمة عقلها ونفسها، المؤمنة بالمساواة الحقيقية بينها وبين الرجل.
ولم تكن الفتاة الجديدة واحدة فحسب، ولكنها كانت مئات من
الفتيات الجديديات يملأن ممرات معرض الكتاب. وامتلأت عيناى بالدموع،
دموع الفرح، وتذكرت كيف كنت منذ عشرين عاماً فى مثل عمر هؤلاء
الفتيات، وكيف كنت أخفى الكتب تحت البطاطين وأمارس القراءة خلسة
وكأنما هى عمل غير لائق بالبنت يستوجب الخفاء.

فاطمة (ب)

هى فتاة ذكية، حساسة، تشتغل بالثانوية العامة، ومنتسبة إلى كلية الحقوق بالجامعة. تبلغ من العمر اثنين وعشرين عاماً. لم تعرف أباهـا، لأن أمها حملت بها قبل أن تتزوج أباهـا، وهرب الأب، وواجهت الأم المشكلة وحدها. وولدت فاطمة كطفلة غير شرعية، عطفـت عليها الأسرة، وتسترت على أمها حماية لها من الفضيحة الكبرى بين الناس. لكن فاطمة منذ طفولتها وهى ترى الكراهية حولها. وكثيراً ما سمعت أمها تقول لها وهى لم تبلغ الرابعة من عمرها : «ليتـك مت قبل أن ألدك» . وبعض أفراد الأسرة حين يضيقون بها يقولون لها : «ليت أمك ماتت ومت معها وهى تلدك».

وعاشت فاطمة فى ظل أسرة أمها. وحملت أسم والد أمها (جدها). وكان هو الذى يطعمها ويطعم أمها أيضاً. وحين حصلت فاطمة على عمل بالثانوية العامة، أصبحت تنفق على نفسها وعلى أمها. وفكرت أن

تأخذ أمها وتعيش فى مكان بعيد عن هذه الأسرة التى لا تكف عن تذكيرها بالماضى الذى تحاول أن تنساه، لكن أمها رفضت، وأصرت على أن تبقى هى وابنتها فى ظل حماية الأسرة.

وحدثت المأساة حين تقدم أحد الرجال للزواج من فاطمة. كانت فاطمة فى الواحد والعشرين من عمرها، وكان هو فى الرابعة والخمسين. ولم تشعر فاطمة نحوه إلا بالنفور. لكن الأب (والد أمها) أصر على تزويجها. فقد كان هذا الرجل يمتلك مالا كثيرا، وكان الأب رب أسرة كبيرة العدد، وله من الأولاد والبنات تسعة. وأعتقد أن هذا العريس صفقة رابحة لا يمكن تعريضها. وأصرت فاطمة على الرفض، فثار الأب، وأخذ يهددها ويلمح لها بالماضى، ويأنه هو الذى منحها اسمه. ومعنى ذلك أنه منحها الشرف. وأنه هو الذى أطعمها وأدخلها المدارس. وبكت أم فاطمة، وراحت تستعطف فاطمة من أجل أن تقبل الزواج من هذا الرجل ارضاء لأبيها ورداً لجميله السابق. وضعفت فاطمة أمام دموع أمها (وكانت تحبها وتشفق عليها كثيرا). ووافقت على الزواج من هذا الرجل. وحددت الأسرة موعد عقد القران. وقبل الموعد ببضع ساعات، فوجئت الأسرة بصرخة حادة من فاطمة، وسقوطها على الأرض عاجزة عن السير. وحين حملوها إلى الطبيب قال لهم أنها أصيبت بشلل فى ساقها، وأنه يعتقد أنه شلل هبستيري، وأنها فى حاجة إلى علاج نفسى. وفى اليوم التالى وبعد أن أدركت فاطمة أن موعد عقد القران قد فات دون أن

تتزوج، نهضت من سريرها وسارت على قدميها. وفوجئت كل الأسرة وتصور الأب أنها لم تكن مريضة، وإنما مثلت الدور بإتقان لتهرب من الزواج. وانهاled عليها ضرباً وسباً لأنها تسببت فى ضياع العريس. وفى تلك الليلة ظلت فاطمة مؤرقة فى فراشها تبكى. وفى الصباح ظلت تبكى، ولم تتوقف عن البكاء إلا عند الطبيب النفسى الذى أخذوها إليه فى العيادة الخارجية. وعندما سمع الطبيب حكايتها، حولها إلى ضمن حالات البحث الذى أقوم به. وبالرغم من أن فاطمة كانت منهكة القوى، إلا أنها استطاعت أن تحكى لى كل حكايتها بدقة، وتحلل مشاعرها، وتصف مأساة أمها. وقلت للأم أننى أريد أن أقابل والدها لأتحدث معه بشأن فاطمة، وأن عليها أن تحضره معها الأسبوع القادم. وقالت الأم أنه قد لا يوافق على الحضور، فقلت لها إذا لم يوافق، سأذهب أنا إليه لأشرح له بعض الأمور المتعلقة بصحة فاطمة.

وجاء الأب الأسبوع التالى مع فاطمة. وقلت له أن موقفه من فاطمة كان موقفاً غير إنسانى، وغير شريف أيضاً. ونظر الرجل إلى بدهشة، وأصر على أنه رجل شريف، وأن كل الناس يعرفون أنه رجل شريف. وأتهم فاطمة بالجنون والمرض، وأنها ابنة حرام، وأن له بنات أخريات على قدر كبير من الأدب والطاعة، ولا تستطيع الواحدة منهن أن ترفع عينها فى عينه، كما تفعل فاطمة. وقلت له أن فاطمة فتاة ذكية وحساسة وصادقة وشريفة، وليست ابنة حرام كما يقول، ولكن الحرام وعدم الشرف

هو أن يحاول أن يبيعها بالمال لهذا الرجل العجوز الذي تنفر منه تحت أسم الزواج. وشرحت للأب معنى الشرف الحقيقي الذي هو الصدق، صدق الأفكار والمشاعر والأفعال. وليس الشرف مجرد أن يحافظ الشخص على أعضائه التناسلية . إن ارتباط مفهوم الشرف بالنشاط الجنسي فقط، يجعل الناس يكذبون ويزيفون ويتاجرون في بناتهم بإسم الزواج، ويتصورون أنهم شرفاء.

وأدركت من ملامح الأب أنه يسمع مثل هذا الكلام لأول مرة في حياته. وبرغم أنه حاول أن ينكر خطأه، إلا أنني شعرت أنه بدأ يدرك أشياء لم يكن يدركها وأنه مقتنع غي أعماقه بما أقول. لكنه حاول أن ينكر ذلك الإقتناع وقال : إن فاطمة بنت عنيده، وهي تريد دائماً أن تنفذ ما في رأسها بأية وسيلة.

لكنه عندما عاد إلى الأسبوع التالي، كان حزينا وقلقا. وقال لي بصوت منكسر : « تعرفي يا دكتور، إن ضميري أصبح يؤنبني بسبب ما فعلته بأبنتي فاطمة. لقد فكرت طويلاً في كلماتك، وأدركت أنني فعلاً كنت سأبيعها بالمال من أجل أن استريح أنا. لقد كنت أنانياً، وكنت أفكر في نفسي وراحتي، ولم أفكر في راحتها وسعادتها. ولكن أعذرني يا دكتور. إن العبء على كبير، ولا أستطيع بمرتبتي الصغير جداً أن أنفق على تلك الأسرة الكبيرة. الفقر هو السبب يا دكتور. والجوع كفر!

ورأيت الدموع فى عينى الأب، فقلت له :«إن فاطمة ستشفى، ولكن أرجو ألا تكرر ما فعلته معها مع بناتك الأخريات. أنت الآن عرفت وفهمت».

فقال :«إن الإنسان لا يتعلم إلا من الخطأ، ومهما تأزمت حالتى المالية، فلن أكرر مأساة فاطمة مع بناتى الأخريات».

درية

هى زوجة لمهندس ناجح، وأم لثلاثة أولاد. وقد تركت الجامعة بسبب الزواج. قالت لى أنها تبحث عن معنى لحياتها، وتحس بالفراغ الهائل، وأنها لا تستفيد بعقلها وذكائها. حين قال لها الطبيب النفسى : ألا تكفيك أسرتك، أي زوجك الناجح وأولادك الثلاثة الناجحين، قالت : لا. إننى أهىء لهم جميعاً كل أسباب الراحة والسعادة. ولكن ماذا عن نفسى أنا، أليس لى حق فى السعادة أنا أيضاً؟ أليس لى حق فى التفكير والنجاح فى عمل أحبه وأتفوق فيه؟ إننى لا أستطيع التوقف عن التفكير فى مستقبلى الذى ضاع حين قطعت دراستى الجامعية لأتزوج. وما يزيد تعاستى أن زوجى وأولادى لا يستطيعون فهم مشكلتى. وأيضاً أبى وأمى وأهلى لا يفهمون سبب تعاستى، ويظنون أننى طماعه، وأكفر بالنعمة التى أعطاها لى الله، وهى الزوج الناجح الذى يحبنى، والأولاد الناجحين الذين ليس لهم مشاكل. وطبيبى النفسى

أيضاً لا يفهم مشكلتى. إننى أطيعه وأبلى الأقراص التى يكتبها لى، ولكن هل تصنع الأقراص لى مستقبلاً؟ هل تعيدنى الأقراص إلى الجامعة فأكمل تعليمى وأثبت للناس جميعاً إننى إنسانة ذكية وأستطيع من أن أقدم كثيراً من الأفكار المفيدة للمجتمع الكبير والإنسانية؟ فى يوم من الأيام فتحت درية الجريدة الصباحية، فرأت صورة إحدى زميلاتى اللاتى كن معها فى الجامعة، وقرأت أن هذه الزميلة نجحت فى اثبات ذاتها كإنسانة مفكرة، وأشادت الجريدة بنجاح هذه الزميلة وأفكارها العظيمة.

ودون أن تدري بدأت درية تتصور أنها كان يمكن أن تكون مثلها لو أنها لم تقطع دراستها. وأنتابتها حالة اكتئاب حادة، وخرجت إلى الشارع تبحث عن عمل، أى عمل، تثبت من خلاله ذاتها. وبالطبع لم تعثر على أي عمل. ووجدت نفسها عند الطبيب النفسى، الذى أعطاها مزيداً من الأقراص المهدئة والمنومة. لكنها لم تعد تنام الليل، وظلت تفكر، وصورة زميلتها أمام عينيها ليل نهار. وظلت الفكرة تطاردها، حتى أصبحت كل يوم ترتدي ملابسها وتخرج تلف فى الشوارع كالتائهة، تبحث عن شىء لا تجده. عن شىء ضاع منها، ولا تعثر عليه مرة أخرى. وقلت لدرية أننى أستطيع أن أفهم مشكلتها وأقرأها تماماً. وأنها فى حاجة إلى أن تعمل عملاً تحبه وتختاره، وليست فى حاجة إلى أي وظيفة لمجرد الخروج من البيت أو التخلص من الملل أو الفراغ. ولهذا فإن خروجها إلى

الشارع لتبحث عن عمل ليس هو الطريقة الصحيحة لحصولها على العمل الذي ترغبه.

قلت لها : ابحشى داخل نفسك أولاً عن العمل الذى ترغبين فيه . ما ميولك وهواياتك؟ هل هناك نوع معين من الفنون تمارسينه أو تحبين ممارسته ؟ قالت : كنت أحب الموسيقى قبل الزواج، وتعلمت عزف البيانو، ولكنى الآن نسيت ما تعلمته، لأننى لم أستمع بسبب الزواج والأولاد.

قلت لها: لماذا لا تعودين إلى الموسيقى مرة أخرى، وتدرسين مرة أخرى دراسة منتظمة، وبعد ذلك تنضمين إلى إحدى الفرق الموسيقية وتعزفين فى الحفلات ليسمعك الناس.

سألت بدهشة : وهل هذا ممكن ؟

قلت لها : طبعاً ممكن.

قالت : أنا فى الثامنة والثلاثين من عمري يا دكتور.

قلت لها : الإنسان الذكى يمكنه أن يبدأ حياته فى أي عمر. وأنت لا زلت شابة، ولو أخذت موضوع الموسيقى مأخذ الجد والاهتمام ربما تصبحين إحدى الموسيقيات القليلات فى مجتمعنا. إن معظم الموسيقيين والملحنين عندنا رجال. وقد آن الآوان لأن تثبت المرأة المصرية كفاءتها فى فن الموسيقى.

وتلفتت درية حولها فى حيرة وقالت : لقد تأخرت كثيراً. معظم زميلاتى تخرجن ، ويعملن أعمالاً ناجحة. وأنا أبدأ اليوم فقط.

قلت لها : أن تبدأي متأخرة خير من ألا تبدأي أبداً.
وسألتني : وماذا عن الأقراص التي كتبها لي الطبيب، هل أستمر في أخذها ؟

سألتها : لماذا أعطاك الطبيب الأقراص ؟
قالت : لأنام.

سألتها : ولماذا لا تنامين ؟

قالت : أفكر كثيراً.

سألتها : في أي شيء ؟

قالت : في كل حياتي. لا أشعر بالسعادة. أشعر أن شيئاً هاماً ينقصني.

سألتها : ماذا عن حبك لزوجك وحياتك الجنسية؟

قالت : أحب زوجي، وهو يرضيني جنسياً تماماً.

سألتها : تصلين إلى الأورجازم؟

قالت : نعم، بسهولة جداً، وفي كل مرة تقريباً.

سألتها : وماذا عن علاقتك بأولادك؟

قالت : أحبهم جداً. وقد كبروا ولم يعودوا بحاجة إلي، ومعظم وقتهم خارج البيت أو مع أصدقائهم.

قلت : والآن تجددين نفسك مواجهة بيوم طويل وساعات طويلة لا تعرفين ماذا تفعلين بها؟.

قالت : نعم بالضبط .

سألتها : أليس لك صديقات ؟

قالت : لى صديقات كثيرات، ولكنى أكره أحاديثهن التافهة عن الأكل والخدم والملابس، وأكره الشرثرة والنميمة.

قلت لها : لماذا لا تقرأين، ألا تحبين القراءة ؟

قالت : أقرأ أحياناً بعض الروايات الأدبية، وأقرأ الصحف والمجلات كلها تقريباً، لكنى أشعر بالإكتئاب والحزن كلما قرأت عن امرأة تفوقت فى عملها. وأقارن بين حياتها الناجحة وبين حياتى الراكدة فى البيت.

وقالت درية فى حزن: ماذا أفعل يا دكتور ؟

سألتها : هل أقتنعت بموضوع بدء الموسيقى من جديد ؟

قالت :أقتنعت، ولكن الموسيقى مشوار طويل جداً، ولست شابة صغيرة لأصبح تلميذة من جديد.

وسألتها : وما هو تصورك لنوع العمل الذي كنت تبحثين عنه ؟

قالت : أي عمل.

قلت : وهل وجدت أي عمل ؟

قالت : لا. العثور على عمل صعب لمن يحملون الشهادات، فما بالى أنا ؟

وهكذا أحسست أن الحوار بينى وبين درية يدور فى حلقة مفرغة، ورأيت أن الليل الأفضل لمشكلتها فى نظري هو أن تدرس الموسيقى من

جديد، وتحاول أن تعمل شيئاً خلاقاً في هذا المجال. وكانت ظروفها الاقتصادية تساعد على هذه الدراسة بكل يسر. وحاولت أن أشجعها على ذلك، وبدأ عليها حين تركتني أنها ستبدأ المحاولة. لكنني أحسست أنها قد لا تبدأ، وقد تظل في حيرتها فترة غير قصيرة، وإن لم يكن طوال حياتها.

خبرية

هى امرأة فى الأربعين من عمرها، تزوجت منذ عشرين عاماً استاذها فى الجامعة، ولم تشتغل بعد التخرج لأن زوجها كان ثرياً ولم يكن فى حاجة إلى مرتبها. كما أنها فضلت التفرغ لخدمة بيتها وزوجها، ثم طفليها من بعد. كبر طفلاها، وتزوجت الابنة الكبرى، أما الإبن فقد تخرج فى كلية الهندسة وهاجر إلى كندا، أصبحت حياتها خالية بعد أن غاب ابنها وابنتها عن البيت. زوجها مشغول ليل نهار بعمله وبحوثه وقراءاته. وهو يكبرها بحوالى خمسة عشر عاماً.

حياتها الزوجية كانت هادئة، وكل عام يحتفل زوجها بعيد ميلادها. وحين جاء عيد ميلادها الأربعين شعرت بصداع حاد، وبدأت تنتابها حالات غريبة أشبه بالدوخة، وتشعر بدوار فى رأسها، وانقباض فى صدرها، وحين تنظر إلى وجهها فى المرآة ترى بعض تجاعيد حول عينيها وحول فمها. بدأت تزيد من طبقة البودرة لتخفى التجاعيد، وبدأت تفقد

الثقة فى نفسها. وكلما خرجت مع زوجها فى زيارة أو حفل، راحت تختلس النظر إلى الفتيات الشابات وتشعر برغبة فى الاختفاء عن أعين الناس. وبدأت تتصور أن زوجها أصبح يري التجاعيد فى وجهها، وأنه أصبح يتطلع إلى الفتيات الشابات، وبدأت تنهشها الغيرة وعدم الثقة فى النفس. تراودها فكرة الموت كثيراً، وتتذكر أمها التى ماتت منذ أكثر من عشر سنوات، وتشعر أنها ستموت قريباً. وأصبحت تخاف حين تسير وحدها فى الشارع، ولا تخرج إلا بمرافقة زوجها. تنتابها أحياناً نوبات أرق حادة وتظل طول الليل تتخيل أمها التى ماتت، وتشعر بالإختناق. كانت تشعر بلذة مع زوجها قبل هذه الحالة، ولكنها أصبحت لا تشعر بأية لذة، ويخيل إليها أن زوجها لم يعد يرضى بها، وأنه يفكر فى امرأة أخرى غيرها أصغر منها سناً.

أخذها زوجها إلى طبيب نفسى، فقال الطبيب أنها مصابة بما يسمى اكتئاب سن اليأس، بسبب بعض الإضطرابات فى الهرمونات، وأعطاه بعض الأقراص والحقن. لم تتحسن حالتها بل زادت سوءاً. وحين تأخذ الأقراص تشعر بالعرق الغزير يتصبب من جسمها، وتحس كأنها ستموت. إن حالة خيرية ليست نادرة فى مجتمعنا، بل هى إحدى الحالات الكثيرة التى نصادفها فى النساء اللاتى يبلغن الأربعين أو ما حولها. إن هذا الاكتئاب الذى تشعر به المرأة فى ذلك السن ليس له سبب بيولوجى أو هرمونى فى معظم الحالات، وإنما سبب اجتماعى. فالمجتمع ينظر إلى

المرأة فى هذه السن كأنما حياتها انتهت، وكأنما هى أدت دورها فى الحياة (وهى إنجاب الأطفال وتربيتهم حتى التخرج أو الزواج) ولم يعد لها دور آخر. والرجل أيضاً ينظر إلى المرأة كأنما هى أنتهت، ويبدأ ينظر إلى الصغيرات. ولا شك أن نظرة المجتمع والرجل تنعكس على المرأة نفسها. فتشعر أنها أصبحت بغير دور، وأنها لم تعد مطلوبة، ولا مرغوبة. وتفقد الثقة فى نفسها، وتشعر بالعصاب. وقد تفكر فى الإنتحار كوسيلة لإنهاء حياتها بسرعة.

لكن هناك نساء لا يشعرون بإكتئاب فى هذه السن. وهذا يدل على أن السبب ليس بيولوجياً أو هرمونياً. هؤلاء النساء هن النساء اللاتى أدركن أن دورهن فى الحياة ليس الإنجاب وليست تربية الأطفال، وإنما دورهن فى الحياة هو العمل الخلاق والإنتاج والمساهمة فى تغيير المجتمع إلى الأفضل. إن المرأة من هؤلاء تظل واثقة من نفسها حتى نهاية عمرها، وتشعر بأنها مطلوبة، وأنها تؤدي دوراً هاماً للمجتمع.

وحيثما سألتنى خيرية عن الطريقة التى يمكن أن تشفيها من حالتها، قلت لها أنها لا بد أن تخلق لنفسها دوراً فى المجتمع. وأن تعمل على تغيير الظروف الاجتماعية التى تعيشها البنات والنساء، والتى جعلتها فى البيت للخدمة وغسل الصحون أو شغل الإبرة، أو زيارة الجيران والأقارب. ولم تمارس عملاً خلاقاً منتجاً فى المجتمع. وقالت خيرية : لقد أخطأت فى حق ابنتى وزوجتها قبل أن تستكمل تعليمها، ولا شك أنها

ستكرر الحياة الخاوية التى عشتها، وتشعر بأن دورها أنتهى بمجرد أن يترك أولادها البيت.

وتساءلت خيرية: ولكن ما العمل الذى يمكن أن أعمله الآن ؟
قلت لها : عليك بالإنضمام أو انشاء حركة نسائية أو تنظيمًا نسائيًا
من أجل رفع وعى النساء، بحيث لا تتخلى أي امرأة عن عملها من أجل
الزواج، وبحيث تتربى البنات فى جو يؤهلهن للعمل المنتج وليس للزواج.
وتنهدت خيرية فى أسى وقالت : هل أستطيع أنا أن أفعل ذلك؟
وقلت لها : ولم لا، أن أية حركة فى التاريخ تبدأ بالأفراد، ثم تجذب
إليها الجماعات.

قالت : أننى لست شابة لأبدأ.

قلت لها : أنت شابة، والشباب ليس عدد السنوات التى يعيشها
الإنسان. ثم أن الكبر فى العمر ليس عيباً بل ميزة، لأنه يكسب الإنسان
خبرة بالحياة والناس.

وان المرأة الراضية بنفسها تترك العمر الحقيقى يظهر على وجهها.
والعمر الحقيقى لا دخل له بشهادة الميلاد . إن المحافظة على الصحة
يجعل المرأة تبدو فى شباب دائم وحيوية، لكنها حيوية ناضجة خبيرة
بالحياة. والخبرة حين تظهر فى العينين تعطى المرأة عمرها الحقيقى.
وبعض النساء يرسمن فى عيونهن نظرة ساذجة جاهلة، «غير خبيرة
بالحياة» من أجل التمسك بالشباب وفترة المراهقة.

ولا يمكن لأي إنسان أن يمنع بعض مظاهر التقدم في حياته. أنه قد
يؤجل ظهور هذه المظاهر، ولكنها حتماً ستظهر وبالتدريج على وجهه. ان
التجاعيد مثلاً تظهر في أماكن معينة من الوجه. وكثير من النساء
يحاولن إخفاء التجاعيد بالمساحيق، ولكن المرأة الواثقة بنفسها تنظر
إلى كل «تجعية» في وجهها كجزء من حياتها تعتز بها وتفتخر.
إن اعتزاز المرأة بنفسها وحياتها وقيمتها في الحياة يجعلها جميلة في
نظر الناس، ويجعل من كل تجعية تظهر على وجهها جاذبية خاصة.
فالجمال هو الجاذبية. والجاذبية هي ذلك المعنى الذي ترمز إليه
الملامح، حين نقول ان هاتين العينين جذابتان، فنحن نقصد «بوعى أو
بغير وعى» أن المعنى الذي يشع من هاتين العينين يجذب أنظارنا إليه.
وعلى هذا فإن الجمال الخالي من المعنى، جمال بغير جاذبية، بالتالى ليس
جمالاً.

ومن هذا المفهوم يمكن لأي امرأة (وأي رجل أيضاً) أن تصنع جمالها
الخاص أو جاذبيتها الخاصة، وذلك بقدرتها على إشعاع المعانى المختلفة
من ملامح وجهها وملامح جسمها، ومن حركة شخصيتها، ومن حوارها
مع الآخرين، ونظرتها إلى الحياة والناس وتفاعلها مع الحياة، ونشاطها
وعملها، وخبرتها بالحياة.

على كل امرأة أن تدرك هذا المفهوم الجديد للجمال. أن تفخر بخبرتها
في الحياة، أن تثق بكل تجعية تصنعها الحياة على وجهها، وتعتبرها

شهادة طبيعية من الحياة بنضجها وخبرتها، وتسجيلاً حياً لمرحلة من حياتها.

أما هذه المرأة التى تظن أن الجمال هو اخفاء حقيقتها تحت المساحيق، والظهور الدائم بلامح الساذجات الغريبات «القطط المغمضة» فهى امرأة لا تعيش العصر الحديث. وإنما عصر الجوارى، حينما لم يكن مطلوباً من المرأة أن تكون إنساناً له ملامح تعبر عن مخ يفكر ويشع مختلف المعانى، وإنما أن تكون كتلة لحم مذكوكة لا تعبر عن أي معنى سوى أنها كتلة لحم تؤكل حينما يراد لها أن تؤكل.

ومن الطبيعى لهذه الكتلة من اللحم أن تشعر بالإكتئاب النفسى حين يتقدم بها العمر وتزحف التجاعيد الطبيعية على وجهها. إن اكتئابها ينبع من خوفها من أن تلقى من فوق المائدة إلى حيث صفيحة القمامة. فهى لا تعرف لنفسها قيمة سوى أن تؤكل، ومن الطبيعى أن أكلة اللحوم (سواء كانوا من البشر أو من غير البشر) يفضلون اللحم الصغير، لي مضغ بسرعة ويهضم بسرعة ودون جهد كبير.

ويمكن للمرأة أن تقى نفسها من الإكتئاب الذى تضاب به كثير من النساء بعد سن الأربعين (يسمى خطأ فى الطب النفسى اكتئاب سن اليأس) من أن تدرك أن حياتها لها قيمة أكثر من أن تؤكل، ولها من المعانى الكثيرة المتعددة التى تزداد تعدداً وعمقاً بإزدياد نضجها وتقدمها فى العمر.

بهذه الحقيقة وحدها تنجو المرأة من اكتئاب سن اليأس، لأنها لن تشعر باليأس فى أى مرحلة من مراحل عمرها، ولأنها تدرك أن كل مرحلة لها قيمتها، وهى تصنع قيمة لحياتها ووجودها بصرف النظر عن رغبة الرجل فيها أو اعراضه عنها.

وبالطبع كنت أدرك أن كلامى هذا لن يشفى خيرية من الأعراض التى تشعر بها، فهى فى حاجة إلى أن تشعر أنها مطلوبة ومرغوبة، ولها دور هام فى الحياة. وهذا لن يحدث إلا إذا خلقت لنفسها هذا الدور ومارسته، واستطاعت أن تحقق ذاتها من خلاله.

وقد يقول بعض الناس أن خيرية ومثيلاتها نساء طماعات، وماذا هن يردن بعد كل الحياة التى عشنها، وبعد أن بلغن من العمر أربعين عاماً؟ لكن هؤلاء الناس لا يعرفن أن سن الأربعين إنما هو سن قمة النضوج الأنسانى، وهو السن الذى يبدأ فيه الإنسان (رجلاً أو امرأة) فى الاستفادة من خبرات الشباب. وهو السن الذى يبدأ فيه الإنسان الاستمتاع الحقيقى بالحياة، بعد فترة الإعداد والتجارب السابقة.

ومعظم النساء لا يبدأن فهم لذة الجنس أو تذوقها إلا فى هذا السن . ومعظم النساء والرجال لا يبدأون فى النضج العقلى والفكرى والإنسانى إلا فى هذا السن. ولهذا تعتبر سن الأربعين هى المرحلة الأولى من حياة الإنسان التى يبدأ فيها العطاء، عطاء المجتمع خبرته السابقة ونضوجه. وحينما يحكم المجتمع بالإعدام على النساء فى سن الأربعين، فقد حرم

المجتمع نفسه من العطاء الفكري لنصف سكانه.
لكن المجتمع لا يعترف بأن للنساء جميعاً عطاء فكري. إن كل ما يهتم
المجتمع من معظم النساء هو عطاءهن البيولوجي الجسدي فقط. وطالما
أن هذه هي نظرة المجتمع للنساء، فسوف تظل خيرية ومثيلاًتها (اللاتي
ضحين بعملهن من أجل الزواج) مريضات بالإكتئاب، ما لم يسعين
لتغيير حياتهن.

وديدة

طلبت من الطبيبة المشرفة على نزيلات سجن القناطر أن تسهل لى لقاء بعض المسجونات المصابات بأضطرابات أو مشاكل نفسية (بعد أن حصلت على تصريح بزيارة السجن لإستكمال البحث الذي أقوم به)، وكانت أول سجيننة أتحدث معها هى وديدة. وهى فتاة سمراء طويلة، لها عينان سوداوان لامعتان، تدلان على الذكاء والحيوية. وقالت لى الطبيبة أن وديدة تعاني من الأرق والصداع، وأحياناً تنتابها نوبات هستيرية، فتصرخ وتلطم على وجهها وتبكى وتصيح بصوت عال، ثم تهدأ بعد قليل وتنام لفترات طويلة وهى شاردة تفكر. وسألت عن التهمة التى حبست من أجلها وديدة، فقالوا لى أنها المخدرات. وسألت وديدة عن عمرها فقالت لى أنها فى الرابعة والعشرين، رغم أن وجهها أوحى إلى بأنها أصغر من ذلك. وكانت ملامحها، وبالذات حين تتكلم وتبتسم، تعطيها وجه فتاة صغيرة غريبة، تفيض سذاجة وبراعة. وقالت لى وديدة

بعد أن أصبحنا وحدنا : كان أبى تاجر مخدرات، وقد أستخدمنى أنا وأمى وأختى فى هذه التجارة. وكانت أمى ترفض أن تطيعه أحياناً، فيضربها ضرباً شديداً حتى يغمى عليها، وكنت طفلة صغيرة، وشعرت بكراهية شديدة لأبى. ولكنى أخفيت شعوري عنه خوفاً منه. وفى بعض الأوقات كان أبى يهجر البيت شهوراً طويلة دون أن يترك لأمى أي مال. وكانت أمى تضطر إلى أن تذهب إلى البيوت لتغسل الملابس لتحضر لى ولأختى الطعام. وفى إحدى الليالى تأخرت أمى فى بيت من البيوت التى تشتغل بها، وكانت أختى الصغيرة نائمة، وشعرت بالجوع يقطع أحشائى، فخرجت إلى «القهوة المجاورة» وأخذت أشحت من الرجال الجالسين قرشاً لأشتري به طعاماً. وقال لى أحد الرجال : تعالى معى لأشتري لك فطيرة بالسكر. وذهبت فأشتري لى الفطيرة، ثم أعتدي على. وكنت فى ذلك الوقت فى العاشرة من عمري. وعدت إلى البيت أبكى، وحكىت لأمى ما حدث، فبكت معى، وقالت لى ليلتها : يابنتى الناس ذئاب، لكن الله موجود، ولا ينسى أمثالنا من الغلابة.

وكانت الشهور التى يختفى فيها أبى أفضل من الشهور التى يعود فيها إلى البيت. وكنت أقول لأمى دائماً: لماذا لا نترك له البيت ونهرب إلى مكان آخر؟ لكن أمى كانت تقول لى وهى حزينة : وإلى أين نذهب ياوردة؟ وكان لأبى صديق يسهر معه الليل ويشاركه تجارة المخدرات. وفى بعض الأحيان يبيت عندنا حتى الصباح. وفى إحدى الليالى، وكنت

فى الرابعة عشر أعتدى على هذا الرجل. وتكرر هذا عدة مرات. وكنمت الأمر بينى وبين نفسى خوفاً من أبى. لكنى عرفت أن أبى يعرف كل شىء، وأنه يترك هذا الرجل معى ويغادر البيت. وحكىت لأمى، لكنها لم تكن تملك إلا البكاء والصراخ. وكان أبى يضربها حتى يتجمع الجيران. فيقول لهم أنها امرأة مجنونة، مصابة بالهستيريا، ولا علاج لها إلا الضرب، وفى يوم من الأيام عدت من إحدى العمليات التى كان أبى يرسلنى فيها لأتاجر بالحشيش، فلم أجد أمى فى البيت. وعلمت من الجيران أن أبى أخذها فى عربة إلى مستشفى العباسية. وظللت أبكى أنا وأختى طوال الليل. وحين رأتى أبى وأنا أبكى، ضربنى وقال لى أنتى أشبه أمى، وأنه لا علاج لى إلا الضرب. ولم أعد أبكى. وبدأت أفكر فى وسيلة للهرب أنا وأختى. ولكن أبى أفهمنى أنه سيعرف طريقى فى أى مكان فى العالم، وأنه قادر على إعادتى إليه فى أى وقت.

ومضت سنوات، وأصبحت أنا وأختى نشتغل مع أبى فى تجارته، وعلمنا كيف نهرب من رجال الشرطة، ولم يعد الاتصال الجنسى بالرجال (زملاء أبى) شيئاً غريباً، بل أصبح أمراً عادياً بالنسبة لى أنا وأختى. وتزوجت أختى أحد الرجال وذهبت معه، أما أنا فقد رفض أبى أن يزوجنى، وقال أنه لا يستغنى عنى طالما أن أمى لم تعد من المستشفى، وأنه لا يستطيع أن يعيش وحده، ولا بد له من وجودى معه لأخدمه،

وأيضاً لأساعده فى تجارتہ. وكنت أخاف من أبى، ولم أكن أستطيع أن أخالفه. وسألتہ : لماذا وافق على زواج أختى ؟ فقال لأنها غبية، وليست لها فائدة.

وفى يوم، أحسست أننى أريد أن أرى أمى. فذهبت لزيارتها بالمستشفى دون أن يعلم أبى (كان أبى يحرم على زيارتها). وكنت أمى حين رأتنى، وأنا بكيت حين رأيتها. وذهبت إلى الطبيب وطلبت منه أن يخرج أمى من المستشفى لأنها ليست مجنونة. لكن الطبيب رفض، وقال لى أنها مريضة بالهستيريا. وقالت لى أمى أنهم يعطونها قرصاً قبل أن تنام، فتشعر كأنها ستموت، ولا تفيق إلا فى اليوم التالى. وأنها تنام فى عنبر مع عدد كبير من النساء. وأنها تخاف من بعض هؤلاء النساء. وأن إحدى التمورجيات ضربتها مرة لأنها رفضت أن تمسح دورة المياه. وتوسلت إلى أمى أن أخذها معى إلى البيت، لكنى لم أستطع بسبب قوانين المستشفى.

وعدت : زيارة أمى وأنا أبكى فى الشارع. وفى اليوم التالى أرسلنى أبى فى مهمة. ولم أشعر إلا وأنا أمام البوليس. أننى فى هذا السجن منذ العام الماضى، ورغم الحياة القاسية هنا إلا أننى لا أريد أن أخرج.

وسألت الطبيبة المشرفة عما إذا كانت وديدة قد حصلت على أى علاج نفسى وهى بالسجن. وعلمت أن وديدة عرضت على أحد الأطباء

النفسيين. وطلبت أن أطلع على رأيه فى هذه الحالة، وكان كما توقعت. فقد ظن الإخصائى النفسى (حين علم أن أم وديدة نزيلة بمستشفى الأمراض العقلية بالعباسية) أن وديدة ورثت المرض النفسى عن أمها، ولم يتصور أن أم وديدة ليست مريضة نفسياً، وأن وديدة أيضاً ليست مريضة، وإنما المريض هو ذلك الأب الفاسد الذى قضى على مستقبل ابنته وزوجته. ومن الواضح أن أي أقراص تبتلعها الأم فى المستشفى، أو أي دواء تبتلعه وديدة فى السجن، لن يعالج حالتهما، وإنما العلاج لا بد أن يوجه إلى الأب الفاسد، وإلى الظروف الاجتماعية السيئة التى عاشاها.

وتذكرنى هذه الحالة بحالة «دورا» التى كان «فرويد» يعالجها من ذلك المرض النفسى المسمى «هستيريا». كانت دورا فى ذلك الوقت فتاة ذكية فى الثامنة عشر من عمرها. وقد أعتبر فرويد سلوكها غير طبيعى، وتصرفاتها غير محتملة. وأنها كانت تتمثل أمها. وهذه هى كلماته عنها: «كانت دورا.. تتمثل أمها بهذه التصرفات الغريبة التى جعلتها تتجه إلى هذا السلوك الغريب غير المحتمل». وكان فرويد قد شخص أم دور دون أن يراها بأنها مريضة نفسياً بما سماه «ذهان ربة البيت» House wife's psychosis وبالطبع لا تشعر دورا بأي تحسن مع علاج فرويد، فياخذها أبوها إلى طبيب آخر، الذى استطاع أن يدرس ظروف أسرتها، ويدرك حقائق لم يدركها فرويد. وقد كتب هذا الطبيب

(د. ليونارد سيمون) عن دورا يقول : إن دراسة فرويد لحالة دورا كان يمكن أن يكون مفيداً لو أنه اهتم بالحقائق فى حياتها والتي تجاهلها ، لأنه طوال فحصه وعلاجه لعقلها الباطن كان يعرف أنها ضحية صفقة جنسية بشعة اقترفها أبوها. إن هذا الأب الذي مرض من قبل بالزهري ، ثم نقل العدوي إلى زوجته... هذا الأب دخل فى علاقة جنسية أخرى مع زوجة السيد (ك). وكانت هناك دلائل واضحة أن هذا الأب كان يستخدم ابنته دورا ليرضى عشيقته الجديدة (وذلك بأن يقدم دورا للسيد ك). وقد كان فرويد على علم بهذا لأنه كتب : « أن الأب كان مسؤولاً إلى حد ما عن الخطر الذي لحق بها ، لأنه قدمها إلى ذلك الرجل الغريب من أجل أن يشبع هو رغبته الجنسية مع زوجة هذا الرجل ». ولكن بالرغم من هذه الحقيقة ، وبالرغم أن أباه كان سبب تعبها ، فقد أصر فرويد على أن يعتبر مشكلة دورا مشكلة نفسية بحتة ، تتعلق بعقلها الباطن فقط ، متجاهلاً سلوك والدها. وقد أنكر أن رد فعلها لهذا السلوك الأبوي الشائن رد فعل طبيعى. ويبدو أن فرويد كان يعتبر أنه من الطبيعى أن يستغل الرجل المرأة أو الفتاة جنسياً بأي شكل ، وأنه من المرض النفسى أن تقاوم الفتاة أو ترفض.

والذي يقرأ عن علاج فرويد لدورا يدهش ، لأن فرويد لم يحاول أن ينصح الأب بتغيير سلوكه تجاه ابنته ، لكنه كان ينصح دورا بأن ترضى بحياتها. وكان يلومها على ثورتها على أبيها. وركز علاجه لها على أن

تتكيف مع حياتها. وإلا فليس أمامها إلا مصيرها المحترم (كأمها) ألا وهو «ذهان ربة البيت». وكان شفاء دورا بطبيعة الحال هو أن تعود فتحترم أباه، وتقديس تلك الأسرة الأبوية التي نشأت فيها، بل وتحب أباه وتخدمه، ثم علينا أن نتزوج رجلاً (لن يختلف كثيراً عن أبيها)، وتخدمه أيضاً وتقبل حياتها معه، والزهرى الذي سينقله لها. ثم العشيقات اللاتي قد يستخدم بناتها لإرضاء أزواجهن. وهكذا تدور الحلقة المفرغة، ويصبح «ذهان ربة البيت» هو الحالة الطبيعية لجميع الزوجات.

وقد حدث شيئاً مشابهاً لذلك فى حياة دورا. فقد تزوجت وعاشت مع زوجها عدداً من السنوات، ثم ذهبت إلى طبيب نفسى يدعى «فليكس دوتيش» وكان من مدرسة فرويد نفسها، لأنه رأى أن برودها الجنسي لم يكن بسبب سلوك زوجها، الذي لم يكن مخلصاً لها وكانت له عشيقاته كأبيها (وأكثرية الرجال الذين يعجزون عن الإكتفاء بامرأة واحدة)، بل بسبب أنها هستيرية وتكره الرجال (بسبب الحسد بالطبع لأنهم يمتلكون العضو الذي تبحث عنه المرأة بلا جدوى). وحين مات زوجها (ربما من الزهرى أو من مرض آخر) قالت دورا أنها لن تتزوج مرة أخرى، وبالطبع رأى طبيبها النفسى أن هذا يؤكد تشخيصه السابق لها، وكراهيتها للرجال، وهستيريتها الشديدة غير القابلة للعلاج النفسى. فكيف تكره المرأة الرجال إلا إذا كانت مريضة بالهستيريا المستعصية؟ أما سلوك

أبيها في طفولتها ومراقتها، وسلوك زوجها في شبابها، فكل ذلك أشياء طبيعية من الرجل الطبيعي، وعلى المرأة الطبيعية أن تخدم أباهها هذا وتحترمه، وتخدم زوجها هذا وتحترمه. فإن عجرت أو رفضت أو شلت يدها وهي تناوله كوب الشاي وهو راقد على ظهره في السرير، فهي امرأة هستيرية.

كانت خدمة الأب أو خدمة الزوج (ولا تزال) إحدى الواجبات المقدسة للمرأة، وكانت المرأة (لا تزال) التي ترفض هذا الواجب تعتبر امرأة غير طبيعية أو مريضة نفسياً. أما الرجل فإنه من الطبيعي أن يخون زوجته مع العشيقات، ولم نسمع عن رجل اتهم بالمرض النفسى لأنه خان زوجته.

ويكتب «توماس زاس» عن أعراض الهستيريا، مستعرضاً إحدى مريضات فرويد (Anna O أنا «أ») التي شعرت بالمرض أثناء خدمتها لأبيها المريض: «بدأت أنا» تلعب لعبة الهستيريا بسبب كراهيتها لتلك الخدمة المهيئة، وخضوعها لهذا الإضطهاد، وأن تشتغل كمرضة وبغير أجر. وكان واجب النساء من الطبقة المتوسطة في عهد فرويد أن يقمن بخدمة وقريض الأب المريض. وهذا يشبه ذلك الواجب المفروض على النساء في عصرنا بالنسبة لأطفالهن.

إن المرأة في الحضارة الذكورية لا بد وأن تكون مهنتها في الحياة هي الخدمة : أن تخدم أباهها، ثم تخدم زوجها، ثم تخدم طفلها. فإن كانت

امرأة ذكية، تدرك أنها تستطيع أن تمارس مهنة أخرى أرقى من الخدمة، فهي امرأة غير طبيعية، تعاني من كراهية الرجال، وترفض الواجب المقدس الذي تقوم به كل النساء. وعلى المعالج النفسي أن يوضحها لتقبل هذا الدور المفروض عليها بحكم أنوثتها ومصيرها المحتوم في الحياة.

ومن المعروف أن المرأة تقوم بمهنة الخدمة هذه بغير أجر (نظير إطعامها فقط)، فإذا دعت الحاجة الاقتصادية أباه أو زوجها لكي يشغلها في مهنة أخرى خارج البيت، فهي تقوم بالمهنتين معاً، مهنة الخدمة بالبيت ومهنة الخدمة خارج البيت. ورغم أنها تدفع أجرها الذي تكسبه لزوجها أو أبيها، إلا أنها لا تعفى على الإطلاق من مهنة الخدمة بالبيت. بالإضافة إلى المعاملة السيئة من الآباء أو الأزواج للبنات والزوجات، والحماية الأخلاقية والقانونية والاجتماعية لهم التي تشجع هذه المعاملة السيئة. وبعد كل ذلك حين تسقط المرأة من الإرهاق الجسدي، أو حين تصرخ من الإرهاق النفسي، فهي امرأة عصبية هستيرية ولا بد لها من علاج سريع، لتعود هادئة مستسلمة إلى حظيرة النساء.

ابتسام

سألتها ما الذي أتى بك إلى سجن النساء؟ فأجابت بصوت هادئ خال من الإنفعال تقريباً : الدعارة. ونظرت إلى وجهها. كان هادئاً، لكنه ليس هدوء الإستكانة والذل، وإنما هو هدوء الترفع والكبرياء. وفي عينيها نظرة مترفعة، وكأنما تقول أننى أشرف منكم جميعاً. وقد كانت ابتسام رافضة تماماً التحدث عن نفسها، وكانت تهيب على أسئلتى بكبرياء ويسخرية أيضاً، حين سألتها كم عمرك؟ قالت ستين عاماً. لكن المشرفة قالت أنها فى الثلاثين، وأدركت أننى أمام امرأة على قدر من الذكاء. وسألتها : هل تعلمت؟ فقالت أنها تعلمت فى الحياة أكثر مما نتعلم نحن فى المدارس، فضحكت، وسألتها عن عملها؟ فقالت أنها كانت ممثلة على المسرح، وكانت تريد أن تكون فنانة عظيمة، لولا ذلك الرجل الذي حطم مستقبلها تماماً.

ولم تفتح لى ابتسام قلبها إلا فى الزيارة الثالثة للسجن، حين بدأت

تثق فى أننى لا أسعى إلى الحصول على معلومات منها من أجل
أضرارها. وأعتذرت لى عن عدم قدرتها على الثقة بالناس بسرعة قائلة:
كنت أثق بالناس، وهذه الثقة هى سبب وجودي الآن فى السجن. لكن
الناس أشرار، وخاصة الرجال منهم. رينا ينتقم منه !

وسألتها : من هو ؟

قالت : الذي تسبب فى مجيئى إلى هنا . أنا يا دكتور له لست امرأة
مومس كما يكتبون تحت أسمى، ولكن حظى السئ جعلنى أتزوج رجلاً
مومساً. إن الحياة الفنية مليئة بالرجال المومسين الذين يستغلون
الفنانات الناشئات. وقد كنت منذ عشرة أعوام فنانة ناشئة، فتاة بريئة.
ولم أكن أحب المدرسة، لأننى وأنا طفلة فى السابعة، كان هناك مدرس
يخيفنى حين يعانقنى فى مكان بعيد فى الفناء، وكنت أجري هرباً منه.
وكانت أمى تضربنى لأذهب إلى المدرسة. ولهذا كرهت المدرسة جداً.
وكنت أحب التمثيل والفناء والرقص. ومات أبى وأنا فى السادسة عشر،
فأخرجتنى أمى من المدرسة، وبدأت تبحث لى عن عريس مناسب. وقلت
لأمى أننى لا أريد أن أتزوج، وأريد أن اشتغل ممثلة فى المسرح أو فى
السينما. لكن أمى رفضت، وزوجتنى لأحد أقاربها. وكان رجلاً بخيلاً
جداً وقبيح الشكل. وفى ليلة الزفاف جعلنى أكره الجنس كالعمى، فقد
هجم على كالشور وكانت رائحته كريهة، ولم أشعر بأية لذة، وإنما بالم
شديد ورغبة فى القى. وكنت فى الثامنة عشر، وهذا الرجل فى الأربعين

تقريباً. وبعد ستة شهور طلقنى، وقال لأمى أننى أرفض حين يرغبنى. وضربتنى أمى، وسألتنى لماذا أرفضه؟ فقلت لها أننى أكره الرجال، ولا أريد الزواج. وبعد شهور قليلة تزوجت أمى، وبعد زواجها لم تعد تهتم بأمري، لدرجة أننى حين قلت لها أننى سأشتغل ممثلة فى المسرح لم ترفض، وأحسست أنها تريد أن تتخلص منى. فقد أصبحت عبئاً عليها بعد زواجها.

وبدأت حياتى الفنية بداية لا بأس بها. فقد أعطونى دوراً ثانوياً فى إحدى المسرحيات. وفرحت جداً بأول أجر أحصل عليه رقم ضالته. وكنت أشعر بالسعادة وأنا أقف على خشبة المسرح والناس تصفق لى. وبدأت أحلم بمستقبل كفنانة كبيرة مثل الفنانات الشهيرات. لكن أحلامى كلها تحطمت على يد ذلك الرجل. لقد خدعنى، وأفهمنى أنه قد جن جنوناً بحبى، وكنت ساذجة وبريئة. وصدقته. وكنت أحلم بالحب كآبة فتاة فى مثل سنى فى ذلك الوقت. وكنت قد أصبحت فى الواحد والعشرين. وتزوجت هذا الرجل وأنا أحلم بحياة سعيدة. لكن بعد الزواج أدركت أنه يريد أن يستغلنى. وكان يستولى على كل أجرى الذى أحصل عليه من التمثيل. وكان يقول لى أن جسمى يصلح للرقص. وعلمنى الرقص. وجعلنى أشتغل فى إحدى الملاهى الليلية، ويستولى على أجرى. ولم أكن أحب أن أشتغل راقصة، لأنى كنت أشعر بالإهانة حين يعاكسنى الرجال. وكنت أشعر بكرامتى أكثر وأنا ممثلة. لكنى كنت لا أزال أصدق

كلام زوجى، وأحاول أن أرضيه بأي شكل، لأتنى كنت أخاف منه. فقد ضربنى مرة حتى كدت أفقد الوعي. وفى اليوم التالى، ذهبت إلى بيت أمى. لكنى علمت من الجيران أنها تركت الشقة هى وزوجها. ولم أعد أعرف طريق أمى. ولم يعد لى من مأوى سوى بيت زوجى. وكنت لا أزال صغيرة، وأخاف أن أعيش وحدي، وأخاف أن يبحث عنى زوجى ويجدنى ويضربنى حتى أموت. ولهذا عدت إلى بيت زوجى وخضعت تماماً له. لدرجة أنه حين تركنى مع أحد أصدقائه بحجرة النوم لم أرفض. وتكررت العملية مع عدد من الرجال الذين يعرفهم. وعلمت أن هؤلاء الرجال يدفعون له مالاً، ولم أعرف كم يدفعون له، وخفت أن أسأله. وفكرت فى الهرب يوماً، لأننى كنت أكره حياتى، وأشعر بآلام شديدة فى جسمى، ورغبة فى القى. فقد كنت أكره الجنس كراهية شديدة، وأفضل أن اشتغل كفاعل، وأحمل أحجاراً فوق ظهري، ولا يتصل بى هؤلاء الرجال. لكنى لم أكن أعرف كيف أنقذ نفسى. فقد امتلك هذا الزوج مصيرى، وأصبحت عاجزة عن الفرار منه. وكنت أقضى بعض الليالى وأنا أبكى على خالى، وألعن اليوم الذى قابلت فيه هذا الرجل. وأشتد بؤسى حين أصبحت حاملاً، وكنت أريد أن أكون أما ويكون لى طفل أعطيه حبنى وحنانى، لكن زوجى أخذنى إلى طبيب وأجهضنى. وبكى كثيراً. وفكرت فى الإنتحار. ولم تكن أمامى وسيلة إلا أن ألقى نفسى فى النيل، وأنا عائدة بالليل من المرقص. لكنى لم أكن أستطيع أن أفعل

ذلك. وكنت لا أزال آمل أن ينقذنى الله من ذلك الرجل. وكنت فى أشد الحاجة إلى أن أحكى مأساتى لأحد، حتى أخفف عن نفسى الحزن. وكان صاحب المرقص رجلاً طيباً، ورأى مرة أبكى فسألنى عن السبب، ووثقت فيه، وبحث له بمأساتى. وكنت أتصور أنه صديق لى، وسوف يساعدنى على الخلاص. لكنى فوجئت أنه أحد أعوان زوجى. وبدأت أعرف الحقائق من زميلة لى بالمرقص عن هؤلاء الرجال. وطلبت منى زميلاتى أن أطلب من زوجى أن يعطينى قسيمة الزواج، لأنها تعتقد أن لم يتزوجنى حقيقة، وأن المأذون لم يكن مأذوناً حقيقياً. وحين سألت زوجى عن قسيمة الزواج، ثار وغضب، ونظر إلى نظرة مخيفة. لدرجة أننى تصورت أنه ربما يخنقنى بالليل وأنا نائمة. وأصابنى الأرق. وأصبحت أشعر بالقلق والصداع والآلام فى كل جسمى. ولا أدري لماذا لم أهرب منه، ولماذا ظللت أطيعه رغم أننى أصبحت أشك فيه، وأشعر أنه أصبح يريد التخلص منى. لكن عقلى كان عاجزاً عن التفكير. ولم تعد بى أية قدرة على المقاومة.

وفى ليلة من الليالى بينما كنت مع أحد الرجال فى حجرة النوم، أنفتح الباب فجأة ودخل رجال البوليس. وقلت لهم أننى بريئة. لكن الرجل الذي كان معى شهد ضدي، وقال أنه دفع لى مالاً. وأنكرت أننى أخذت شيئاً. لكن أحد رجال البوليس رفع وسادة السرير ورأيت تحتها ورقة من فئة الخمسة جنيهات. ودهشت لأنها كانت المرة الأولى التى يضع

ففيها الرجل مالا تحت الوسادة. وكان زوجي هو الذي يأخذ المال مباشرة من الرجال. وأخذت استعطف رجال البوليس، وأقول لهم الحقيقة، لكن أحداً لم يصدقني. وأخذ الجميع ينظرون إلى بسخرية واحتقار. وحكموا على بالسجن. فهل ترين يا دكتور أنه أستحق السجن، وأستحق أن يضعوني في عنبر المتهمات بالدعارة؟! وقد أوشكت مدتي أن تنتهي وأخرج من السجن. ولكن إلى أين أخرج وأي مستقبل ينتظرني؟

وصمتت ابتسام طويلاً، وصمت أنا الأخرى، وكنت أفكر في مأساتها، فهي متهمة بالإتجار بجسدها مع أنها لم تكن تقبض شيئاً. وهي متهمة بالدعارة وممارسة الجنس مع الرجال، مع أنها كانت تكره الجنس وتشعر بالآلام والغثيان. وقد ضبطوها مع رجل تأمر مع زوجها المزيف ليزوجوا بها في السجن، مستغلين القانون الذي يدين المرأة وحدها ولا يدين الرجل. وقد أراد الرجل التخلص منها بعد أن أدرك أنها بدأت تفتح عينيها على الحقيقة وتذكر أنه زوج مزيف. ولم يكن يشعر بالحاجة إليها بعد أن مص دمها عشر سنوات، وأفنى جسدها وشبابها، وذبلت وهي في الثلاثين، وأصبحت تشعر أنها في الستين. وقبل أن أغادر السجن، سألت أحد الأطباء عن العلاج الذي تأخذه ابتسام. فقال أنها تأخذ أقراصاً منومة، وتأخذ بعض حقن من الهرمونات، لأنها تعاني من اضطرابات شديدة في الهرمونات، وقال لي الطبيب ان المرأة الطبيعية لا يمكن أن تمارس البغاء لأنه ضد طبيعة المرأة، وأن معظم المومسات يمارسن البغاء

بسبب اضطرابات فى الهرمونات. وقلت للطبيب : ان ابتسام امرأة طبيعية، وإذا كنت قد فحصتها ووجدت عندها اضطرابات فى الهرمونات فهذه الاضطرابات ليست سبب ممارستها البغاء، ولكنها نتيجة لهذه الممارسة التى فرضت عليها، وانهكت صحتها النفسية مما أدى إلى اضطرابات فى الهرمونات.

وقال الطبيب : هناك نساء يبلغ بهن الفقر مبلغاً شديداً ولا يمارسن البغاء أبداً، إن الأسباب الحقيقية للبغاء ليست اقتصادية ولا اجتماعية، ولكنها أسباب هرمونية بسبب خلل فى إفراز الغدد الصماء لدى هؤلاء المومسات. ولم أسترسل فى المناقشة، فقد كنت أدرك الطريقة التى تعلمنا بها الطب، والتى تجعلنا عاجزين عن إدراك الأسباب الاجتماعية لأية مشكلة صحية متعلقة بالجسد أو النفس.

وحيثما عدت إلى بيتى، وبينما أنا أتصفح بعض أعداد من المجلة الجنائية القومية باحثة عن البحوث التى أجريت عن البغاء، لمحت عنواناً يقول : دراسة بيولوجية لمجموعة من البغايا. وقرأت البحث وما فيه من جداول، وكانت النتائج كالآتى: «لقد وجد أن النساء البغايا يعوزهن تناسق التكوين الجنسى، كما أنهن مصابات بخلل واضطراب فى الغدد الصماء، وأنهن يملن إلى أن يكن قصيرات القامة، وإلى النحافة فى الوزن، وإلى انخفاض مستوي الجمال فيهن، وكذلك عدم الإلتزان الهرمونى.

وعرفت أن هذا البحث يشبه غيره من البحوث العلمية البيولوجية، حيث يعزل الإنسان عن ظروفه الاجتماعية والاقتصادية، ويوضع فى أنبوبة اختبار فى المعمل، وتجري عليه بعض التجارب الكيماوية. ولست أقول أن مثل هذه البحوث العملية بغير قيمة علمية، ولكنى أعتقد أنها لا تصلح لدراسة نفسية الإنسان رجلاً كان أو امرأة. وكما رفض علماء النفس الجدد نظريات فرويد النفسية عن المرأة، لأنه أهمل المجتمع والظروف الاجتماعية التى تعيشها المرأة، كذلك فإن أي دراسة للنساء البغايا تهمل الظروف الاجتماعية لا تقودنا إلى شئ علمى. ولا يمكن لأحد أن يعتقد أن أمثال ابتسام يمارسن البغاء لأنهن قصيرات القامة، أو بسبب خلل فى إفراز غددهن الصماء. إن السبب الرئيسى فى حالة ابتسام هو ذلك الرجل الذى خدعها واستغلها وساعدته الظروف الاجتماعية والقانونية على ذلك.

خديجة

لم تشعر خديجة بأي حرج حين سألتها عن سبب وجودها بسجن النساء؟ فقالت وهي تبتسم بسخرية : قضية قتل. وقال لى أحد الأطباء أن خديجة تعاني من حالة قلق وأرق، ولا تنام إلا نادراً. وسألت خديجة عن سبب أرقها؟ فقالت أنها تقضى الليل فى مناجاة الله، فهو الوحيد الذي يعرف أنها بريئة وليست مذنبه. وسألتها كيف جاءت إلى السجن؟ فقالت : قتلت طفلى. وسكنت، وشردت عيناها فى السماء. ورأيت فى عينيها كما هائلاً من الحزن العميق، ذلك الحزن الذي لا تراه دائماً فى عيون الفقراء الكادحين، ويشبه السحابة الصفراء فوق العينين. وربما يكون مزيجاً من الحزن ونقص التغذية والإرهاق الجسدي والنفسي الشديدين.

ورفضت خديجة أول الأمر أن تحكى لى قصتها. نظرت إلى بنظرة مليئة بالغضب والكراهية معاً، وقالت بصوت قوي: لا أريد أن أحكى

شيئاً. إنكم لا تفهمون شيئاً. أنتم تأكلون وتشربون، وتسكنون البيوت النظيفة، وتعلمون أطفالكم فى المدارس، وتركبون العربات، ولا يمكن لكم أن تفهموا شيئاً عن حياتنا نحن خدم البيوت، خدم بيوتكم. نحن ننظف لكم بيوتكم، ونغسل ملابسكم وملابس أطفالكم، ونغسل صحنكم، ولا نأكل إلا ما يبقى منكم. وفى الليل ندفع ضريبة فقرنا وذلنا من أجسامنا وشرفنا. ثم تأتون إلينا تحت ستار العلم لتبحثوا حالتنا من أجل مساعدتنا وأنتم لا تساعدون إلا أنفسكم. والمآسى التى نعيشها ليست إلا حكايات مسلية لكم، وبعد كل ذلك نصبح نحن المجرمين والقتلة، وأنتم الشرفاء أسيادنا، أنتم الذين تضعونا فى السجن، وتحكمون علينا، مع أنكم أنتم المجرمين والقتلة!

كان إلى جوارى يستمع إلى هذا الكلام أحد الأطباء والإخصائية الاجتماعية وأحد المشرفين. ونظر إلى الطبيب كأنما يعتذر عما قالته خديجة، وقال ما معناه أن خديجة عصابية، أو نصف مجنونة، ويمكن لها أن تهذى بأي كلام. وقلت للطبيب أن خديجة لا تهذى، وهى عاقلة، بل ذكية. وأنها تعبر عما فى نفسها فى شجاعة. ودهش الطبيب بعض الشيء، وقال وهو يتراجع إلى الوراء: سنتركك وحدك مع خديجة، ربما تستطيعان التفاهم معاً.

وأصبحت أنا وخديجة وحدنا. وظلت خديجة صامتة طويلاً، وأحترمت صمتها ولم أسألها عن أي شئ. ثم رفعت إلى عينيها المليئتين بالحزن

وقالت: إنهم يقولون عني أنني قاتلة، مع أنني لم أقتل. هل هناك أم تقتل طفلها؟! وصرخت بصوت عال وهي تسألني: هل هناك أم تقتل طفلها؟! ولم أشأ أن أقول لها ردي على هذا السؤال حتى أتركها تحكى دون أن تتأثر بما سأقوله. لكنها كانت مصرة على أن تسمع ردي. وسألتنى مرة أخرى: هل هناك أم تقتل طفلها؟! وعبرت عن رأيي بصدق وقلت لها : نعم، هناك أمهات يقتلن أطفالهن. وليس ذلك بسبب الكراهية، وإنما بسبب الحب. وإذا كنت أنت قد قتلت طفلك، فأنا أستطيع أن أفهم كيف حدث ذلك. لا بد أنك عشت مأساة، وأن طفلك كان معرضاً لمأساة أشد، فرأيت أن الموت أرحم له.

قالت بصوت حائر: الموت كان أرحم له ولى، وكنت سأحرق نفسي بعد أن يلفظ طفلي نفسه الأخيرة، لكنى صرخت حين رأيته ميتاً، وتجمع الناس على صراخى.

وسألتها : كم كان عمر طفلك؟

قالت : عشرة شهور.

وأدركت أن المأساة مختلفة عن المأسى التى رأيته من قبل، حين كانت الأم تقتل طفلها بمجرد ولادته خوفاً من الفضيحة واكتشاف الناس لكونها أم بغير زواج. وهناك بعض الأمهات ممن يعجزن عن كتم أنفاس الوليد حتى الموت، أو ترك الحبل السري ينزف الدم حتى يشحب الوليد ويموت، ويتركن الوليد حياً بجوار جامع ليلتقطه أي قلب رحيم. ولكن

طفل خديجة كان عمره عشرة شهور، إن المسألة لم تكن تتعلق بالشرف أو خوف الأم من الفضيحة. وحاولت أن أفكر فى نوع المأساة التى يمكن أن تقود إلى أن تقتل الأم طفلها وهو قد بلغ من العمر عشرة شهور.

وقالت خديجة دون أن أسألها : أنا لم أقصد أن أقتله. لم يكن فى نيتى أن أقتله. لقد كان هو أمل حياتى، وكنت أشتغل وأشقى من أجله هو، ومن أجل أن أطعمه، فكيف يمكن أن أقتله؟ الله هو الذي قتله، هو الذي أخذه إليه ليرحمه من العذاب، لكن الناس تصوروا أننى أنا التى قتلتله. وحين قلت لهم أن الله هو الذي قتله لم يصدقونى. لا أدري لماذا لا يصدقونى، ربما ظنوا أننى أنا الله الذي يأخذ الأرواح من الأجسام. ولكنى لست الله. أنا امرأة مسكينة. كنت خادمة فى بيت كبير محترم، وكنت أعرف القراءة والكتابة، وكنت أذاكر أحياناً مع ستى الصغيرة، وقرأ معها القصص، وعلمتنى بعض الكلمات الانجليزية. وكنت أسمع الراديو، وأرى التلفزيون، وعرفت أشياء كثيرة عن الحياة. لدرجة أننى تمنيت أن أدخل المدرسة وأتعلم مثل ستى الصغيرة. وكنت أفهم بسرعة عنها، لدرجة أن أمها (ستى الكبيرة) كانت تقول لها: «خديجة أذكى منك ياسوسو». ونجحت الست سوسو فى الثانوية ودخلت الجامعة، وكنت أحسدها، وأتمنى أن أدخل الجامعة مثلها، لأتخرج وأشتغل شغلة محترمة بدلاً من الخدمة فى البيوت. ولكنى كنت راضية بحياتى فى هذا البيت. فقد كانت الست سوسو تعاملنى كأختها، وكانت تعطينى الكتب

لأقرأها، وتدافع عني حين تشخط في الست الكبيرة. وكانت الست سوسو في نفس عمري، أي في حوالى السابعة عشر. وكان لها أخ يكبرها بعامين هو سيدي الصغير. وكان فاشلاً في الدراسة، ويرسب كل عام تقريباً. وكنت أشتغل عند هذه الأسرة منذ كان عمري اثني عشر عاماً. وكان سيدي الصغير هذا يأتي إلى في المطبخ كل ليلة، ويقول لى لا تقولى لماما أو لسوسو. وكتمت الأمر لأنى كنت أخاف أن تقول الست الكبيرة لأبى الذي كان يأتي كل شهر ليأخذ ماهيتى. ولم يحدث أي شيء لمدة سنوات، وتعودت على أن يأتي سيدي الصغير إلى. وفي يوم من الأيام أحسست أن بطنى بدأ يعلو عما كان. ومضت بضعة شهور. ونظرت إلى ستى الكبيرة نظرة غريبة، وقالت لى : أنت حامل يا خديجة؟ وقلت لها أنا لا أعرف أي شيء يا ستى. لكنها صفعتنى على وجهى وقالت أنها رأتنى أضحك مع المكوجى، وأنه لا بد ضحك على وفعل ما فعل. ولكنى قلت لها أن المكوجى لم يلمسنى، ثم بحث بالحقيقة وهى أن سيدي الصغير (ابنها) هو الذي كان يأتينى في المطبخ. وظل على ذلك لمدة سنوات. وصفعتنى مرة أخرى وقالت لى لماذا لم تقولى لى. ثم طردتنى. ولم أذهب إلى أبى، لأنى خفت أن يقتلنى. ودخلت مستشفى القصر العينى لألد طفلى. وقالوا لى في المستشفى أننى يمكن أن أترك الطفل وأخرج وحدي. ولكنى لم أستطع أن أترك طفلى. وأخذته معى على كتفى. وصممت على أن أعود إلى الخدمة

بالبیوت، وأعول طفلى حتى یكبر. وحين كنت أنظر فى عینى طفلى
أشعر بسعادة غریبة، وأنسى كل آلامى. واشتغلت فى أحد البیوت،
وكنت أضع طفلى فى المطبخ وأنظف الشقة الكبيرة. وحين أسمعہ یبکی
أجری إلیه لأرضعه. وبعد بضعة أيام أعطتنى الست الكبيرة حسابى،
وقالت لى أنهم أتوا بخادمة أخرى، لأن طفلى یزعجهم بالبكاء.
ویشغلنى عن عملی، وبحثت عن بیت آخر، لكنهم كانوا یستفنون عنى
بعد أيام بسبب الطفل. وفى أحد البیوت قالت لى الست الكبيرة:
سنشغلک عندنا بشرط ألا تحضری الطفل معك. وقلت لها أنه لا زال
یرضع منى، وأننى لیس لى أحد لأتركه معه. لكن الست الكبيرة
أشترطت على ذلك. وكنت قد یشت من العثور على عمل، فتركت
طفلى الرضيع عند جارة لى عجوز نظیر أن أدفع لها جنيهان فى الشهر.
وكان كل مرتبى الشهري خمسة جنيهاً، وكانت المرأة العجوز مریضة،
ولا ترى بعینها جيداً. وكنت أعود فى نهاية النهار، فأجد طفلى راقداً
فوق التراب یبکی من شدة الجوع طوال اليوم. وكنت أبکی وأنا احتضنه
وأرضعه، وأشفق علیه مما هو فیه، وأحس بتأنيب ضمیری لأننى أتركه.
وكنت أستعطف الست الكبيرة لأحضر طفلى معى لأرضعه أثناء النهار.
لكنها قالت لى أنها اشترطت على منذ البداية ألا أحضر الطفل، فهى
مریضة بأعصابها، ولا یحتمل بكاء الأطفال. وفى يوم عدت من شغلى
آخر النهار، فوجدت طفلى مریضاً، جسمه كالنار من السخونة، ومصاب

بالسعال شديد. وبكيت حتى تورمت عيني من منظر طفلي المسكين. وحملته إلى طبيب له عيادة قريبة منى. ودفعت للتمورجى جنيهاً، ودخلت للدكتور، وأعطاني رويضة بها ثلاثة أدوية، صرفتها من الأجرخانة بعد أن دفعت ٢٨٠ قرشاً. وأعطيت طفلي الدواء لكنه كان يرجعه مع القيء. وظللت طوال الليل ساهرة بجواره أبكى، وكلما أعطيته الدواء يصرخ ويبكى ويرجعه مع القيء. وفى الصباح فكرت فى أن أبقى معه ولا أذهب إلى الشغل، ولم تكن أول مرة آخذ فيها أجازة. كنت قد أخذت أجازات سابقة لأبقى مع طفلي وأرضعه. لدرجة أن الست الكبيرة قالت لى: إذا تغيبت يوماً آخر فأعلمى أننا سنحضر خادمة أخرى. ووضعت الملاءة السوداء لأخرج إلى الشغل، ونظرت إلى طفلي وهو راقد على الأرض ومن حوله بركة من القيء والإسهال وملامحه أصبحت كالعجوز من الإسهال والحمى. وحين نظرت إلى عينيهِ الغائرتين، وهو ينظر إلى ويبكى، أحسست أنه يتعذب. وأنه سيموت. ولم أشعر إلا وأنا احتضنه فى صدري، وأضغط عليه بكل قوتي حتى فارق الحياة. وحين رأيته ميتاً بين يدي، صرخت وأنا ألطم على وجهي وأصيح: أنا اللى قتلته! وتجمع حولى الجيران، ولم أفق إلا وأنا فى السجن.

وصمتت خديجة فترة ثم قالت : لو لم أصرخ وأقول أننى أنا التى قتلته، لتصور كل الناس أنه مات وحده، أو أن الله هو الذى قتله ليربحه من العذاب. لكنى أنا التى صرخت، وأنا التى اعترفت. وحين

أنكرت بعد ذلك لم يصدقونى. وقال الطبيب الشرعى الذي فحص جثة طفلى أنه مات مخنوقاً، وأننى أنا التى خنقته. مع أننى لم أخنقه. لقد ضغطت عليه ضغطة خفيفة جداً، ولم أكن أقصد أن أقتله، لم أكن أقصد أن أقتله . ولكن الله هو الذي قتله!

وانفجرت خديجة فى بكاء عنيف، وبكى معها دون أن أدري، رغم أننى قاومت الدموع . لكنى لم أستطع.

وسألتها بعد دقائق : ومتى ستخرجين من السجن؟ قالت بغير ميالة: لا أدري. لا يهمنى الآن متى أخرج، إن حياتى هنا ليست أسوأ كثيراً من حياتى بالخارج. إن ما يتعبنى الآن ليس هو السجن. وإنما الصداح والأرق، فأنا أشعر كأن رأسى سينفجر، وأشعر برغبة فى الصراخ بأعلى صوتى.

ودخلت الاخصائية الاجتماعية فى ذلك الوقت وقالت لى : إن خديجة تصرخ أحياناً بالليل، وتلطم على وجهها. وقد رأينا تحويلها إلى الطبيب النفسى لتأخذ العلاج المناسب.

ونظرت إلى خديجة وقالت : أنهم يظنون أننى أصبحت مجنونة، ولكنى لست مجنونة، ولست قاتلة، ولست مجرمة، ولكن قولوا لى ماذا كنت أفعل؟ ماذا كنت تفعل أى أم فى مكانى؟

ونظرت إلى خديجة بعينين تقذفان ناراً وسألتنى: ماذا كنت تفعلين يا دكتوراه لو كنت مكانى؟ هل أنت أم؟

قلت لها : نعم.

وسألت مرة أخرى : ماذا كنت تفعلين لو كنت مكانى؟

وقبل أن أرد كانت الإخصائية قد أخذت خديجة من يدها وأخرجتها من الحجرة. وبقيت وحدي بضع لحظات أفكر، وظل سؤالها يتردد فى نفسى كثيراً. وكنت أعرب الإجابة، وهى ليست بالتاكيد أن أقتل طفلى، ولكن أن أقتل الظلم والفقر والإستغلال فى المجتمع بجميع الأسلحة، وأحد هذه الأسلحة هى الكتابة التى تفتح الأذهان والعيون على الحقائق، ولكن خديجة لم تكن تملك من الأسلحة ما يمكنها من أن تقتل الظلم والفقر والإستغلال.

كل ما كانت تملكه من سلاح هو أن تضغط على طفلها حتى يموت، وتنقذه من الظلم والفقر والإستغلال. لقد مارست خديجة حقها الطبيعى كإنسانة تريد أن تقاوم الظلم. إنها لم تستسلم كبقية النساء المظلومات، وذلك بسبب ذكائها، وبسبب شخصيتها المكافحة الإيجابية. لقد رفضت خديجة الإستسلام. وأرادت أن تقاوم بالفعل. وإن الفعل الذى قامت به هنا لم يكن هو الفعل الصحيح، أو الفعل الذى ينقذها هى وطفلها من الظلم، لكنه كان الفعل الوحيد الذى تملكه. الفعل الوحيد الذى تستطيع أن تمارسه وتقاوم به الظروف السيئة التى عاشتها. وإن الصداق والأرق والصراخ والعصاب الذى أصابها ليس إلا نوعاً من المقاومة وعدم الاستسلام. إن خديجة لا تزال تقاوم طالما هى قادرة على ذلك جسدياً

ونفسياً. إنها لا تملك من وسائل المقاومة إلا جسدها ونفسها، وهى تقاتل بهما، وتدافع بهما عن حقها فى الحياة. إن خديجة ليست مجرمة، وليست قاتلة. ولكنها مقتولة، ترفض وتقاوم قبل أن تموت تماماً. وهى ضحية ظروف اجتماعية ظالمة، استغلتها ونهشتها كقطعة لحم، ثم ألقت بها فى السجن كهيكل عظمى أكلوا منه اللحم. كيف يمكن أن تتصور بعد كل ذلك أن المشكلة داخل رأس خديجة، أو فى جسدها، أو فى خلل فى الهرمونات المؤنثة. قال لى أحد الأطباء قبل أن أسمع مشكلة خديجة أن الأم التى تقتل طفلها مثل خديجة مصابة بخلل فى إفراز الهرمونات المؤنثة وهذا يسبب ضعفاً فى شعورها بالأثمة. وقال طبيب آخر أن خديجة تحتاج إلى تحليل نفسى لمعرفة علاقتها بأبيها وأمها فى طفولتها، ولا بد أنها عانت من عقدة أوديب، وكانت تكره أمها، وقد أفسد هذا الشعور أمومتها، وعجزت عن أن تحب طفلها كأى أم طبيعية.

وهكذا كان من الممكن للأطباء والاختصاصيين أن يدخلوا حالة خديجة فى متاهات علمية عن الهرمونات والغدد الصماء وعقدة أوديب الخ. وبالطبع لم يستمع أحدهم إلى قصة خديجة كلها، وإذا سمعها فهو لا يرى أن هناك صلة بين ظروفها الاجتماعية وبين تعبها النفسى أو الفعل الذى قامت به (وهو قتل طفلها) من أجل حمايته من الظلم والفقر والإستغلال. وأنها ليست مذنبه، وليست مريضة نفسياً. وإنما ظروفها الاجتماعية هى المذنبه، وهى المريضة.

فهرست

رقم الصفحة

| | |
|-----|--------------------------------|
| ٥ | الجزء الأول : الدراسة |
| ٧ | أولاً : مقدمة |
| ١٣ | ثانياً : ما هو حجم المشكلة |
| ١٨ | ثالثاً : حول التعريفات العلمية |
| ٦٥ | الجزء الثاني : مناقشة |
| ٦٧ | مناقشة نتائج البحث |
| ١٢٨ | كلمة حول علاج المرأة من العصاب |
| ١٣٥ | الجزء الثالث : نماذج |
| ١٣٧ | زينب |
| ١٥٣ | علياء |
| ١٦٠ | كاميليا |
| ١٦٥ | نجوي |
| ١٧١ | ليلي |
| ١٨٠ | مديحة |
| ١٨٧ | سوزان |
| ٢٠٠ | فاطمة (أ) |
| ٢١٠ | سهير |
| ٢٢٥ | سميحة |
| ٢٣٤ | فاطمة (ب) |
| ٢٣٩ | درية |
| ٢٤٥ | خيرية |
| ٢٥٣ | وديدة |
| ٢٦٢ | ابتسام |
| ٢٧٠ | خديجة |



يتناول هذا الكتاب مظاهر وأسباب
«العصاب» الذي تشكو منه نساءنا وفتياتنا،
وخصوصاً نساءنا وفتياتنا المتعلقات، اللاتي
يفكرن بنمط جديد، ويجدن أنفسهن وسط مجتمع
جديد.

ويلخص الكتاب، ويناقش، نتائج دراسة
ميدانية قامت بها المؤلفة بين نساءنا وفتياتنا
المتعلقات وغير المتعلقات، العصائيات،
والطبيعات.

ويطرح - في القسم الثالث منه - نماذج حية
لهن.

دار و مطابع المستنقيل بالعجالة والآسكنة
و مؤسسة المعارف في بيروت

To: www.al-mostafa.com